إبداعات عالمية

376

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

العقرب
وقصص أخرى

(الجزء الثاني)

تأليف: بول بولز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مراجعة: د. سليمان خالد الرباح

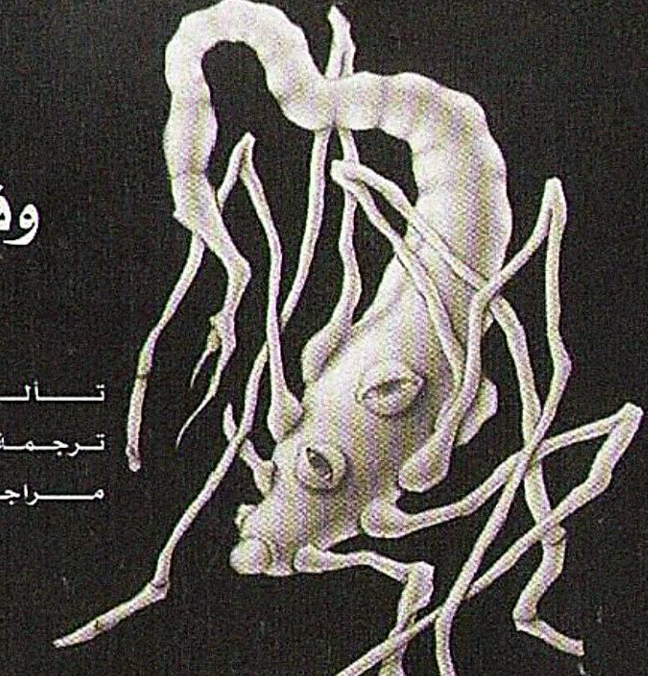

فبراير 2009

hamza mizou

الفنان: نواف فهد المعتوق

العقرب

رصاص وأكريليك على ورق

٤٥×٣٧ سم

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

العقرب
وقصص أخرى
(الجزء الثاني)

تـــألـــيـــف: بول بولز
ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام
مـــراجـــعـــة: د. سليمان خالد الرياح

العدد 376 فبراير 2009 | 1 |

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام
بدر سيد عبد الوهاب الرفاعي

هيئة التحرير
د. [illegible]
د. [illegible]
[illegible]
[illegible]
د. [illegible]
[illegible]

سكرتيرة التحرير
[illegible]

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E.Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة – الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٠٣
ردمك: ٦-٢٦١-٠-٩٩٩٠٦

• العقرب وقصص أخرى
(الجزء الثاني)

العنوان الأصلي:

The Scorpion

by: Paul Bowles

Penguin Books 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2009م

إبداعات عالمية - العدد 376

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

مقدمة المراجع

بول بولز كاتب متميز، غزير الإنتاج، وما هذه المجموعة - والجزء الأول منها الصادر في العدد الماضي من هذه السلسلة - سوى النزر اليسير من إنتاجه القصصي.

يكتب بولز بلغة إنجليزية بسيطة وواضحة وخالية من التعقيد، الأمر الذي يسهل من عملية الترجمة ومن مهمة المترجم. كما يكثر من المفردات والتعابير العامية المستخدمة في المواقف غير الرسمية في الحياة اليومية. وهذا بالطبع يناسب أسلوب الحوار الذي يكثر منه إذا أراد أن يعبر عن موقف معين أو صراع بين أشخاص، بدلا من اللجوء إلى أسلوب السرد. ومما لا شك فيه أن أسلوب السرد أسهل على الكاتب من أسلوب الحوار، ولكن الكاتب المتمكن من أدواته هو الذي يستخدم أسلوب الحوار لأنه يثري العنصر الدرامي ويعطي حيوية للنص. وإن كان يبدو أن بولز يلجأ إلى الرمز في أحيان قليلة، كما هي الحال في قصة «الضبع».

كما تتسم كتابات بولز باستخدام كثير من الألفاظ والتعابير العربية والإسبانية والفرنسية في قصصه، وبعضها باللهجات الدارجة، حيث إن أحداثها تقع في بلاد ومناطق مختلفة في المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية، (باستثناء قصة «في الغرفة

الحمراء» التي تدور أحداثها في سريلانكا). وهذا يدل على كثرة أسفاره واحتكاكه بثقافات متعددة تنعكس في قصصه. وكمثال على ذلك نجد أن أحداث إحدى قصصه «العين» تقع في مدينة طنجة المغربية. ويبدو أن اختياره لهذه المدينة ليس عشوائيا، بل له دلالته ومغزاه، فهي تطل على مضيق جبل طارق، وهي بذلك تمثل حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وتشتمل القصة على حوار بين ثقافة غربية يمثلها «دنكان مارش» (الكندي الجنسية) وثقافة عربية يمثلها «العربي». ومن الأمثلة الأخرى على هذا الحوار قصة «زمن الصداقة»، إذ تمثل الثقافة الغربية فيها «الآنسة ويندلينج»، بينما يمثل الثقافة العربية «سليمان» و«بوفيلجا».

أبطال قصص بولز شخصيات بسيطة ومن واقع الحياة، وبعضها يحمل أسماء عربية مثل «علال»، وهناك قصة تحمل اسما عربيا وهو «مجذوب»، وهي بالطبع تعبر عن ثقافة عربية، مثل القصتين السابقة الإشارة إليهما. أما الشخصيات الأخرى غير العربية مثل «رامون» في قصة «اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز» فهي تعبر عن قيم وأفكار وتقاليد غربية، وإذا التقت بشخصيات أجنبية بالنسبة إليها فمن الطبيعي أن يحدث احتكاك بين ثقافتين وحضارتين وقيم وتقاليد متباينة.

تتناول قصص بولز تفاصيل الحياة اليومية في المدينة

أو المنطقة أو البيئة التي تقع فيها الأحـداث، مـع وصف دقيق وشامل لها وذكر أسماء الأماكن وما يميزها من معالم جغرافية.

وبعد... عزيزي القارئ... أرجو أن تقضي وقتا ممتعا في قراءة قصص بول بولز، وفي صحبة شخصياته التي تنبض بالحياة، وفي وصفه للأماكن بمعالمها المختلفة، ذلك الوصف الذي يجعلك تشعر كما لو كنت تعرف تلك الأيام، وسبق أن مررت بها أو عشت فيها.

د. سليمان خالد الرباح

أنتِ لستِ أنا

أنتِ لســتِ أنا. لا أحد غيري يمكن بأي حال أن يكون كذلك. أنـــا أعرف هذا، وأنا أعرف أيـــن كنتِ وما الذي فعلته حتى الآن بالكامل منذ يوم أمس، عندما مضيت إلى خارج البوابة في أثناء تحطم القطار. كان الجميع غاية في الاســـتثارة لدرجة أن أحدا لـــم يلحظني. أصبحت غير ذات أهميـــة حيث كان هناك حديث عن أشلاء الناس والسيارات المحطمة هناك فوق قضبان السكة الحديد. هرعنا جميعا نحن الفتيات إلى أســـفل عندما ســـمعنا الضوضاء، نزلنا إلـــى الأرض عند جدار الحماية من الأعاصير كمجموعـــة من القردة. كانت الســـيدة ورث تعـــض على صليبها وتبكي بشـــدة. أظن أنها جرحت شفتيها. أو ربما ظنت أن واحدة من بناتها الأخريات كانت هناك في القطار. كانت حادثة ســـيئة بالفعـــل، يمكن لأي شـــخص أن يرى هذا. فقد تســـببت أمطار الربيع في تفتيـــت الأرض التي كانت تجعل وصلات الربط ثابتة وراسخة، لذلك تباعدت القضبان قليلا وخرج القطار في النهاية عن الخط إلى مصرف المياه. لكن كيف صار الجميع بلا استثناء غاية في الاستثارة هكذا؟ مازلت عاجزة عن الفهم.

دائما مـــا كرهت القطـــارات، كرهت رؤيتها تمـــر هناك في العمـــق، وكرهت رؤيتهـــا تختفي بعيدا في أعلـــى الوادي صوب المدينة التالية. التفكير فـــي كل هؤلاء الناس المنتقلين من مدينة إلى أخـــرى، كان يجعلنـــي غاضبة من دون داع. مـــن الذي قال لهم: ينبغي عليك الذهاب وشراء تذكرة لك واستقلال رحلة هذا

الصباح إلى ريدينج، ستجتازين ثلاثا وعشرين محطة، وما يزيد على أربعين جسرا، وتعبرين ثلاثة أنفاق، ومازال عليك أن تواصلي رحلتك، حتى بعد وصولك إلى ريدينج ؟ لا أحد. أنا أعرف هذا. أعرف أنه ليس هناك مسؤول يقول أشياء مثل هذه للناس. لكن تخيلي أن وجود مثل هذا الشخص فعلا يمثل سعادة بالنسبة إلي. ربما سيكون هناك فقط صوت ضخم جدا يتحدث في مكبرات صوت يطلق صياحه في جميع الشوارع الرئيسية عبر نظام للإذاعة المحلية.

عندما رأيت القطار هناك في وضع يرثى له، مشلول الحركة على أحد جنباته، مثل دودة عجوز ميتة سقطت من أحد النباتات، شرعت في الضحك، لكنني اخترقت السياج بصعوبة شديدة عندما بدأ الناس يتسلقون النوافذ وهم ينزفون.

كنت في الفناء، وكان هناك غلاف علبة ورقية من جبن (تيد بيتس) فوق المقعد. ثم كنت في البوابة الرئيسية، وكانت مشرعة. في الخارج كانت هناك عربة سوداء عند الحاجز الحجري للطريق، وكان يجلس في مقدمتها رجل يدخن. فكرت في التحدث إليه وسؤاله إن كان يعرف من أنا، لكنني قررت ألا أفعل. كان صباحا مشمسا ممتلئا بالهواء المنعش والطيور، تتبعت الطريق حول التل، إلى أسفل حيث قضبان السكة الحديد. سرت فوق القضبان وأنا أشعر بالاستثارة. بدت عربة القطار الخاصة بالطعام غريبة وهي مطروحة على جانبها وزجاج نوافذها مهشم كله وبعض أقمشة الستائر مسدلة. واصل طائر أبو الحناء إطلاق صفيره من فوق الشجرة. «بالطبع»،

قلت لنفسـي. «يحدث هذا فقط في عالم الإنسـان. إذا كان من المفترض أن يحدث شـيء ما حقيقي، فسوف يتوقف الناس عن الغناء». سـرت في طريق مغطى ببقايـا الفحم بجوار القضبان الحديدية، وأنا أنظر إلى الناس الممددين فوق العشب. كان بعض الرجال قد بـدأوا يحملونهم ناحية مقدمة القطار حيث تتقاطع الطرق البريـة مع القضبان، كانت هناك امـرأة في زي أبيض، حاولت الابتعاد عن المرور بالقرب منها.

قررت الهبوط إلى أسـفل طريـق عريض يمر خلال أحراش التوت الأسود، وفي أرض صغيرة خالية من الأشجار عثرت على موقـد قديم ومجموعة كبيرة من الضمادات والمناديل القذرة في قمامة موجودة في منتصف هذه الأرض. كان كل شيء فوق كومة من الأحجار. وجدت كثيرا من الأحجار الكروية وبعض الحجارة الأخـرى المتنوعة. كانت الأرض هنا ناعمـة جدا ورطبة. عندما رجعـت هناك إلى القطار بـدا لي أن هناك مزيـدا من الناس يركضون هنا وهناك، سـرت بالقرب من الأشخاص الذين كانوا ممدديـن جنبا إلى جنب فوق الرماد، ونظرت إلى وجوههم. كان أحد هـذه الوجوه لفتاة وكان فمها مفتوحا. أسـقطت فيه أحد الأحجـار وانصرفت. رجـل بدين كان فمه مشـرعا هو الآخر، أسـقط فيه حجرا خشـنا حادا بدا مثل قطعـة فحم. خطر لي أننـي ربما لن تتوافر معي أحجار لهـم جميعا، وكانت الجمرات صغيرة جدا. كانت هناك امرأة عجوز تمضي جيئة وذهابا بسرعة شـديدة وهي تمسح يدها في طرف ثوبها، مرارا وتكرارا. كانت ترتدي رداء طويلا من الحرير تصميمه يحتوي على مجموعة من

الأفواه الزرقاء المطبوعة في كل مكان فيه. ربما كان من المفترض أن تكون نباتات لكن شكلها كان يشبه الأفواه. نظرت إلي بجنون وحافظت أنا على ابتعادي منها. لاحظت فجأة يدا ذات خواتم في أصابعها تبرز من تحت قطع كثيرة من المعدن الملتوي. سحبت المعدن بقوة ورأيت وجها. كانت امرأة وكان فمها مغلقا. حاولت أن افتحه لأتمكن من وضع حجر فيه. أمسك بي رجل من كتفي وجذبني بعيدا. بدا غاضبا. «ما الذي تفعلينه؟»، صرخ. «هل أنتِ مجنونة؟» شرعت في البكاء وقلت إنها كانت أختي. كانت بالفعل تشبهها قليلا، أخذت أنتحب وأقول: «لقد ماتت. لقد ماتت». توقف الرجل عن غضبه وسار بي نحو مقدمة القطار، ممسكا بذراعي بإحكام بإحدى يديه. حاولت أن انتزع نفسي منه، في الوقت نفسه قررت ألا أقول شيئا أكثر من «لقد ماتت» بين الحين والآخر. «حسن»، قال الرجل. عندما بلغنا آخر مقدمة القطار أجلسني فوق العشب بمحاذاة عدد كبير من الناس الآخرين. كان بعضهم يبكي، لذلك توقفت وأخذت أراقبهم.

بدا لي أن الحياة بالخارج كانت تشبه الحياة في الداخل. دائما كان هناك شخص ما لإيقاف الناس عن فعل ما يرغبون في عمله. ابتسمت عندما فكرت أن هذا كان بالضبط عكس ما شعرت به عندما كنت لا أزال في الداخل. ربما ما نرغب في فعله خطأ، لكن لماذا ينبغي أن يكونوا هم الأشخاص الذين يقررون دائما؟ أخذت أفكر في هذا بينما كنت جالسة هناك اقتلع أوراق العشب حديثة النمو من الأرض. وفكرت أنني سأقرر لمرة واحدة ما يكون صحيحا، وأفعله.

لم يكن قد مــر وقت طويل جدا قبل أن تصل عدة عربات إســعاف. كانت مخصصة لنا، لصف مــن الناس الذين كانوا يجلســون على مقعد طويــل، بالإضافة إلى أشــخاص كانوا يرقدون هنا وهناك علــى نقالات أو فوق المعاطف. لا أعرف لماذا، بمــا أن الناس لم يكونوا يتألمــون، أو ربما كانوا كذلك، عندمــا يكون هناك العديد من الناس فــي حالة ألم معا في الوقت نفسه لا يحبون على الأرجح إصدار ضوضاء تعبيرا عن ألمهــم، ربما لأنه ليس ثمة من ينصــت لهم. بالطبع لم أكن في حالة ألم على الإطلاق. كنت ســأخبر أي شخص بذلك لو كنت ســئلت. لكن لم يسألني أحد. كان ما سألوني عنه هو عنواني، وأعطيــت أنا عنوان أختي لأنه كان فقط على مســافة نصف ساعة بالســيارة. بالإضافة إلى أنني مكثت معها لفترة ما قبل أن أرحل، لكن هذا كان منذ ســنوات، على ما أعتقد. تم نقلنا جميعا معا، البعض ممدد داخل عربة الإسعاف، وبقينا جالسين على مقعد طويل غير مريح في عربة غير مزودة بســرير. لابد أن المرأة التي كانت جالســة إلى جواري أجنبية، فقد كانت تئن وتبكي كالرضيع، ولم تكن بها قطرة دم تمكنني من رؤيتها، في أي مــكان. نظرت إليها طويلا من الجنب في عناية شــديدة، لكنها بدت مستاءة من هذا، وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر، وهي لاتزال تئن وتنتحب.

عندمــا وصلنا إلى المستشــفى تم اصطحابنا جميعا وإجراء الفحص علينا. في ما يتعلق بي قالوا فقط: «صدمة»، وســألوني مرة ثانية عن مكان إقامتي. أعطيتهم العنوان الســابق نفســه،

وســـرعان ما أخذوني إلى الخارج مرة ثانية ووضعوني في المقعد الأمامي لإحدى السيارات من طراز «ستيشن»، بين السائق ورجل آخر، مرافقه، على ما أظن. تحدث كلاهما إلي بشـــأن الطقس، لكنني كنت على دراية كافية بألا أدع نفسي تقع في الشرك بهذه الســـهولة. فأنا أعرف كيف أن أبسط الموضوعات يمكن أن يلتف حولـــك ويخنقك بينما تظن أنك في أمان تام. «لقد ماتت»، قلت لمـــرة واحدة، عندما كنا في منتصف الطريق بين المدينتين. «ربما لا، ربما لا»، قال الســـائق، كما لو كان يتحدث إلى طفلة. أبقيت رأسي منكســـا معظم الوقت، لكنني نجحت في إحصاء محطات البنزين بينما كنا نتقدم في طريقنا.

عندما وصلنا إلى بيت أختي نزل الســـائق ودق الجرس، كنت قـــد نســـيت أن الشـــارع كان قبيحا جدا، وأن البيـــوت قد بنيت الواحد قبالة الآخر، بطريقة مشـــابهة، ويفصل بينها فقط ممر أســـمنتي ضيق. وكان كل بيت منخفضا عـــدة أقدام عن الآخر، حتـــى بدا الصف الطّويـــل منها مثل مجموعة ســـلالم ضخمة. كان من الواضح أنه قد ســـمح للأولاد باللعـــب على هواهم في الساحات الأمامية كلها، ولم يكن هناك عشب في أي مكان على مرمى البصر، طين فقط.

جـــاءت أختي إلى الباب. تحدث الســـائق معها بكلمات قليلة، ثم رأيتها تبدو شـــديدة القلق على نحو مفاجئ جدا. تقدمت هي إلى السيارة ومالت عليها. كانت ترتدي نظارة جديدة، أكثر سمكا من الســـابقة. لم يظهر أنها كانت تنظر إلي. بدلا من ذلك قالت للسائق: «هل أنت واثق من أنها على ما يرام؟».

«بكل تأكيد»، أجاب: «لم أكن لأخبرك لو لم تكن كذلك. لقد خضعت توا في المستشفى لفحص كلي. إنها مجرد صدمة. الراحة الجيدة ستجعلها بخير». نزل المرافق ليساعدني على النزول والسير على الرغم من أنني كان بإمكاني السير بمفردي بسهولة. رأيت أختي تنظر إلي بجانب عينها بالطريقة نفسها التي أعادتها. عندما بلغت الرواق سمعتها تهمس للمرافق: «إنها لا تبدو لي بعد على ما يرام». ربت هو على ذراعها وقال: «ستكون بخير، فقط لا تدعيها تستثار».

«هذا هو ما يقولونه دائما»، احتجت أختي، «لكنها مستثارة تماما».

دخل المرافق إلى السيارة، «إنها لم تصب على أي حال يا سيدتي» وصفق الباب.

«لم تصب!» صرخت أختي، وهي تراقب السيارة، التي انطلقت وهي لاتزال واقفة تتابعها بنظرها حتى بلغت أعلى التل وانعطفت. كنت لاأزال انظر إلى أرضية الرواق لأنني لم أكن متأكدة بعد مما كان سيحدث. دائما ما كنت أشعر بأن شيئا ما كان على وشك الوقوع، وعندما كان يتملكني هذا الشعور، أبقى ساكنة تماما، وأترك ما سيحدث لكي يحدث. ليست هناك جدوى من التساؤل بشأنه أو محاولة إيقافه، في هذا الوقت لم يكن لدي شعور بأن حدثا معينا كان على وشك الوقوع، لكنني شعرت بأنني سأكون أكثر ملاءمة لفعل الشيء الصواب إذا تريثت وتركت أختي تتصرف أولا. كانت واقفة حيث كانت، بمريلتها، تقلم أطراف أغصان بعض نبات

الصفصــاف الأمريكي، التي برزت خارج أجمة بجانبها. كانت لاتــزال ممتنعـــة عن النظر إلـــي. وأخيرا قالت في ســـخط: «بإمكانـــك الذهاب إلى الداخـــل. إن الجو بارد هنا». ففتحت الباب ومضيت إلى الداخل.

تبينت على الفور أنها غيرت وجددت كل شـــيء، لكن بطريقة عكســـية. فقد كانت هناك دائما صالة وحجرة معيشة، باستثناء أن الصالة كان من المعتاد أن تكون على الجانب الأيســـر لحجرة المعيشـــة والآن أصبحت على اليمين. جعلني هذا أتســـاءل: لماذا لـــم ألاحظ أن البـــاب الأمامي صار الآن فـــي نهاية الرواق على اليمين. لقد نقلت حتى الســـلالم والمدفأة إلـــى مكانين آخرين. كان الأثـــاث هو عينه، لكـــن كل قطعة تم وضعها في مكان مغاير تماما لما كانت فيه في السابق. قررت ألا أنطق بشيء وأن أدعها تدلي بتفسيرها إذا شعرت هي بالحاجة إلى ذلك. خطر لي أنها لابد وقد تكلفت كل ســـنت احتفظت به في البنك، ولايزال البيت يبدو بالضبط مثلمـــا كان عليه في البداية عندما بدأت هي في تجديـــده. أبقيت فمي مغلقا، لكنني لم أقو على عدم التطلع هنا وهناك بقدر كبير من الفضول لأرى إن كانت قد أجرت الانقلاب على كل التفصيلات من دون استثناء.

ذهبـــت إلى حجرة المعيشـــة، كانت الكراســـي الثلاثة الكبيرة لاتزال موضوعة حول المائدة الموجودة في وسط الحجرة ومغطاة بمـــلاءات قديمة، ومصبـــاح الأرضية عند البيانـــو الآلي كان له الغطاء الســـيلوفاني الممزق نفســـه فوق حاجب الضوء الذي في أعلاه. بدأت أضحك، فقد بدا لي كل شيء كوميديا جدا عندما

استرجعته. رأيتها ممسكة بطرف الستارة في قوة وهي تنظر إلي مليا. واصلت أنا الضحك.

كان الراديو المجاور للباب يذيع معزوفات للأورغن. فجأة قالت أختي: «اجلسي، يا إيثيل. لدي شيء يجب أن أفعله، سوف أعود». دخلت إلى المطبخ عبر الصالة وسمعت صوت الباب الخلفي ينفتح.

كنت أعرف بالفعل إلى أين سوف تذهب. كانت خائفة مني، وأرادت من السيدة جيلينك أن تحضر. أنا موقنة تماما، أنهما ستحضران في غضون دقيقة، وأن أختي تمضي الآن مباشرة نحو حجرة المعيشة هذه المرة. وقد بدت الآن غاضبة، لكنها لم يكن لديها ما تقوله. السيدة جيلينك قذرة وبدينة. صافحتني وقالت: «حسنا، حسنا، فترة طويلة». قررت ألا أتحدث إليها هي الأخرى لأنني لا أثق بها، لذلك تحولت عنها ورفعت غطاء البيانو الآلي. وحاولت أن أضغط بعض المفاتيح، لكن المزلاج كان مشدودا، وكانت المفاتيح كلها ثابتة ولم تتحرك. أغلقت الغطاء ومضيت لأتطلع عبر النافذة. كانت هناك فتاة صغيرة تدفع عربة دميتها على امتداد الرصيف أسفل التل، ظلت الفتاة تداوم على النظر إلى الوراء إلى الآثار التي صنعتها العجلات عندما تركت جزءا مبتلا من الرصيف ومضت إلى بقعة جافة. كنت قد عقدت العزم على ألا أدع للسيدة جيلينك فرصة ثانية لتخدعني، لذلك ظللت صامتة. جلست على الكرسي الهزاز عند النافذة وبدأت أدندن.

قبل انقضاء فترة طويلة شرعتا في التحدث إحداهما إلى الأخرى بأصوات خفيضة، لكنني سمعت بالطبع كل ما قالتاه.

قالت السيدة جيلينك: «اعتقدت أنهم كانوا يعملون على العناية بهـا». قالت أختي: «أنـا لا أعرف. لذلك أنـا أفعل هذا لكن الرجـل ظل يردد لي أنها كانت على ما يرام. هه! إنها بالضبط على ما هي عليه». «لماذا أنت متأكدة؟»، قالت السيدة جيلينك. وصمتتا للحظة.

«حسنا أنا لن أصبر على هذا!» قالت أختي، فجأة، ثم أضافت، «سأخبر الدكتور دُن برأيي فيه».

«اتصلي بمقر الدار»، حثتها السيدة جيلينك.

«سـأفعل بكل تأكيد»، أجابت أختي: «ابق أنت هنا. سأذهب لأرى إن كانـت كيت موجـودة في بيتها». كانت تقصد السـيدة شولتز، التي كانت تقطن في الجانب المقابل ويوجد لديها هاتف. لم أنظر حتى إلى أعلـى عندما خرجت هي. لقد اتخذت قرارا كبيرا، وكان أن أبقى في البيت وألا أدع نفسي - تحت أي ظرف مـن الظـروف - أؤخذ إلى هنـاك. كنت أعـرف أن الأمر ربما سـيكون صعبا، لكن كانت لديّ خطة ستنجح إذا استخدمت كل قوة إرادتي. إن لدي إرادة قوية.

كان أول شيء مهم أفعله هو أن أبقى هادئة، وألا أتفوه بكلمة ممكن أن تفسـد السـحر الذي كنت قد بدأته. كنت أعرف أنها سـتصبح معركة بيني وبين أختـي، لكنني كنت واثقة من أن قوة شخصيتي وتعليمي العالي قد أهلاني لمثل هذه المعركة بالضبط، وإنه بمقدوري الفوز بها. كل ما كان علي أن أعمله هو أن أواصل الإصرار في داخل نفسـي، وسوف تحدث الأمور بالطريقة التي أردت أن تحدث بها. قلت هذا لنفسـي بينما كنت أتأرجح على

الكرسي. كانت السيدة جيلينك واقفة عند مدخل الصالة منحنية، تقريبا تطل إلى الخارج من الباب الأمامي. بدت الحياة الآن أكثر وضوحا وأكثر معنى عما كانت عليه لفترة طويلة، طويلة جدا. سأحقق ما أردته بهذه الطريقة «لا يمكن لأحد أن يوقفك»، قلت لنفسي.

مضى ربع ساعة قبل أن تعود أختي. عندما دخلت، كان معها كل من السيدة شولتز وشقيقها، وكان الرعب باديا عليها. عرفت بالضبط ما الذي حدث قبل أن تخبر أختي السيدة جيلينك. اتصلت بالدار واشتكت للدكتور دُن من إطلاق سراحي، وبدوره كان مستثارا جدا، وأخبرها بأن تعمل على إبقائي بكل الوسائل لأنني لم يطلق سراحي على الإطلاق، وأنني تمكنت من الخروج بطريقة ما. كنت مصدومة بعض الشيء لسماع هذا يقال بهذه الطريقة، لكن كان علي الآن، وهذا هو ما فكرت فيه، أن أعترف لنفسي بأن هذا بالضبط هو ما حدث.

نهضت عندما حضر أخو السيدة شولتز، وحملقت فيه بقوة.

«هوني عليك، الآن، يا آنسة إيثيل»، قال، وبدا صوته متوترا.

انحنيت له: على الأقل فقد كان مهذبا.

«عجبا يا ستيف»، قالت السيدة جيلينك.

راقبت كل حركة صدرت عنهم. سأتمنى الموت على أن أفقد مفعول السحر. شعرت بأنه في إمكاني معالجة الأمر، لكن بمجهود عظيم. كان شقيق السيدة شولتز يحك جانب أنفه، ويده الأخرى كانت ترتعش في جيب بنطلونه. عرفت أنه لن يسبب لي أي متاعب. السيدة شولتز والسيدة جيلينك لن تذهبا إلى أي

حد يزيد عما تخبرهما به أختي. وهي نفسها كانت خائفة مني لأنها - على الرغم من أنني لم ألحق بها أبدا أي ضرر - كانت على اقتناع دائم بأنني سأفعل ذلك يوما ما. ربما كان هذا لأنها عرفت ما كنت بصدد أن أفعله بها، لكنني أشك في هذا، وإلا لفرت هي من المنزل.

«متى سيأتون؟» سألت السيدة جيلينك.

«سيأخذونها عما قليل»، قالت السيدة شولتز.

إنهم جميعا واقفون عند المدخل.

«رأيتهم وهم يقومون بإنقاذ ضحايا الفيضان، هل تذكرون ما أذيع الليلة الماضية في الراديو؟»، قال أخو السيدة شولتز. ثم أشعل سيجارة واستند بظهره إلى أعمدة الدرابزين.

كان البيت قبيحا جدا، لكن كانت لدي أفكار لجعله يبدو أفضل. أنا لدي ذوق ممتاز في الديكور. حاولت ألا أفكر في هذه الأشياء، وقلت مرارا وتكرارا في عقلي: «اجعلي الأمر ينجح».

أخيرا جلست السيدة جيلينك على الأريكة عند الباب وجذبت تنورتها على ساقيها وسعلت. لاتزال الحمرة تبدو على وجهها والجدية أيضا. كدت أضحك بصوت عال عندما فكرت في ما ينتظرون رؤيته، فعلا لأعرف إن كانوا على دراية به.

سمعت بالخارج صوت باب سيارة يغلق بعنف. في الممر حضر رجلان من الدار. كان هناك شخص آخر يجلس إلى عجلة القيادة، منتظرا. ذهبت أختي سريعا إلى الباب الأمامي وفتحته. قال أحد الرجلين: «أين هي؟» دخل كلاهما ووقفا ينظران إليّ برهة وابتسما ابتسامة عريضة.

«حسنا، مرحبا!» قال أحدهما. التفت أحدهما وقال لأختي: «هل توجد مشكلة؟» ضربت أختي رأسها بيدها: «إنه لمن الغريب أنكم لا تستطيعون أن تكونوا أكثر اهتماما»، قالت بغضب: «إنهم يمضون بالطريقة نفسها، كيف تعرفان ما الذي سيفعلونه؟».

تمتم الرجل ثم اقترب مني وقال: «هل ترغبين في القدوم معنا؟ أعرف شخصا ما بانتظار رؤيتك».

نهضت وسرت ببطء عبر الحجرة، وأنا أنظر إلى الستارة في أثناء سيري، بصحبة الرجلين عن يميني ويساري، عندما وصلت إلى المدخل بالقرب من أختي أخرجت يدي من جيب معطفي ونظرت فيها، كان في يدي أحد الأحجار التي جمعتها. كانت المهمة سهلة جدا. قبل أن يتمكن أحدهما من إيقافي مددت يدي وحشرت الحجر في فمها، صرخت هي بالضبط قبل أن ألمسها، وبعد ذلك نزفت شفتاها مباشرة، لكن الأمر برمته استغرق وقتا طويلا. كانوا جميعا واقفين بثبات في أماكنهم. بعد ذلك، أمسك الرجلان بي من ذراعي بإحكام شديد، وكنت أنظر إلى ما حولي، إلى الحوائط. شعرت بأن أسناني الأمامية قد تحطمت. وكان بإمكاني تذوق الدم في شفتيّ، وأحسست بأنني كنت على وشك الإصابة بالإغماء. أردت أن أضع يدي على فمي، لكنهما أمسكا بذراعي «هذه هي نقطة التحول»، فكرت.

أطبقت جفني بإحكام. عندما فتحتهما كان كل شيء مختلفا، وعرفت أنني ربحت، لم أتمكن من الرؤية بوضوح للحظة، لكن حتى في أثناء تلك اللحظة رأيت نفسي أجلس فوق الأريكة

ويـــداي أمام فمـــي. عندما اتضحت لي الرؤيـــة، رأيت الرجلين يمســـكان بذراعي أختي، وأنها كانت تكافح كفاحا مريرا. دفنت وجهـــي بين يدي ولم أرفعه ثانية، بينما كانا يخرجانها من الباب الأمامـــي، حدث أن اصطدموا بحامـــل المظلات وحطموه، جرح الحامل المحطـــم كاحلها، وركلت هي قطعا من البورســـلين إلى داخـــل الصالة، كنت مســـرورة جدا، ســـحبوها عبـــر الممر إلى الســـيارة، وجلس كل رجل منهما إلى جوارها في الخلفية. كانت تصرخ وأســـنانها تبرز، لكن بينما غـــادروا حدود المدينة توقفت هي وبدأت تبكي، ومع ذلك كانت تحصي محطات الخدمة على طول طريق عودتها إلى الدار، ووجدت أنها كانت أكثر مما ظنت. عندمـــا وصلوا إلى تقاطع الطرق مع القضبان بالقرب من مكان وقـــوع حادثة القطار، أطلت من النافـــذة، لكن العربة كانت فوق القضبان قبل أن تدرك أنها كانت تنظر من الجانب الخطأ.

اجتازت البوابـــة، وهي منهارة بالفعل. احتفظوا بالآيس كريم الذي وعدوها به للعشـــاء، لكنها لـــم تكن تصدقهم، وبينما كانت تمضي عبر الباب الرئيســـي بـــين الرجلين توقفت فـــي العتبة، وأخرجـــت أحد الأحجار من جيب معطفهـــا ووضعته في فمها. حاولـــت أن تبتلعه، لكنه انحشـــر في حلقها، فأســـرعا بها عبر إحـــدى الصالات إلى حجرة اســـتقبال صغيرة وجعلاها تتخلص منه. كان الشيء الغريب، الذي أفكر فيه الآن، أن أحدا لم يدرك أنها لم تكن أنا.

وضعوها في السرير، وبحلول الصباح لم تعد تشعر برغبة في البكاء، إذ كانت متعبة جدا.

الوقت بين العصر والمغرب والسـماء تمطر بغزارة. كانت هي جالسة في سريرها (السرير نفسه الذي اعتدت أنا استخدامه) فـي الدار، تدون كل هذا في الورق. لم تكن لتفكر أبدا في عمل هذا حتى الأمس، لكنها الآن تظن أنها أصبحت أنا، لذلك راحت تعمل كل شيء اعتدت أنا القيام به.

البيت هادئ جدا. مازلت أنا في حجرة المعيشة، جالسة على الأريكـة. في إمكاني المضي إلى الطابق العلوي وإلقاء نظرة على غرفتها إذا أحببت. لكن مرت فترة طويلة منذ أن كنت أصعد إلى أعلـى، ولم أعد أعرف كيف تم ترتيب الغرف، لذلك فأنا أفضل البقـاء هنا في الطابـق الأرضي إذا نظرت إلـى أعلى يمكنني أن أرى نافـذة مربعة من الزجاج الملـون أرجواني وبرتقالي فوق السلالم، على هيئة ساعة رملية، ومع ذلك لم يكن الضوء منتشرا هنا بشـكل كبير جدا لأن المنزل المجاور ملاصق جدا، بالإضافة إلى أن المطر كان يهطل بقوة هنا أيضا.

اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز(*)

وقع رامون عقد العمل في كادث(* *). كانت السفينة ستزور سانتا كروز دي تنريف، أول الموانئ في رحلتها، بعد يوم ونصف اليوم في البحر. في الليل دخلت السفينة الميناء، قبل الظلام بقليل. أضاءت الكشافات الموجودة في كل مكان في الميناء الجبال العالية المنحدرة وجعلتها خضراء بلون العشب في مقابل السماء الداكنة. وقف رامون عند الدرابزين يشاهد المنظر «لا بد أنها أمطرت هنا»، قال لأحد أفراد الطاقم كان يقف بجانبه. زمجر الرجل، لم يكن ينظر إلى المنحدرات الخضراء التي تلمع بصورة غير طبيعية في الوهج الكهربائي، بل ينظر إلى أضواء البلدة في الأمام، «خضراء جدا»، وقال رامون وهو أقل تأكدا، لم يعبر الرجل حتى عن ضيقه وهو يرد.

بمجرد أن رست السفينة، جاءت أعداد كبيرة من الهندوس أصحاب المحلات، حاملين أشرطة مطرزة وسلعا مشغولة للركاب الذين ربما لن ينزلوا إلى الشاطئ. بقي الهندوس على سطح السفينة الخاص بركاب الدرجة الأولى، غير مبالين بالنزول إلى الدرجة الثالثة حيث كان رامون الصبي المختص في حجرة غسيل الأطباق في مطعم ركاب السفينة. لم يسبب له العمل إزعاجا حتى الآن، كان قد تحمل المزيد من الأعمال الشاقة في كادث. كان هناك طعام كاف، وعلى الرغم من أنه لم يكن جيدا، فقد كان

(*) ميناء في شمال شرق جزيرة تنريف في جزر الكناري الغربية.

(* *) ميناء جنوب غرب إسبانيا على خليج في المحيط الأطلنطي، وتنطق قادس بالعربية.

أفضــل مما كان يقدم لركاب الدرجــة الثالثة. لم يخطر لرامون من قبل أبدا أنــه كان يريد الخصوصية في إقامته، حتى أنه لم يكــن مباليا بضرورة تقاســم كابينة مع عشــرة أو نحو ذلك من الملاحين. ومع ذلك، كان غير سعيد إلى حد كبير منذ رحيله عن كادث. باســتثناء الأوامر التي كانــوا يصدرونها إليه في المطبخ، فقد كان ســلوك البحارة معه كما لو أنــه لم يكن موجودا. كانوا يغطون سريره بملابسهم المتســخة، ويتمددون عليه، ويدخنون، في الليل عندما كان يرغب في النوم. فشــلوا في إشراكه في أي محادثة، وحتى الآن لم يأت أحد بأي تلميح، من أي نوع انتقاصا أو استهجانا، بشأن وجوده بالنســبة إليهم بدا ببساطة على أنه غيــر موجود وحتى بالنســبة إلى أقل النــاس اهتماما بذواتهم، كانت مســائل مثل هذه ســتصبح غير محتملــة. عندما كان في السادســة عشــرة لم يكن رامون في موقف مشــابه، كان يُعامل بخشونة وفظاظة لكن ليس بتجاهل تام.

كان معظم أفــراد الطاقم واقفين في مقدمة الســفينة وهم يدخنون، وكانوا يشــيرون إلى البــارات الواحد إلى جوار الآخر، بينما كانوا يمســحون الضفة بأعينهم. العناد الذي كان نوعا ما وليد شــكواه وتعرضه للظلم، ولأنــه كان يرغب في أن يكون مع نفســه ولو بشكل جزئي خلال إحدى الورديات. مشى رامون إلى مؤخرة السفينة ومال بشدة على الدرابزين، وراح ينظر إلى أسفل في الظلام. كان في إمكانه ســماع صوت بوق سيارة يتم إطلاقه بشكل مســتمر بينما كانت السيارة تســير على امتداد الضفة، وكانــت التلال الخلفيــة تردد الصوت بشــكل متقطع، مضخمة

إياه بينما كانت ترسـله عبر المياه، ومن الجانب الآخر كان يسمع الهدير الخافت لموجات البحر قبالة حاجز الأمواج. كان يشـعر بالحنين إلى الوطن بعض الشـيء، ولأنه واقف هناك فقد أصبح غاضبا أيضا. كان من غير المقبول اسـتمرار هذا الوضع، كانت فتـرة يوم ونصـف اليوم فترة طويلة جـدا، وكان قد عقد العزم علـى أن ينتهز الفرصة على الفور عندما تسـنح له، ولأن عقله الصغيـر غير منضبط فقد أخذ يكرر الصورة المشوشـة لعملية قتال وصراع على نطاق واسـع مع الطاقـم بأكمله، والذي أنهاه بالخروج منه كمنتصر وحيد.

إنه لمن المبهج أن تسير بجوار حاجز المياه ليلا في ميناء غريب، مصحوبا برياح الخريف تدفعك برقة في ظهرك، لم يكن رامون متعجلا، فراح يتوقف أمام كل مقهى، ويستمع إلى أصوات الجيتار والصياح من دون أن يسـمح لنفسه، من ناحية ثانية أن يستدرج أو يعترض سـبيله من جانب النسوة اللائي نادينه من مداخلهن المظلمة، كان عليه أن ينظف مطبخ السفينة بعد الانتهاء من تقديم وجبة إضافية إلى سـتين عاملا قدموا مباشرة إلى هنا على متن السفينة في سانتا كروز، كانوا متجهين إلى أمريكا الجنوبية، لذا كان عليه أن يكون آخر من ينزل من السـفينة، ولذلك راح يبحث عن رفاقـه البحارة فعثر على كثير منهم فـي مقهى «ديل تايد» جالسين إلى منضدة يتناولون بعض المشروبات، رأوه قادما، لكن لم تند عنهم إشارة تدل على تعرفهم عليه أو اهتمامهم به، لم تكن هناك على منضدتهم مقاعد خاوية، مشى نحو المنضدة، وتباطأ قليلا بينما كان يقترب منها، ثم واصل سـيره تجاه نهاية المقهى.

نادى عليه الرجل الموجود خلف البار: «هل تبحث عن شيء ما؟»، استدار رامون وجلس فجأة إلى منضدة صغيرة. وجاء الجرسون وقام بخدمته، لكنه لم يكن باستطاعته أن يميز ما كان يحتسيه، فقد كان يراقب المنضدة الجالس إليها الرجال الستة من بحارة سفينته، مثل شخص متيم. ترك رامون عينيه تتابعان كل إشارة أو إيماءة، وكان منصتا إلى كلماتهم التي كانت تقطعها ضحكات عالية بين الفينة والأخرى. بدأ الامتعاض يتفاقم بداخله، شعر بأنه لو ظل جالسا أكثر من ذلك فسوف ينفجر. دفع كرسيه إلى الخلف وقفز إلى أعلى ثم هرول بشكل درامي مثير إلى خارج الشارع. لم يلحظ أحد خروجه.

بدأ يمشي بسرعة في شوارع البلدة، لم يلق بالا إلى أين كان يمضي. عيناه كانتا مثبتتين على الأفق الوهمي، مضى عبر السوق بطول طريق دي روندا العريض، وفي الشوارع الصغيرة التي تؤدي إلى خلف الكاتدرائية. ازداد عدد الناس في الشوارع بينما كان يمشي بعيدا عن وسط البلدة، حتى وصل إلى ما بدا له أنه منطقة نائية، حيث كانت الدكاكين عبارة عن مجرد أكشاك، وكان مجبرا على المشي بتؤدة مع الحشد. عندما أبطأ من مشيته، شعر بتوتر أقل. وبالتدريج بدأ يهتم بالبضائع المعروضة للبيع وبالناس الموجودين من حوله. خطر له فجأة أنه سيرغب في شراء منديل كبير. خارج أكشاك معينة كانت هناك سلاسل من خيوط مربوطة تدلت منها ممسوكة من أركانها، أعداد كبيرة من الأقمشة المربعة، كانت ألوانها تزهو في توهج المصابيح الكربيدية. عندما توقف رامون ليختار واحدا منها،

عند أقرب كشـــك، أدرك أنه في هذا الكشـــك القريب فتاة ذات وجه ضاحك كانت تشتري بدورها بندانة (منديلا كبيرا). انتظر حتى اختارت المنديل الذي أرادته، ثم خطا بســـرعة إلى صاحب المحل وأشـــار إلى اللفة التي كان يهيئها، قال: «هل لديك منديل آخـــر مثل هذا بالضبط؟» لم تعره الفتاة انتباها ووضعت الباقي فـــي محفظتها. «نعم»، قال صاحب المحل، ومد يده إلى الكاونتر لتفحـــص المناديل. التقطت الفتاة ربطتهـــا الصغيرة الملفوفة في ورقة الجريدة، وانصرفت، ومشـــت بطول الشـــارع، «لا، لا يوجد عندك!» صرخ رامون إلى البائع، وأسرع خلفها كي لا يفقد أثرها في وســـط الحشد. ظل يتتبعها لمســـافة ما على امتداد الطريق العام، حتى انعطفت إلى شـــارع جانبي أفضـــى إلى أعلى التل. كانـــت تفوح هنا رائحة مياه مجاري الصرف الصحي، وكان على ارتفاع عال قليلا. ســـرَّع رامون مـــن خطوته خوفا من أن تدخل الفتـــاة إلى أحد المباني قبل أن تتاح له فرصة التحدث إليها. في مكان ما مـــن عقله الباطن كان يتمنى إقناعها بالذهاب معه إلى مقهـــى «ديل تايد». عندما لحق بها، تحدث بســـرعة من دون أن يتدبر ما كان ينطق به: «يا آنسة». ولأنه فاجأها فقد توقفت عن الســـير وظلت ثابتة فوق أرضية الشارع المبلطة. وعلى الرغم من أنها كانت قريبة جدا منه، فإنه لم يســـتطع رؤية وجهها بشـــكل واضح.

- «ماذا تريد؟».
- «أريد التحدث معك».
- «لماذا؟».

لم يستطع الإجابة.

- «أظن... (تلعثم).

- «ماذا؟!».

كان هناك صمت، ثم عندما ضحكت تذكر رامون وجهها: طلق ومرح، لكنه ليس وجها طفوليا. رغم الثقة التي بعثت فيه بسبب تذكره شكل وجهها، فإنه سألها: «لماذا تضحكين؟».

«لأنني أعتقد أنك مجنون».

لمس ذراعها وقال في جسارة: «سترين إن كنت مجنونا».

«لن أرى شيئا. أنت بحار. وأنا أعيش هنا»، أشارت إلى الجانب المقابل من الشارع. «إذا رآك والدي، فسيتعين عليك قطع الطريق بأكمله ركضا إلى سفينتك». ثم ضحكت مرة ثانية. كانت ضحكتها بالنسبة إلى رامون موسيقية، لكنها باهتة بشكل مزعج.

«أنا لا أريد أن أضايقك. أردت فقط التحدث إليكِ»، قال، بجبن مرة ثانية.

«حسنا. لقد تحدثت الآن. مع السلامة»، بدأت سيرها. كذلك فعل رامون، مقتربا خلفها. لم تتحدث. بعد دقيقة، قال ملاحظا بابتهاج: «قلتِ إنكِ تعيشين هناك في الخلف!».

«كانت كذبة»، قالت بصوت فاتر. مضيفة: «أنا أكذب دائما».

«آه. أنت تكذبين دائما»، كرر رامون بجدية بالغة.

وصلا إلى شارع مضيء عند نهاية سلم عال. أصبح الرصيف سلسلة من الدرجات الحجرية ترتقي بشكل مائل إلى أعلى المنازل. بينما كانا يصعدان ببطء، تبدل الهواء. كانت تنتشر فيه

رائحة طعام يطهى، وأوراق أوكالبتوس تحترق. هنا فوق مستوى البلدة، كانت الحياة أكثر رحابة. أناس يطلون من الشرفات، أو جالسون في مداخلهم المظلمة يتحادثون، أو واقفون في شوارع مثل الجزر بين كلاب تسعى وأطفال يتحركون.

توقفت الفتاة واستندت إلى جانب أحد البيوت. كانت مقطوعة النفس قليلا من التسلق.

«هل أنت متعبة؟» سأل.

بدلا من أن ترد استدارت بسرعة وانطلقت إلى داخل مدخل بجانبها. لثوان قليلة كان رامون مترددا هل يتبعها أم لا؟ بمرور الوقت تسلل إلى الممر الخافت الإضاءة الذي اختفت فيه. سار خلاله إلى داخل الفناء. بعض الأولاد ذوي الملابس الرثة الذين كانوا يجرون هنا وهناك توقفوا فجأة وحدقوا فيه. كان هناك راديو في أعلى تصدر عنه موسيقى جيتار. نظر رامون إلى أعلى. كان المبنى بارتفاع أربعة طوابق، وكانت هناك أنوار في كل نافذة تقريبا.

في طريق عودته ثانية إلى الضفة ظهرت له امرأة من ظلال المتنزه الصغير المجاور للكاتدرائية وأمسكت بذراعه. نظر إليها، كانت تتظاهر بالخجل بشكل وقح، برأسها المائل بزاوية مجنونة بينما كانت تكرر، «أنا أحب البحارة». تركها تمشي معه إلى مقهى دل تايد، بمجرد دخوله، أصابه إحباط لتبينه أن رفاقه البحارة كانوا قد ذهبوا. ابتاع للسيدة قدح مانزانيلا(*) وتركها بينما كانت قد بدأت في احتسائه. لم ينبس ببنت شفة. في الخارج، بدا

(*) شراب إسباني لاذع.

الليل فجأة شــديد الدفء. وصل إلى ملهى «الأبيض والأسود»، حيــث كانت فرقة تعزف بالداخــل. كان اثنان أو ثلاثة من رجال الباخرة في ساحة الرقص المظلمة، يحاولون بعث قليل من الحياة في الفتيــات المتعبات اللائي تعلقن بهم. لــم يتناول هناك حتى المشــروب، لكنه أسرع عائدا إلى الســفينة. كان سريره مكدسا بالجرائــد واللفائف، لكن الكابينة كانت خاوية، وكان في متناوله قضاء عدة ســاعات من الليل في هدوء وسكينة. وأن ينعس، قبل وصول الآخرين. أبحرت السفينة عند الفجر.

كانــوا بمحاذاة الجزيرة في اليوم التالــي، لم يكونوا قريبين بشــكل يكفي لرؤية الشــاطئ، لكن كانوا في داخل المنظر الرائع للجبــل المخروطي، الذي كان هنــاك إلى جانبهم طوال اليوم في الأفق، واضحا على مرمى البصر. واصلت الســفينة التقدم في طريقهــا لمدة يومين تجاه الجنوب الغربــي. أصبح البحر هادئا، وزرقته أكثر دكنة، وكانت الشمس تتوهج بشدة ولمعان في السماء. توقف الطاقم عن التجمع فوق ســطح مؤخرة السفينة، باستثناء وقــت مبكر من المســاء وفي الليل، عندما يتمــددون جميعا في اســترخاء فوق هذا السطح، وهم يغنون في أصوات خشنة بينما النجوم تترنح وتتمايل جيئة وذهابا فوق رؤوسهم.

سارت الحياة بالنســبة إلى رامون على المنوال نفسه. لم يكن يــرى أي اختلاف في موقف الطاقــم نحوه. لايزال يبدو له أنهم كانوا يعيشون من دونه. المجلات التي تم شراؤها من سانتا كروز لم تكن متاحة أبدا في أرجاء الكابينة. في فترات العصر عندما يجلس الرجال حــول المنضدة في غرفة طعــام الدرجة الثالثة،

لم تكن القصص التي تُروى بالإمكان تفسيرها أو ترجمتها من خلال أي إشارة في روايتهم تدل على أنها موجهة إلى مجموعة هو من ضمنها. وهو بالتأكيد كان يعرف بشكل أفضل أن عليه ألا يحاول حكي أي شيء بنفسه. كان بانتظار ضربة الحظ التي قد تفرضه بالقوة على وعيهم.

في منتصف صباح اليوم الرابع لمغادرة ميناء سانتا كروز رفع رامون رأسه من مطبخ السفينة فلاحظ العديد من رجال كابينته متجمعين على امتداد الدرابزين في مقدمة السفينة. كانت الشمس ساطعة تماما وساخنة، فعرف أن الذي أبقاهم هناك لابد أنه شيء ضروري. رأى أحد الرجال يشير نحو مؤخرة السفينة. ومن دون قصد كان يتجول بعيدا فوق سطح السفينة على مسافة أقدام قليلة من المجموعة، وهو يبحث في البحر والأفق عن جسم ما، شيء ما غير كتل الطحالب الحمراء التي كانت تطفو بشكل مستمر فوق سطح الماء الداكن.

- «إنه يزداد اقترابا!».
- «كم هو قوي!».
- «إنه متعب!».
- «هذا واضح!».

نظر رامون فوق رؤوسهم، وفي ما بينهم، عندما كانوا يبدلون مواقعهم من وقت إلى آخر. لم ير شيئا. كان على استعداد تقريبا ليقتنع بأن الرجال كانوا يستميلونه، على أمل أن يكون قادرا على الترويح عنهم، عندما يتحتم عليه من فرط الفضول أن يتساءل: «ما هذا؟» ولذلك اعتزم أن يكون هادئا، وأن ينتظر ويرى.

فجأة أتيحت له الرؤية بالفعل. كان هناك طائر صغير أصفر وبني اللون يطير بشكل منحن في خط غير مستقيم خلف السفينة، وهو يترنح كلما تراجع بشكل متكرر نحو المياه بين دفقات الطاقة المفرطة والباعثة على اليأس والتشبث بالحياة.

- «ألف ميل بعيدا عن الأرض!».
- «سينجح! انظر! ها هو قادم!».
- «لا!».
- «المرة القادمة».

في كل محاولة متهورة جامحة للوصول إلى ظهر السفينة، كان الطائر يقترب أكثر إلى الرجال، وعندئذ ربما خوفا منهم، يرفرف إلى أسفل تجاه البحر الذي يغلي من شدة الحرارة، مفتقدا الأثر العظيم الاضطراب الذي تخلّفه السفينة في المياه في كل وقت من هامش الاقتراب. وعندما بدا في هذا المرة أنه سيتحرك بالتأكيد في اضطراب واهتياج إلى أسفل نحو الاختلاط والتشوش الأبيض للهواء والماء، الذي كان يندفع إلى أعلى في ضعف، وكان رأس الطائر يتحول في عزم وتصميم نحو كتلة السفينة البيضاء التي تتحرك أمامه بشكل مستمر.

كان رامون مبهورا. كان أول ما خطر له هو أن يخبر الرجال بأن يتراجعوا إلى الخلف قليلا بعيدا عن الدرابزين لربما تواتي الطائر الشجاعة ليهبط. بينما كان على وشك أن يفتح فمه ليدلي بهذا الاقتراح، فكر فيه بشكل أفضل، وعلى الفور كان ممتنا لبقائه صامتا. فقد كان بوسعه تخيل السخرية التي كانت ستوجه إليه في ما بعد: في الكابينة، أو في وقت الطعام، أو في المساء

فوق السطح... كان شخص ما سيؤلف أغنية صغيرة مخجلة عن رامون وطائره. وقف يراقب، في ألم متزايد من الإثارة.

- «خمس بيزيتات على أنه سيهلك!».

- «عشر على أنه سينجح!».

دار رامــون هنا وهناك ثم جرى برشــاقة نحــو المطبخ. وفي التو تقريبا عاد إلى السطح مرة ثانية. وهو يحمل في يده تميمة السفينة، وكانت قطا ثقيل الوزن، عيناه ترمشان في سرعة بشكل غبي في وهج الشمس المفاجئ. هذه المرة مشى مباشرة عائدا إلى الدرابزين حيث وقف الآخرون. وأجلس القط عند أقدامهم.

«ما الذي تفعله؟» قال أحدهم.

«انظر وسوف ترى»، قال رامون.

كانــوا جميعا هادئين للحظة، أمســك رامــون بجنبي القط ورأســه منتظرا أن يجذب القط انتباه الطائر المرفرف. كان من الصعــب حدوث هــذا. وبغض النظر عن الكيفيــة التي كان بها رامون يوجه رأس القــط فإنه لم يظهر أي علامة على الاهتمام بالطائر. ظلوا منتظرين لفترة. وعندما وصل الطائر إلى مستوى قريب من الســطح على بعد عدة أقدام من الســفينة، انتفضت رأس القط فجأة، فعرف رامون أن الاتصال قد حدث. فســحب يديه على الفور بعيدا عن القط، الذي وقف ساكنا تماما، وطرف ذيله يتحرك قليلا. ثم أخذ خطوة إلى الأمام مقتربا من الحافة، وهــو يراقب كل حركة ومجهود يبذله الطائر الذي كان في حالة هيجان شديدة.

- «انظر إلى هذا».

- «إنه يراه».
- «لكن الطائر لا يراه».
- «إذا لمس السفينة، فإن عرض البيزيتات العشر سيظل ساريا».

ارتفع الطائر في الهواء، طار سريعا للحظة حتى أصبح فوق رؤوسهم مباشرة. نظروا إلى أعلى في الشمس اللاهبة، محاولين حماية أعينهم بأيديهم. الطائر حتى الآن بعيدا إلى الأمام، لدرجة أنه لو هبط، فسوف يحط على السطح على بعد أقدام قليلة أمامهم. القط، محدقا، في الهواء إلى أعلى، جرى بسرعة عبر السطح إلى أن أصبح أسفل الطائر مباشرة، الذي ترك نفسه يهبط ببطء حتى بدا لهم أن بإمكانهم الوصول إليه والتقاطه. قفز القط قفزة فاشلة في الهواء. صرخوا جميعا، لكن الطائر كان عاليا جدا. فجأة ارتفع إلى أعلى كثيرا، ثم توقف عن الطيران. مروا من تحته سريعا بينما ظل هو معلقا في الهواء للحظة. عندما أداروا رؤوسهم ثانية إلى الوراء كان هناك شيء أصفر يهبط ببطء إلى أسفل باتجاه البحر، وسرعان ما فقدوا أثره تقريبا.

في وجبة الغداء تحدثوا عنه. وبعد حدوث بعض الجدال والنقاش دُفِعت الرهانات. ذهب أحد عمال التزييت إلى كابينته وأحضر شرابا ومجموعة من الكؤوس الصغيرة وضعها أمامه وملأها الواحدة تلو الأخرى.

«هل ترغب في بعض منه؟» قال لرامون.

أخذ رامون كأسا، ومرر عامل التزييت بقية الكؤوس إلى الآخرين.

حقول صقيعية

كان القطـــار قد تأخر لأن صندوق التســـخين أســـفل إحدى العربات قد اشـــتعل في وســـط حقل مســـطح شـــديد الاتساع مغطى بالثلوج. وقد ظلوا هناك قرابة الســـاعة. عقب الضوضاء والانطلاق الســـريع للقطار نجمت عن الصمت المفاجئ للركاب واهتزازهـــم فـــي مقاعدهم حالة عامة من القلـــق والتوتر. وفي إحدى اللحظـــات، مرق قطار آخر علـــى القضيب المعاكس وهو يطلق هديرا أعلى من صوت الرعد، وعقب ذلك، ازدادت عصبية الركاب حدة، وبدأوا يتحدثون بتذمر في أصوات منخفضة.

بدأ دونالد يرسم بظفره بعض أشكال في الثلج الذي كان يغطي الجزء السفلي من إطار النافذة المجاورة لمقعده. كان والده قد قال له «توقف عن هذا». وكان بمقدور دونالد أن يســـأل «لماذا؟» لكنه فكر في الأمر، فلم يكن بإمكانه تخيل الألم الذي سيتســـبب فيه هذا السؤال، وشعر بالاستياء بعض الشيء نحو أمه لعدم تدخلها. فقد كان ينتظـــر منها أن تعترض على ذلك الحظر الذي لا مبرر لـــه، لكن الخبرة علمته أنها يمكن الاعتماد عليها في الوقوف في صفـــه والدفاع عنه فقط في عدد محـــدود من المرات أثناء اليوم الواحد، وكان من الطيش تبديد رصيدها من حسن النية.

كان الثلج قد تمت إزالته عن رصيف المحطة عندما نزلوا من القطار. كان الجو قارس البرودة؛ وكانت سحابة كثيفة من البخار تزحف من أســـفل القاطرة، وتغلف العربة الأولى بشـــكل جزئي. كانت قدما دونالد تؤلمانه من البرد.

«ها هو الخال جريج والخال ويليز!» صاح دونالد، وقفز في الهواء عدة مرات.

«يجب عليك ألا تصيح، إننا نراهما. قف مكانك، والتقط حقيبتك»، قال والد دونالد.

كان الخال ويليز مرتديا معطفا أسود من الفراء كان يصل إلى الأرض تقريبا. وقام بوضع يديه أسفل ذراعي دونالد ورفعه إلى أعلى حتى أصبح رأس دونالد في مستوى رأسه، وقبله بقوة في فمه. ثم طوحه في الهواء مناولا إياه إلى ذراعي الخال جريج، وفعل الخال جريج الشيء نفسه. «كيف حال الرجل؟» صاح الخال جريج، بينما كان ينزله إلى الأرض.

«بخير»، قال دونالد، وهو يشعر بانتصار، لأن والده لم يكن يحب أن يرى أولادا يتم تقبيلهم. وقال له من قبل، «الرجال يتصافحون بالأيدي. إنهم لا يقبلون أحدهم الآخر».

كانت السماء صافية تماما، وعلى الرغم من أنها كانت تتحول بالفعل إلى لون أرجواني شاحب بمرور فترة ما بعد الظهر، فإنه كان لا يزال بالإمكان رؤيتها تلمع بضوء شديد، مثل منظر السماء في أحد مشاهد الباليه الروسي. وكانت أمه قد اصطحبته معها قبل بضعة أسابيع لأنها كانت ترغب في رؤية بافلوفا(*)، ولم يكن الباليه هو الرقص الذي يمتع دونالد ويثيره، بل كان يمتعه الاتصال المباشر المفاجئ مع عالم السحر. كانت هذه السماء السحرية فوقهم الآن، وهي مختلفة تماما عن السماء التي اعتاد رؤيتها فوق شوارع نيويورك. كان كل ما يتعلق بالمزرعة

(*) آنا بافلوفا: من أعظم راقصات الباليه، روسية الأصل، ولدت في سان بطرسبرج وتوفيت في لاهاي (١٨٨٥ - ١٩٣١) - [المترجم].

مصبوغا بطابع سحري. كان البيت بمنزلة نواة لعالم سحري أكثر واقعية من العالم الذي يعرفه الناس الآخرون تقريبا. أثناء فصول الصيف الطويلة، التي تزدهر فيها الخضرة والتي كان دونالد يقضيها هناك مع أمه وأفراد عائلتها، اكتشف ذلك العالم وقام بسبر أغواره، ولم يشعر أحد منهم قط أنه كان يعيش في قلب هذا العالم. لكن وجود والده في المزرعة كان يشكل خطرا فادحا، لأنه كان من المستحيل تقريبا إخفاء أي شيء عنه، وبمجرد معرفته بوجود ذلك العالم الآخر فإنه لن يدخر وسعا في القيام بتدميره. لم يكن دونالد واثقا حتى ذلك الوقت إن كانت جميع المداخل المفضية إلى هذا العالم تتم حراستها بأمان أو تم تمويهها بفاعلية وإحكام أم لا.

كانوا يجلسون في المقعد الخلفي من عربة الجليد وجلد الجاموس يغلفهم من جميع الجهات. كان الحصانان الرماديان الكبيران ينفثان بخار زفيرهما خلال فتحات أنفيهما العريضة. كان الريف الأبيض يمضي في صمت، وكانت أشجاره المتجمدة ذات لون قرنفلي في ضوء النهار المتأخر. كان الخال جريج ممسكا بالأعنة، والخال ويليز، جالسا بجواره، وكان يستدير جانبا في مقعده، ويتحدث مع والدة دونالد.

«قدماي تؤلمانني»، قال دونالد.

«حسنا، يا إلهي، يا لك من صبي!» صاح الخال ويليز. «ألم تضعهما على قوالب الطوب؟ هناك خمسة قوالب من الطوب الساخن موجودة عندك في الأسفل. لقد وضعت هناك لهذا الغرض». ثم انحنى ورفع طرف البطانية الثقيلة المخصصة

لتغطية النصف الأسفل من الجسم. وكانت قوالب الطوب ملفوفة في ورق جرائد.

«قدمـــاي أنا أيضا مثل لوحين من الثلج»، قالت والدة دونالد. «هنا، اخلع حذاءك وضـــع قدميك فوق هذين القالبين». ودفعت قالبين من الطوب باتجاه قدمي دونالد.

«إنه يرغـــب فقط في جذب انتباهنا»، قال والد دونالد. لكنه لم يمنعه من أن يحصل على قالبي الطوب.

بعد ذلك سأل الخال ويليز أخته: «هل هذا أحسن؟»

«تبدو أحسن. كم ميلا تبقى على الوصول إلى المزرعة؟»

«سبعة أميال حتى الناصية، وميل ونصف من المنعطف»، قال.

«آه، كنت أعرف أنها تبعد مســافة ميل ونصف من المنعطف»، قال دونالد.

كان دونالد قد قطع هذه المسافة مرات كثيرة في فصل الصيف، وكان يعرف أســماء المزارع على امتــداد الطريق. «أولا تصل إلى مزرعة إيلدر، ثم مزرعة لاندون، ثم مزرعة مديسون ...»

لكزه والده بمرفقه بقوة في ضلوعه. «فقط ابق صامتا لبعض الوقت».

تظاهر الخال بعدم ســماعه لما قاله والـــد دونالد، وأضاف: «حســـنا، حســـنا. إنك تتمتع بذاكرة قوية بكل تأكيد. كم تبلغ من العمر الآن؟»

انقبض حلق دونالد؛ وكان هذا حدثا مألوفا جدا ولم يكن يعني على الإطلاق أنه كان على وشـــك أن يبكي - كان مجرد إحساس بالرغبة في البكاء. ســعل دونالد وقال في صوت معتدل: «ست

ســنوات». ثم سعل مرة ثانية، وهو يشــعر بالخجل والخوف من احتمال أن يكون الخال ويليز قد لاحظ شيئا ما خطأ، فأضاف: «لكنني سأبلغ السابعة في أول يوم في السنة الجديدة».

ظلوا صامتين جميعا عقب ذلك، ولم يكن هناك سوى الإيقاع الخافت لخبب الحصانين والصوت الناعم المنســاب للمزلجتين فوق الثلــج المترامي الأطراف. كانت الســماء الآن أكثر إظلاما بعض الشيء مقارنة بالمراعي البيضاء، والغابات على جانب التل وفي الوراء، وقــد بدت الملايين من أغصانها العارية، باعثة على الخوف. كان دونالد سعيدا لكونه جالسا في الوسط. كان يعرف أنه ليس ثمة ذئاب في الخارج، لكن، هل بإمكان أي شــخص أن يكــون على يقين فعلا من هذا؟ فقد كانــت هناك ذئاب يوما ما - ودببة أيضا - ولأنه ببساطة لم يتسن لأحد رؤية أي منها على مدار السنوات، فإنهم يقولون إنها لم تعد موجودة الآن. لكن هذا ليس دليلا.

عندما وصلوا إلى المنعطف، حيث يتفرع الطريق المؤدي إلى المزرعة عن الطريق الرئيســي، كانت هناك سبعة صناديق بريد صدئــة منتصبة في صف منحن، حيــث كان لكل بيت صندوق على الطريق.

«الصنــدوق» أر. إف. دي «رقم واحد»، قــال الخال ويليز بطريقة لطيفة. فقد كان هــذا دائما بمنزلة نوع من الدعابة في مــا بينهم. لأنهم حتــى بعد شــرائهم للمزرعة، وهم من أبنــاء المدن، كانوا يعتقــدون أن المزارعين الحقيقيين مرحون ومضحكون جدا.

كان دونالد في ذلك الوقت يشعر بأنه في أرض الوطن، وأعطاه هــذا الثقة لأن يقول: «التوصيل الريفــي المجاني». قال الكلمات بعنايــة، نظرا لأن الكلمة الأولــى أحيانا ما كانت تمثل له صعوبة في النطق بها. لكن نطقه كان سليما، فصاح الخال جريج دون أن يلتفت إلى الخلف: «هذا صحيح! هل تذهب الآن إلى المدرسة؟»

«نعــم». ولم يشــعر بالرغبة في قــول المزيد، لأنــه كان يتابع منحنيات ومنعطفات الطريق، التي كان يعرفها عن ظهر قلب. لكن كل شــيء قد بدا له مغايرا جدا عمــا يتذكره عنه، حتى وجد أنه من الصعوبة التســليم بأن المكان كان هو نفس المكان. فقد فقدت الأرض ألفتها، وأضحت جرداء ومكشــوفة. حتى أنه كان بمقدوره أن يــرى بوضوح، في الليل الــذي كان يهبط، من خلال الأحراش غير المورقة التي كان ينبغي أن تخفي الحقول العارية التي خلفها. كانــت قدماه الآن على ما يــرام، لكن يديه فــي القفاز الصوفي المكسو بالجلد الجاموسي كانت فاقدة الإحساس بسبب البرودة.

لاحــت المزرعة في الأفــق، في كل نافذة مــن نوافذ الطابق الســفلي كانت هناك شمعة مشتعلة، وإكليل من نبات الشوكران. انحنــى دونالد وارتدى حذاءه، وكان هذا من الصعوبة بمكان لأن أصابعه كانت تؤلمه. وعندما اعتدل مرة ثانية كانت عربة الجليد قــد توقفت. كان بــاب المطبخ مفتوحا، وكان هناك شــخص ما يقف في الخارج. وكان الجميع يصيحون «مرحبا!» و«عيد ميلاد ســعيد!»، في المســافة الواقعة بين عربة الجليد والمطبخ لم يكن دونالد على دراية بشيء سوى التقبيل والتربيت الذي كان يتلقاه، وهو يُحمل ويُنزل إلى الأرض، وإخباره بأنه قد صار أكبر ســنا.

ســاعده جده على خلع حذائه ثانية ورفع الغطاء من أعلى الموقد لكــي يتمكن من تدفئة يديه على حرارة اللهب. كان المطبخ يبعث برائحة، كما في فصل الصيف، هي خليط روائح دخان الخشب، واللبن الرائب والكيروسين.

كان من المثير جدا دائما الوجود وسـط أنـاس كثيرين. وأن يشــكل كل فرد منهم حماية إضافية له ضــد المراقبة الصارمة المســتمرة من جانب أمه وأبيه. ففي البيت لم يكن هناك ســوى أمــه وأبيه بالإضافة إليه، لدرجــة أن أوقات تناول الطعام كانت بمنزلــة فترات تعذيب له. لكن في تلــك الليلة كان هناك ثمانية أفراد على مائدة العشــاء. وقد قاموا بوضع قاموس قديم مغلف بالجلد على الكرســي حتى يصبح دونالد عاليا بدرجة مناسبة، وكان يجلــس بين جدته والعمة إميلــي. وكانت العمة إميلي ذات عينين بنيتين داكنتين وعلى قــدر عال من الجمال. وقد تزوجها الخال جريج منذ ســنة، وكان دونالد يعرف من خلال المحادثات العرضيــة العديدة التي ســمعها أنها لم تكــن محبوبة فعلا من جانب الآخرين جميعا.

كانت الجــدة تقول: «لويــزا وإيفور لن يتمكنــا من الحضور قبل الغد، فقد أقلهما الســيد جوردون حتى بورتسفيل بسيارته. وسوف يبيتون الليلة جميعا في الفندق، وأول شيء سيتعين علينا القيام به في الصباح هو الذهاب لإحضارهم».

«وإحضار السيد جوردون أيضا، على ما أعتقد»، قالت أمه.

«مــن المحتمل»، قال الخال جريج. «إنــه لن يرغب في قضاء عيد الميلاد المجيد بمفرده».

بـــدت أمه متضايقة، وقالت «إنه أمـــر يبدو غير ضروري. إن عيد الميلاد يوم خاص بالعائلة، على أي حال».

«حســـنا، إنه الآن جزء من العائلة»، رد الخال ويليز بابتسامة تنم عن خبث.

فأجابت أمه بانفعال كبير: «أعتقد أنه فظيع».

«إنه سيئ جدا هذه الأيام»، قال الجد وهو يهز رأسه.

«ألا يزال يتناول المشـــروبات الكحولية القوية العتيقة؟» سأل والده.

فرفع الخال جريج حاجبيه من الدهشة وقال: «إلى هذا الحد وما هو أسوأ منه. أنت تعرف ... وإيفور أيضا يعرف».

كان دونالـــد يعلـــم أنهم كانوا يتحدثون بغمـــوض لأنه موجود بينهم، فتظاهر بعدم الإنصات وراح يشـــغل نفسه بعمل علامات علـــى مفرش المائدة أمامـــه بالحلقات التي توضـــع فيها مناديل المائدة.

كان والده قد انفغر فوه من فرط الدهشة: «من أين يحصلون عليها؟» وسأل.

«عـــن طريـــق وصفة الطبيـــب»، رد الخال ويليز في ســـهولة وباســـتخفاف، «ثمـــة طبيـــب بولنـــدي ملتو هناك فـــي المنطقة العلوية».

«آه، بصراحـــة»، صاحت أمه، «أنـــا لا أدري كيف تؤيد لويزا أمرا كهذا».

العمـــة إميلي، التي كانت صامتة حتـــى تلك اللحظة، تحدثت فجأة قائلة في تأمل، «أنا لا أعرف، فالاثنان جيدان جدا بالنسبة

إليهـا. أعتقد أن السـيد جوردون كريم جدا، فهـو يدفع إيجار شـقتها، كما تعرفين، ويسـمح لها باستخدام السـيارة والسائق الخصوصي طيلة فترة بعد الظهر».

«أنتِ لا تعرفين أي شـيء عن هـذا الأمر»، قال الخال جريج في صوت أجش فظ بغية إسـكاتها، لكنها استمرت بصوت عال وحاد بعض الشـيء، حتى أن دونالد تبين له أنهما كانا يمارسان سلوكهما المعتاد في النقاش.

«إنني أعرف بالفعل أن إيفور على اسـتعداد تام لتطليقها في أي وقت تريده، لأنها قالت لي هذا بنفسها».

كان هنـاك صمت على المائدة؛ وكان دونالد متأكدا من أنه لو لم يكن موجودا هناك فإنهم جميعا كانوا سـيبدأون في التحدث فـي تلـك النقطة. وقد قالت العمة إميلي شـيئا لـم يكن له أن يسمعه.

«حسنا»، قال الخال ويليز بحماس، «ماذا عن قطعة أخرى من الكعك يا دونالد، يا عجوز؟»

«تقصد ماذا عن السرير»، قال والد دونالد، «فقد حان موعد الذهاب إلى السرير».

لم تقل أمه شيئا، ساعدته على النزول من كرسيه وأخذته إلى الطابق العلوي.

كانـت ألواح الزجـاج الصغيرة الخاصة بنافـذة حجرة نومه مغطـاة بالثلج تماما. فتـح دونالد فمه، وتنفـس في أحد هذه الألواح حتى ذابت فتحة مستديرة خلاله وتمكن من رؤية السواد في الخارج. «لا تفعل هذا، يا عزيزي»، قالت أمه. «فسـوف تقوم

الجـدة بتنظيف النافذة. الآن تعال هنا إلى السـرير. ثمة قالب رائع من الطوب السـاخن تحـت الأغطية حتى لا تصبح قدماك باردتين!» وأحكمت أمه أطراف الغطاء من حوله، وقبلته، وأخذت المصبـاح من فوق المنضدة. كان صوت أبيه المحمل بالضيق يأتي مـن نهاية السـلم. «هيه، يا لورا! ما الـذي يحدث عندك فوق؟ تعالي».

«ألن يكون هنـاك مصدر للضوء في حجرتي على الإطلاق؟» سألها دونالد.

«أنا قادمة»، صاحت. وخفضت بصرها إلى دونالد. «لا يوجد لديك في بيتنا مصدر للضوء».

«أعرف، لكن في البيت بإمكاني إنارته إذا احتجت إليه».

«حسنا، لن تكون بحاجة إليه الليلة. سوف يصاب أبوك بنوبة عصبيـة إذا تركت المصباح لديك. أنـت تعرف هذا. ليس عليك الآن إلا أن تنام».

«لكنني لن أقدر على النوم»، قال بصوت يدل على ما كان فيه من تعاسة.

«لورا!» صاح والده بقوة.

«دقيقة واحدة!» صرخت، بغيظ.

«من فضلك، يا أمي ...؟»

كان صوتهـا يعبر عـن عنادها عندما قالـت، «هذا الطقس البارد سـيجعلك تنام فـي غمضة عـين. والآن فلتنم». ومضت إلـى المدخل، والمصباح في يدها، واختفت عبر المدخل وهي تغلق الباب خلفها.

كان هنــاك منبه صيني صغير على المنضدة صوته عال جدا. خلال فترات الصمت غير المنتظمة كان يأتي من الطابق الأسفل صــوت ضحك مكتوم ينطلق فجأة ثم يخبو على الفور. كانت أمه قد قالت: «سأفتح النافذة مسافة بوصة واحدة تقريبا، وسيكون هذا كافيا». كانت الحجرة قد أمســت أكثر برودة بمرور الوقت. دفع باطن إحــدى قدميه في مقابل قالب الطوب الســاخن في منتصف نهاية الســرير. فســمع صوت طقطقــة الجريدة التي كان ملفوفــا فيها. لم يكن هناك ما يمكــن القيام به خلا النوم. في طريقه عبر تخــوم الوعي كان يحلم. من الجبل الواقع خلف المزرعة، وهو يعدو في صمت فوق السطح الجليدي للثلج، ويقفز علــى الصخور وبين الأحراش، جاء أحد الذئاب. كان يجري نحو المزرعة. وعندما يصل إلى هناك سوف ينظر عبر النوافذ إلى أن يعثر على حجرة الطعام حيث كان البالغون يجلسون حول المائدة الكبيرة. ارتعد دونالد عندما رأى عينيه في الظلام عبر الزجاج. والآن، وهو يحســب حســاب كل حركة بدقة، قفــز الذئب قفزة حطمت زجاج النافذة، وأمسك بتلابيب والده من عند الحلق. في لمح البصر، وقبل أن يتمكن أي شــخص من التحرك أو الصراخ، مضى الذئب مرة ثانية وهو لا يزال ممســكا بفريسته بين فكيه، ورأســه يدور يمنة ويسرة بينما يســحب الهيكل الضعيف المنهك بسرعة وخفة فوق سطح الجليد.

عندما فتح عينيه كان ضوء الفجر قد تسلل إلى حجرته. كان هناك بالفعل خبط ورنين في ســلطانيات البيت، فقد كان هناك أناس يقومون بتقليب شــيء ما. سمع دونالد صوت نافذة تغلق،

ثم الصوت المنتظم لشـــخص ما يشق الخشب ببلطة. في الوقت الحالي كانت هناك ضوضاء قريبة، فعرف أن والديه في الحجرة المجاورة قد استيقظا. بعد ذلك انفتح باب حجرته فجأة ودخلت أمه، مرتدية روب حمّام ســميكا من الصوف، وشــعرها منسدل على ظهرها. «عيد ميلاد سعيد»، قالت بصوت عال، وهي تحمل جوربا شبكيا أحمر ضخما ممتلئا بالفاكهة واللفافات الصغيرة. «انظر ما الــذي وجدته معلقا عند المدفأة!» أصيب بخيبة الأمل لأنــه كان يأمل في الذهـــاب إلى هناك والحصـــول على هديته بنفسه. «لقد أحضرتها إليك هنا لأن البيت بارد مثل الحظيرة»، قالت له: «ابق هنا في أمان في الســرير حتى يصبح البيت دافئا قليلا».

«متى ســنحصل على ما في الشــجرة؟» كانت أهم الشــعائر هي المتعلقة بشــجرة عيد الميلاد، حيث كانت تتكوم أسفلها أكثر الهدايا إمتاعا.

«على رسلك، تمهل»، أخبرته، «لقد حصلت على جورب الهدايا الخاص بــك. لا يمكننا أن نحصل على ما تحت الشــجرة حتى تصــل العمة لويزا إلى هنا. أنــت بالطبع لا ترغب في أن يفوتها هذا. أليس كذلك؟»

«أيــن هديتي للعمة لويــزا والعم أيفور؟ ســيأتي العم أيفور، أيضا، أليس كذلك؟»

«بالطبع، ســيأتي»، أجابت بطريقة تعبير مختلفة تحمل نبرة تردد كانــت تلجأ إليها عندما كانت تأتي علــى ذكر العم أيفور. «لقد قمت بوضعها بالفعل أســفل الشجرة مع الأشياء الأخرى.

الآن ابق فقط حيث أنت، مغطى هكذا بشكل كلي، وافتح جورب هداياك وتفقد ما بداخله، وسأذهب أنا لارتداء ملابسي».
وانتابتها رجفة فأسرعت عائدة إلى حجرتها.

الشخص الوحيد الذي كان يتعين عليه أن يشكره هو جده، لأنه أحضر له علبة أقلام خشب ألوان كانت محشورة في قاع الجورب. كانت الهدايا الأخرى تحمل بطاقات معنونة: «إلى دونالد من سانتا كلوز». كان الخال جريج والخال ويليز قد تناولا إفطارهما مبكرا وذهبا في عربة الجليد إلى الفندق في بورترسفيل لإحضار العمة لويزا والعم أيفور. وعندما رجعوا، جرى دونالد إلى النافذة فرأى أن السيد جوردون قد حضر معهم. كان الجميع قد تحدثوا بغموض شديد عن السيد جوردون لدرجة جعلته في شوق شديد لأن يراه. لكن في تلك اللحظة نادته أمه لمساعدتها في ترتيب الأسرّة. «يجب علينا جميعا أن نبذل قصارى جهدنا لمساعدة الجدة»، أخبرته أمه: «الله يعلم أنها لا تألو جهدا وتبذل أقصى ما في وسعها في المطبخ».

لكنه في النهاية سمع العمة لويزا تنادي عليهما من فوق السلم. فنزلا معا إلى أسفل: كانت القبلات تغمره، وسألته العمة لويزا: «كيف حال ابني؟» أنت ابني، ألست كذلك؟» ثم قبله العم أيفور، وصافح السيد جوردون الذي كان يجلس بالفعل في كرسي الجد، الذي لم يسبق لأحد من قبل الجلوس عليه غير الجد. كان السيد جوردون ممتلئ الجسم وشاحبا، وكان يرتدي خاتمين كبيرين من الماس في يد وخاتما من الياقوت الأزرق في اليد الأخرى. كانت حشرجة بسيطة تصدر عنه

بينمـــا كان يتنفس، ومن وقت لآخر كان يجذب منديلا حريريا أصفر من جيب صدره ويمســـح به جبينه. كان دونالد جالسا فـــي الطرف الآخر مـــن الحجرة وهو يقلـــب صفحات إحدى المجلات، وبين الفينة والأخرى كان يرفع بصره ويلاحظه. كان السيد جوردون قد أطلق على دونالد «غلامي»، الأمر الذي بدا غريبا جدا، تماما مثل شخصية تتحدث في أحد الكتب. وفي إحدى المرات جذب انتباه دونالد وأشار إليه. فذهب إليه دونالد ووقف بجوار الكرسي الخشبي بينما وضع السيد جوردن يده في جيبه وأخرج منه ساعة ضخمة لها زر وجرس صغير يدق داخل الســـاعة. وبعد عدة دقائق أشار إليه من جديد، فاتجه إليه دونالد وضغط الزر مرة ثانية. في المرة التالية، نهرته أمه وأخبرته أن يتوقف عن مضايقة السيد جوردون.

«لكنه طلب مني القيام بهذا»، قال دونالد معترضا.

«اجلس هنا في هذا المكان. ســـندخل الآن كلنا ونحصل على شجرتنا خلال فترة قصيرة. سيصبح العم أيفور سانتا كروز».

في تلـــك اللحـــظة حضر الخال ويليز إلى الحجرة. «حســـنا، يا سادة»، قال ذلك وهو يدلك يديه الاثنتين معا، «أعتقد أن البهو الآن قد أصبح دافئا بالقدر الكافي. ماذا عن شجرتنا؟»

«مسألة وقت»، قالت العمة إميلي. كانت ترتدي ثوبا أحمر من التفتاه، وكان دونالد قد ســـمع أمه وهي تتحدث عنه مع أبيه في وقت ســـابق. «غير ملائم إلى حد بعيـــد جدا»، قالت أمه وقتها، «يبـــدو أن الفتاة لا تدرك أنهـــا تعيـــش في مزرعـــة». اقتـــربت العـــمة إميـــلي وأمسكت بيد دونالد. «هل ترغب في مصاحـــبتي،

يا سيدي؟» قالت. ومضيا معا إلى البهو ويداهما متشابكتان. كانت النار في المدفأة تصدر صوتا عاليا وتطقطق.

«أين أيفور؟» قال الخال جريج. «هل جلس الجميع في مقاعدهم؟»

«ها أنا ذا»، قال العم أيفور، قادما من مدخل البهو. كان يضع على رأسه قبعة حمراء قديمة مخيطة ويرتدي عباءة حمراء، وكان يضع حول رقبته لفة من ورق أخضر غائر النقوش محزز. «هذا هو كل ما أمكن لسانتا كلوز أن يعثر عليه»، قال وهو يخاطب الجميع. بدأت العمة لويزا في الضحك. «انظر إلى عمك أيفور»، قالت لدونالد. «إنني انظر»، قال دونالد. لكنه كان ينظر بالفعل إلى الشجرة. كانت شجرة شوكران طويلة تصل إلى السقف، وكانت مكوّمة تحتها أضخم تشكيلة من اللفافات التي لم يرها في أي وقت من قبل.

«انظر إلى كل هذا!» كان الجميع يصيحون.

«ما الذي تتوقع أن يوجد فيها كلها؟» قالت العمة لويزا.

«أنا لا أعرف»، أجاب دونالد.

جلس العم أيفور على الأرض بحيث يكون على مقربة من الشجرة قدر الإمكان ورفع صندوقا كبيرا أعطاه إلى الخال جريج، الذي كان واقفا في وسط الحجرة. «دعنا نفرغ من هذا أولا»، قال.

ثم العم جريج قائلا: «إلى دونالد من أهالي روتلاند».

بينما استمر العم أيفور في مناولة اللفافات، كان دونالد يتعامل مع صندوقه. كان مدركا بشكل غير واضح للصرخات

الصغيـــرة التي كانت تنطلق من حولـــه، «كم هي رائعة! لكن هذا كثير جـــدا! آه. لم تكن مضطرا للقيام بهـــذا! لماذا فعلت هذا؟» وبينما كان الآخـــرون يفتحون هداياهم، كان دونالد على العكس منشـــغلا جدا بملاحظة أن القدر الكبير من الدهشة والإعجاب كان موجها إلى الســـيد جوردون، الذي كان جالســـا إلى النافذة ويبدو عليه السرور الشديد.

كان مـــن الصعب جـــدا التصديق: عربة إطفـــاء بطول ثلاثة أقدام، مزودة بإطارات من المطاط وجرس وصفارة إنذار وثلاثة سلالم كانت تنطلق إلى أعلى بطريقة آلية عندما تتوقف العربة. نظر إليها دونالد، وللحظة كان مرعوبا إلى حد ما من القوة التي كان يعرف أنها ستضطره إلى تغيير عالمه.

«آه... أليست ... هذه ... رائعة!» قالت أمه، التي كان انزعاجها يعطـــي حواف حادة لكل كلمة نطقتها، قالـــت «لويزا، لماذا فعلت هـــذا؟» ألقى دونالد بنظرة ســـريعة فـــرأى أن العمة لويزا كانت تومئ للسيد جوردون بهزّة من رأسها، كما لو أنها كانت تقول له: «كل شيء بسببك أنت».

تحركـــت أمه على طول الأرضية نحـــو الصندوق وبحثت عن بطاقة التحية المرفقة به، «أريد منك أن تحتفظ بكل بطاقة داخل الهدية التي جاءت بداخلها»، قالت لدونالد، «ســـيجب عليك غدا كتابة الكثير من رســـائل الشـــكر، ويجب ألاّ يختلط عليك الأمر. لكن بإمكانك الآن أن تشكر العمة لويزا والعم أيفور».

كان يكره أن يطلب منه أحد أن يشـــكر شـــخصا ما في وجود ذلك الشـــخص، كما لو أنه كان طفلا. لكنه قال كلمات الشـــكر

بشـــجاعة، وهو يتوجه إلى السيد جوردون: «أشكرك كثيرا جدا على عربة الإطفاء الجميلة».

«ثمة ما هو أكثر، يا بني»، وابتســـم الســـيد جوردون بابتهاج؛ كانت الجواهر تلمع في ضوء الشمس.

كانـــت العمة إميلـــي ترفع ذراعها أمامها، وتنظر إلى ســـاعة يدهـــا الجديدة. كان الجـــد يرتدي روبا حريريا أســـود ويدخن ســـيجارا، وقد بدا راضيا تماما بينما تحول إلى السيد جوردون قائلا: «حسنا، لقد أفسدتنا جميعا بكرمك وسخائك». لكن والدة دونالد ترجمت عبارته على أنها لوم أو توبيخ فأضافت مفســـرة: «إننا لم نعتد الحصول على مثل هذه الهدايا النفيســـة، يا سيدي جوردون».

ضحك الســـيد جوردون، والتفت إلـــى دونالد، وقال له: «أنت حتى الآن في البداية فقط، يا غلامي. قل لعمك أيفور أن يواصل تقديم الهدايا».

الآن بدا من الواضح أن كل لفافة تقريبا كانت تخص دونالد. فراح يفتحها بأســـرع ما في وسعه، وفي كل مرة كانت تبدو عليه الحيـــرة بســـبب كل أعجوبة جديدة يراهـــا. بالطبع كانت هناك المناديـــل والكتب والكوفيات المهداة مـــن العائلة، لكن كان هناك أيضا صندوق موســـيقى سويسري بأســـطوانات معدنية صغيرة بحيث يمكـــن تغييرها، وكانت هناك أحذيـــة تزحلق، ومجموعة كبيرة من جنود الاســـتطلاع، وآلة أكورديون حقيقية، ولعبة عبارة عن قرية مزودة بشبكة للترام يسير بالبطارية. بينما كان دونالد يفتح كل لفافة، كانـــت تصدر صيحات إعجاب خافتة من جانب

والديــه وكانت أقــرب إلى أن تكون تأوهــات. وأخيرا قال والده للسيد جوردون، في صوت عال بدرجة كافية لكي يسمعه فغطى الصوت على المحادثات الدائرة: «إنه لأمر ســيئ أن يحصل طفل واحد على مثل هذا الكم الكبير».

وسمعه السيد جوردون فقال في مرح وابتهاج: «لقد كنت أنت نفسك صغيرا ذات يوم».

كانت العمة إميلي تحاول قياس «الجاكيت الفرو» الذي قدمه إليهــا الخال جريــج، وكان وجهها متوردا من فــرط الإثارة؛ ولم تطبع سوى قبلة كبيرة على خد الخال جريج.

«لقد حصل طفل أســتور(*) الصغير على لعب تقدر قيمتها بخمســة آلاف دولار في عيد ميلاده الماضــي»، قالت العمة إميلــي إلى والد دونالد، وهي تحرك يدها جيئة وذهابا بطول الفراء.

فنظــر إليها والد دونالد بعينين ضيقتــين، وقال «هذا»، وهو يتلفظ بها في وضوح شديد جدا، «هو ما يجب أن نسميه علامة الجنون».

كان هناك صمت في الحجرة للحظة باستثناء النار التي كانت تطقطق. أدرك هؤلاء الذين لم يســمعوا الحديث أن شيئا ما قد حدث. نظر الخال جريج بســرعة إلى والد دونالد، ثم بعد ذلك إلى العمة إميلي. من المحتمل أن يقع شجار، فكّر دونالد، يتعارك الجميع مع والده. راقت له الفكرة وأبهجته، لكنه في الوقت نفسه أحس بالذنب، لاعتقاده أنها كانت بسببه هو.

(*) ربما يقصد حفيد رجل التجارة والرأسمالي الأمريكي، جون جاكوب أستور (١٧٦٣ - ١٨٤٨) - [المترجم].

ناولـه العم أيفور لفافـة، وبطريقة آلية قام بفك الشـريط، وأخرج منها «جاكت» كشـميري بني. «هذه هي هدية أبيك وأمك لك»، قالت أمه بهدوء. «إنه كبير عليك الآن قليلا، لكنني اشتريته كبيرا عن عمد لكي تكبر داخله». ومرّت الأزمة الصغيرة، وشرع الجميـع في التحـدث مرة ثانيـة. كان دونالد يشـعر بالارتياح والإحباط في الوقت نفسـه. «ماذا عن تدشـين زجاجة الشراب تلك؟» صاح الخال ويليز.

«أنتم يا معشـر الرجال ابقوا هنا»، قالت لهم الجدة، «فيجب علينا أن نخرج ونذهب إلى المطبخ».

«سـأحضر لك متعلقاتك هناك»، قال العـم أيفور إلى العمة لويزا بينما كانت تنهض.

في طريقها إلى خارج الحجرة انحنت والدة دونالد ولمست كتف ابنها قائلة: «أريد منك أن تقوم بإعادة كل هدية إلى داخل صندوقها بنفس الطريقة التـي كانت عليها بالضبط. وبعد ذلك تحملها كلها إلـى أعلى وتضعها فـي حجرتنا وترصها بعنايـة في الركن تحت النافذة. هل تسمعني؟» ومضت إلى الخارج. جلس دونالد لبرهة، ثم قفز إلى أعلى وجرى في أثرها ليسـألها إن كان بإمكانه الاحتفاظ بهدية واحدة فقط - ربمـا، عربة الإطفاء. كانت أمه تقول للجدة: «... لا مبرر لهذا علـى الإطلاق. بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أعرف كيف ستتسـنى لنا العودة بكل هذه الهدايا إلى نيويورك. على الأقل بإمكان أوين أن يأخذ الهدايا الكبيرة معه غدا، على ما أظن».

توقـف دونالد عن الجـري، وأحس بطمأنينـة تهبط عليه، فوالده سـيغادر المزرعة. إذن لندعه يأخذ كل شـيء معه، عربة

الإطفاء وكل الهدايا الأخرى، فالأمر لم يعد مهما. استدار وقفل عائدا إلى البهو. حيث قام بتعبئة اللعب في صناديقها بعناية، ووضع الأغلفة فوقها، وأعاد ربطها وحزمها بقطع من الأشرطة اللاصقة والخيوط.

«ما كل هذا الذي تفعله؟» صاح السيد جوردون فجأة متعجبا عندما لاحظ ما يقوم به. «ما الذي تفعله يا دونالد؟»

«يجب عليّ أن آخذ كل شيء إلى الطابق العلوي»، قال دونالد.

انضم والده إلى المحادثة قائلا: «إنني لا أرغب في رؤية تلك الصناديق ملقاة في جميع أرجاء المكان هناك، ولا حتى هنا. عليك أن تراعي رصها في ترتيب ودقة. هل تفهم؟»

واصل دونالد ما يفعله دون أن يرفع بصره إلى والده.

بعد لحظة قال السيد جوردون هامسا: «حسنا، فسوف تحل بي اللعنة». ثم إلى والد دونالد قائلا: «لقد سبقت لي رؤية بعض الأطفال المؤدبين في زمني، لكنني لن أتردد في أن أقول لك إنني لم تسبق لي رؤية طفل مثل هذا. قط».

«إن التهذيب يبدأ في المهد». قال والد دونالد بشكل مقتضب.

«إنه الفساد»، تمتم السيد جوردون لنفسه.

رفع دونالد بصره إلى أعلى بسرعة فرأى والده ينظر بكراهية إلى السيد جوردون.

كانت جدته وعماته وأمه مشغولات في إعداد العشاء. جلس دونالد قرب النافذة يهرس البطاطس. كانت زرقة السماء قد اختفت وراء ستار من سحب كلها، بيضاء. «سيكون لدينا المزيد

من الجليد قبل حلول الليل»، قالت الجدة، وهي تنظر من النافذة التي تعلو حوض الغسل.

«هل ترغب في استتشـــاق رائحة شـــيء جيد؟» سألت والدة دونالـــد ابنها. فجرى إلى الموقـــد وفتحت له باب الفرن فانبعثت منـــه رائحة بصل مختلطة برائحة الديك الرومي المشـــوي. «إنه يحرز تقدما مذهلا وسيصبح رائعا في النهاية»، أعلنت. وأغلقت باب الفرن بصوت عال وقامت بتعليق القطع التي كانت تســمك بها باب الفرن على علاقتها. ثم دخلت إلى حجرة خزانة الطعام وأدواته (الكرار).

تبعها دونالد. كان الجو باردا هناك، وكانت تفوح من الحجرة رائحـــة المخلـــلات والتوابل. كانت أمه تبحث عن شـــيء ما على امتداد الرف، بين البرطمانات والعلب الصفيح.

«أمي»، قال دونالد.

«همم؟» أجابت في اهتياج شديد، ومن دون أن تخفض بصرها نحوه.

«لماذا يعيش السيد جوردون في منزل العم أيفور؟»

فـــي تلك اللحظة نظرت إليه بالفعـــل، وبطريقة حادة لدرجة أنها أفزعته.

«ما هذا؟» ســـألت بحدة. ثم، قبل أن يتمكن من تكرار سؤاله، واصلـــت قائلة فجأة فـــي صوت طبيعي «حبيبـــي، ألا تعرف أن العم أيفور يمكن أن نطلق عليه مُمرّض؟ مثل الآنسة أوليفر، هل تتذكـــر، التي كانت تعتني بك عندما كنت مصابا بالأنفلونزا؟ إنه مجرد رجل، رجل مُمرّض».

«هل السيد جوردون مريض؟»

«نعم، إنه مريض»، قالت، وهي تخفض من صوتها إلى مادون الهمس.

«رجل مريض جدا، لكننا لا نتحدث عن هذا الأمر».

«ما الذي يشكو منه؟» كان على دراية بأنه قد أصبح ذا سلوك طفولي في تلك اللحظة، على أمل أن يعرف المزيد. لكن أمه كانت تقول بالفعل: «أنا لا أعرف، يا عزيزي. عد إلى المطبخ الآن، فالمكان هنا بارد جدا بالنسبة إليك! اجرِ، اجرِ، اجرِ! إني قادمة معك!»، ضحك دونالد بصوت عال، وجرى عائدا إلى المطبخ، وهو على اقتناع بأنه قد توصل بلا ريب إلى أن ثمة لغزا في الأمر.

أثناء العشاء كان والده ينظر إليه مباشرة بنوع معين من الصرامة كان يدخرها للمواقف التي كان يعرف أنها غير مرغوبة، قال: «إنك لم تذهب اليوم إلى الخارج حتى الآن أيها الشاب. سنقوم بجولة إلى نهاية الطريق في وقت لاحق اليوم».

العمة لويزا التي كانت قد أحضرت معها إلى المائدة كأسا كبيرة من الشراب، وكانت ترتشف منها أثناء تناولها للطعام، قالت معترضة: «إن الجو شديد البرودة، يا أوين، سيموت أو يصاب بنزلة برد».

كان دونالد يعلم أنها كانت تحاول مساعدته، لكنه تمنى لو بقيت صامتة. فإذا أصبح الأمر وقد تحول إلى قضية ومشكلة، فلن ينسى والده بالطبع موضوع جولة المشي.

«بارد جدا!» قال والده بسخرية. «لدينا قواعد أساسية في عائلتنا الصغيرة، وإحدى هذه القواعد أنه يجب أن يحصل على قسط من الهواء النقي كل يوم».

«ألا يمكنك كسر هذه القاعدة بسبب عيد الميلاد؛ لمدة يوم واحد فقط؟» سألته العمة لويزا.

لم يجرؤ دونالد على رفع بصره إلى أعلى، خوفا من رؤية التعبير المرتسم على وجه أبيه.

«اسمعي، يا لويزا»، قال بشكل حاد، «اقترح أن تبقي على الحياد، وسأبقى أنا كذلك على الحياد، وبهذه الطريقة سننسجم كثيرا وبشكل أفضل». ثم قال بحدة لاذعة كما لو أنه قد استدرك فجأة: «هل هذا مناسب بالنسبة إليك؟» مالت العمة لويزا فوق طبق الجدة ناحية دونالد وتحدثت بصوت عال جدا، لدرجة أن الجميع توقفوا عن الأكل، قالت صارخة: «لا. إن هذا ليس مناسبا بالنسبة إلي!» ثم أردفت «إن كل ما تقوم به منذ الصباح وحتى المساء وطوال الليل هو إزعاج الطفل. إنه لشيء مخجل! أنا لن أجلس مكتوفة اليدين وأن أرى لحمي ودمي يتم إزعاجه بهذه الطريقة!»

شرعت الجدة ووالد دونالد كلاهما في التحدث في الوقت نفسه. كانت الجدة تقول، «لويزا!»، محاولة تهدئتها، وكان والد دونالد يصيح قائلا: «إنك لم ترزقي بطفل أبدا، كما أنك لا تعرفين ألف باء تربية الأطفال».

«أعرف متى يكون المرء أنانيا ووغدا بشكل واضح». أعلنت العمة لويزا.

«لويــزا!» صرخــت الجدة بصــوت محمل بالدهشــة واللوم الخفيف. وواصل دونالد النظر إلى طبقه.

«هل ســبق لي المجــيء إلى روتلاند من قبــل ودس أنفي في شــؤونك والقيام بانتقــادك؟ هل قمــت أنا بهذا؟» ســأل والد دونالد.

«دعونا الآن لا نفســد عيد الميــلاد الجميل هذا»، قال الخال ويليز بسرعة.

«هذا صحيح»، قال الجد. «إننا سعداء جميعا. دعونا لا ننطق بأي شيء نأسف على قوله في ما بعد».

لكن العمة لويزا لم تتراجع. تناولت بسرعة جرعة من الشراب وتقريبا انتابتها شرقة بســببها وابتلعتها بصــعوبة. ثــم، وهــي ما تزال منحنية ناحية دونالد، واصلت: «ما الذي تعنيه، بمجيئك إلى روتلاند وانتقادي ؟ ما الذي ستقوم بانتقاده في روتلاند؟ هل ثمة شيء خطأ هناك؟».

لــم يجب والد دونالد للحظة. وأثناء تلك اللحظة بدا الجميع كما لو كانوا يشعرون بالرغبة في قول شيء ما من دون أن يقووا على قوله. كان الشــخص الذي كســر الصمت القصير هو والد دونالد، عن طريق صوت مميــز خافت وناعم، أدرك دونالد في التو أنه كان تقليدا رديئا لصوت العم أيفور: «آه، كلا! ليس هناك شيء خطأ في روتلاند».

فجأة، في حركتين متزامنتين، ألقت والدة دونالد بفوطتها في مكانها ودفعت كرسيها إلى الخلف في عنف، ثم نهضت وأسرعت إلــى خارج الحجرة، وصفقت الباب خلفها. لم يقل أحد شــيئا.

وكان دونالد جالسا متجمدا، من دون أن يقدر حتى على رفع بصره، أو حتى أن يتنفس. ثم أدرك أن والده قد نهض هو الآخر، وأنه كان في طريقه إلى الخارج.

«دعها بمفردها يا أوين»، قالت الجدة.

«لا تتدخلي في هذا الموضوع»، قال والده. كانت خطواته على السلالم تحدث صوت صرير بينما كان يصعد إلى أعلى. لم ينطق أحد بكلمة، إلى أن أوشكت الجدة على النهوض، فأعلنت: «سأصعد إلى الطابق العلوي».

«بالله عليك، يا آبي، اجلسي مكانك»، قال لها الجد. تنحنحت الجدة ولم تنهض.

بدا وجه العمة لويزا شديد الحمرة، وكانت عضلات وجهها ترتعش. «بغيض». قالت بصوت مختنق، «بغيض تماما».

«أحسست برغبة في أن أصفعه على وجهه»، أفضت العمة إميلي. «هل سمعت ما قاله لي عندما كنا نحصل على هدايانا؟»

وبلمحة خاطفة من الخال جريج توقفت العمة إميلي: «لماذا، يا دونالد»، صاحت بصوت واضح، «إنك لم تلمس عشاءك تقريبا! ألست جائعا؟»

كان دونالد يرى في مخيلته حجرة النوم في الطابق العلوي حيث كان والده يلوي ذراع والدته ويهزّها بقوة ليجعلها تنظر إليه. وعندما لا تفعل، يعمد إلى لكمها، وطرحها أرضا، وركلها بأقصى ما يستطيع من قوة، في كل جزء من أجزاء جسمها. رفع دونالد بصره إلى أعلى، «ليس إلى حد كبير»، قال.

ومن دون سـابق إنذار شرع السيد جوردون في التحدث، وهو ممسـك بكأسـه أمامه ويتأمل فيها بينمـا كان يديرها في هذا الاتجاه أو ذاك. «شـجارات العائلة»، قال متنهدا، «نفس الشيء القـديم. إنها تذكرني بفترة صبـاي. عندما أتذكرها في الوقت الراهـن، يخيّل إليّ أننا لم نكن نتم وجبـة حتى نهايتها من دون معركـة، بل من المؤكد أنـه كانت لدينا معركة فـي أي لحظة». ووضع كأسه على المائدة، وأردف قائلا: «حسنا، إنهم الآن ميتون جميعا، شكرا لله».

نظر دونالد بسـرعة إلى السـيد جوردون كأنه كان يراه لأول مرة.

«إن الثلج يتساقط!» صرخت الجدة بفخر. «انظر، إنها تمطر ثلجا مرة ثانية. كنت أعرف أننا سنحظى بمزيد من الثلج المتساقط قبل حلول الظلام». لم تكن راغبة في أن يواصل السيد جوردون حديثه. راحت العمة لويزا تنشـج فجأة، ثم نهضت، ومضت إلى داخل المطبخ. وتبعها العم أيفور.

«لمـاذا، يا دونالـد! لقد حصلت على لحـم الصدر!» صاحت العمة إميلي، «كل اللحم وسوف نقوم بتعليقها بعد ذلك فوق الموقد لتجف، وغدا سوف نتمنى عليها أمنية. ألن يكون هذا مبهجا؟»

التقطهـا بأصابعـه وبدأ فـي مضغ قطع اللحـم الأبيض الملتصقة بالصـدر. وعندما انتهى من أكلهـا بعناية، انصرف وخرج بها إلى المطبخ.

كانـت الحجرة هادئـة تماما، وكان إبريق الشـاي يغلي على الموقد. بدا البرد المتساقط خارج النافذة داكنا في مقابل البياض

فـــي الخلفية. كانت العمة لويزا جالســـة على كرســـي بلا ظهر، بشكل منحن، والمنديل في يدها، والعم أيفور مائل فوقها يتحدث معها بصوت منخفض. وضع دونالد عظم الصدر على رف حوض الغســـل وشرع ينســـل إلى الخارج على أطراف قدميه، لكن العم أيفور رآه. «هل تحـــب أن تصـعد معي إلى حظـيرة الدواجــن، يا دونالد؟» قال. «يجب عليّ أن أحصل لنا على دستة من البيض لأعود بها إلى روتلاند».

«ســـوف أحضر معطفي»، أخبـــره دونالد، وهـــو متلهف إلى الخروج قبل أن يعود والده إلى الطابق السفلي.

كان الطريـــق الصاعد إلى التل حيث توجد حظيرة الدواجــن لم يتكـــون بفعل تنظيف الثلج علــــى كلا الجانبين، بل عن طريق الثلج الذي وطئته الأقدام. وكان الثلج المتســـاقط حديثا ينجرف متراكما فوق الطريق، وفي بعض الأماكن كان الثلج قد غطاه بالفعل. عندما دخل العم أيفور إلى حظيرة الدواجن وقف دونالد ساكنا في مكانه، وهو يحني رأسه إلى الخلف ليتمكن من التقاط بعض البرد المتســـاقط إلى داخل فمه. «تعال إلى الداخل وأغلق الباب. سوف تجعل الحرارة تتسرب إلى الخارج»، قال العم أيفور.

«أنا قـــادم»، قال دونالد. ومضى عبر المدخـــل وأغلق الباب. كانـــت الرائحة بالداخل قوية جدا. بينمـــا اقترب العم أيفور من الدجاجات، راحت تطلق غمغمة منخفضة مرتابة.

«قل لي يا دونالد»، قال العم أيفور بينما كان يستكشف القش بيده.

«ماذا؟» تساءل دونالد.

«هــل تجري أمك كثيرا إلى حجرتهــا وتغلق الباب، بالطريقة التي فعلتها الآن توا؟»

«في بعض الأحيان».

«لماذا؟ هل والدك سيئ في معاملته لها؟»

«آه»، قال دونالد بغموض، «إنهما يتعاركان». كان يشــعر بعدم ارتياح.

«نعم. حســنا، إنه لضرر فادح أن يتزوج أبوك. كان من الممكن أن يكون أفضل للجميع لو ظل وحيدا».

«لكــن عندئذ لم أكن لأولد أنا علــى الإطلاق»، صاح دونالد، وهو غير متأكد إن كان العم أيفور جادا أم لا.

«على الأقل لم نكن نأمل في هذا!» قال العم أيفور، وهو يدير عينيه يمينا ويســارا وقد بدا سخيفا. أدرك دونالد الآن أن ذلك كان نوعا مــن الدعابة، فضحك. انفتح البــاب بقوة. «دونالد!» زمجر والده بصوت عال.

«ما هذا؟» قال دونالد، وكان صوته ضعيفا جدا.

«اخرج وتعال إلى هنا!»

مشــى باضطراب وارتباك نحو الباب؛ فقد كان والده يحدق في الداخل بريبة. «ما الذي تفعله عندك في الداخل؟» سأل.

«أساعد العم أيفور في البحث عن البيض».

«همف!» خطا دونالد إلى خارج الحظيرة وأغلق الباب.

راحا يسيران على امتداد الطريق باتجاه مزرعة سيمث سن. فــي الوقت الراهن كان والده يســير خلفه وهو يخزه في ظهره، قائلا: «أبق رأسك منتصبا، وصدرك إلى الخارج! هل ترغب في

أن تصبح شبه أحدب؟ قبل أن تصاب بذلك ستصاب بتقوس في العمود الفقري».

عندما أصبحا على مسافة بعيدة من البيت، في مكان ما حيث أضحت فيه كتل الأشجار الصغيرة تحف بالطريق على كلا الجانبين، توقف والده عن السير. وتطلع إلى ما حوله، ثم انحنى إلى أسفل والتقط حفنة من الثلج المتساقط حديثا، وكورها على هيئة كرة صلبة، ثم ألقى بها على شجرة كبيرة إلى حد ما، على بعد مسافة من الطريق، فتحطمت كرة الجليد، وتركت علامة بيضاء في جذع الشجرة الداكن. «دعنا نرك وأنت تصيبها»، قال لدونالد.

قد يكون هناك ذئب جاثم في هذا المكان في إحدى البقاع خلف الظلمة الساكنة للغابات. كان من المهم جدا عدم التسبب في استثارته. إذا أراد والده المجازفة باستثارة الذئب وإلقاء كرات الثلج في الغابات، فبإمكانه القيام بهذا، لكن دونالد لن يرغب في هذا. فربما يفهم الذئب عندئذ أن دونالد، على الأقل، كان صديقا له.

«هيا»، قال والده.

«لا. أنا لا أرغب في هذا».

قال والده بدهشة متصنعة: «آه، لا ترغب في هذا؟» ثم أصبح وجهه منذرا بالخطر وصوته حادا مثل لسع السوط. «هل ستفعل ما أمرتك به؟»

«لا». كانت المرة الأولى التي يتحداه فيها دونالد علانية. لدرجة أن والده صار شديد الحمرة من الخجل.

«اســتمع لي، أيها التافه الصغير!»، صرخ والده، وكان صوته مفعما بالغضب، «هل تعتقد أنك سوف تفلت بفعلتك هذه؟» قبل أن يدرك دونالد ما كان يحدث، أمسك به والده بيد واحدة بينما انحنــى وبيده الأخــرى حفن من الثلج بقدر ما أمكنه. «ســنقوم بتســوية هذه الأمر البســيط توا»، قال من بين أســنانه، وفجأة راح يمســح الثلج بعنف في وجه دونالد، وفي الوقت نفسه الذي كان فيــه دونالد يلهث وهو يتلوى مــن الألم، كان والده يدفع ما تبقى من الثلج أسفل عنقه وإلى ظهره. عندما شعر دونالد بكتلة الثلج الباردة المبتلة تنزلق على ظهره، انحنى. كانت عيناه مغلقتين بإحــكام؛ وأصبــح على يقين من أن والــده كان يحاول أن يقتله. باندفــاع يائس قفز متحررا من قبضة أبيه فشــعر بنفســه وقد سقط على الأرض ووجهه في الثلج.

«انهض»، قال والده باشــمئزاز. لكــن دونالد لم يتحرك. إذا تمكن من إمساك تنفسه لفترة طويلة قدر الإمكان فقد يموت.

جذبــه والده بعنف وأوقفــه على قدميه. «لقــد ضقت ذرعا بدعاباتك السخيفة»، قال. وأمسك به بإحكام بكلتا يديه، وأجبره على أن يسير متعثرا أمامه، عائدين في ضوء الشفق إلى البيت.

كان دونالد يتقدم في ســيره، وهو ينظر إلى الطريق الأبيض أمامــه، وعقله خال من الأفــكار. كان قد انتابه إحســاس غير مألــوف: بأنه غير آســف على نفســه لكونه قــد أصيب بالبلل والبرودة، أو حتى بالاســتياء لكونه قد أســيئت معاملته. أحس بالانفصال والاستقلالية، وقد كان إحساسا مقبولا ومثيرا حسيا تقبله من دون أن يفهمه أو يسأل عنه.

بينما كانا يتقدمان إلى أسفل الممر الطويل الذي تحفه أشجار القيقب على كلا الجانبين في ضوء الغسق قال والده: «الآن بإمكانك أن تذهب وتبكي في حجر أمك».

«أنا لا أبكي»، قال دونالد بصوت عالٍ، من دون أدنى تعبير من جانبه. ولم يرد والده.

لحسن الحظ أن المطبخ كان خاليا. كان بإمكانه أن يتبين من جلبة الأصوات في الردهة أن العمة لويزا والعم أيفور والسيد جوردون كانوا يستعدون للمغادرة. جرى دونالد إلى الطابق العلوي حيث حجرته وقام بتبديل ملابسه كلها. كان الثقب الذي صنعه بأنفاسه في الثلج المتراكم فوق زجاج النافذة قد تجمد مرة ثانية بشكل أكثر كثافة، لكن العلامة المستديرة كانت ما تزال مرئية حتى الآن. بينما كان قد انتهى لتوه من ارتداء ملابسه نادته والدته. كان الليل قد أظلم تماما في الخارج. هبط إلى الطابق الأسفل. كانت والدته واقفة في مدخل الصالة.

«آه، لقد غيرت ملابسك»، قالت. «تعال إلى الخارج وقل إلى اللقاء إلى العمة لويزا والعم أيفور، إنهما في المطبخ». نظر بسرعة في وجهها ليرى إن كانت هناك علامات خلفتها دموع حديثة. كانت عيناها محتقنتين بالدم قليلا.

مضى مع أمه إلى المطبخ. «دونالد يريد أن يقول لك إلى اللقاء»، قالت للسيد جوردون، وهي تقود دونالد إلى حيث تجلس العمة لويزا. «لقد منحته عيد ميلاد رائعا» - وقد أصبح صوتها محملا بالعتاب - «لكنه كان سعيدا جدا أكثر من اللازم».

كانت الياقة السميكة لمعطف السيد جوردون مرفوعة إلى مستوى أذنيه، وكان مرتديا قفازا من الفراء الفخم. ابتســم ثم صفق بيديه يحــدوه الأمل؛ فصدر عنهما صوت خفيــض. «آه، لقد كان ممتعا بدرجة كبيرة»، قال. «إنه يذكرني بنفسي قليلا، هل تعرفين، عندما كنت في مثل ســنه. كنت من نوعية الصبيــة الخجولين الهادئين، أيضا». شــعر دونالد بأن يدي والدته كانتا تشدان على كتفه بينما كانت تدفعه نحو العمة لويزا. «ممم»، قالت. «حســنا، أيتها العمة لويزا، ثمة شخص يريد أن يقول لك إلى اللقاء».

حتى في غمرة انفعاله وهو يشاهد الخال ويليز والخال جريج وهما يقلان الآخرين في عربة الجليد، لم يكن دونالد غافلا عن حقيقة أن أباه لم يظهر في المطبخ على الإطلاق. عندما تحرّكت عربة الجليد واختفت عن الأنظار في عمق الطريق، دخل الجميع إلى البهو، وعمد الجد إلى وضع كتلة خشب أخرى في النار.

«أين أوين؟» قالت الجدة بصوت منخفض إلى أم دونالد.

«لابد أنه في الطابــق العلوي. إذا أردت الحقيقة، أنا لا أعبأ كثيرا أين هو».

«يــا لطفلتي المســكينة»، قالــت الجدة. «هل خــفّ الصداع قليلا؟»

«قليلا»، قالت وهي تتنهــد. «لقد تمكن بكل تأكيد من انتزاع كل المتعة من عيد الميلاد عندي».

«شيء مخجل ووضيع»، قالت الجدة.

«لم أنظر إلى وجه أيفور إلاّ الآن فقط، هذا كل ما كان بوسعي أن أفعله. صدقيني، لقد تعمدت هذا».

«أنـــا متأكدة من أنهم جميعا قد تفهموا الموقف»، قالت الجدة بطريقـــة مهدئة وملطفة. «لا تغتاظي في مـــا يتعلق بهذا الأمر. على أي حال، سيرحل أوين غدا، وسوف تنعمين بالراحة».

بعـــد رجوع الخـــال ويليز والخال جريج بوقـــت قصير، هبط والد دونالد إلى الطابق الســفلي. كان تناول وجبة العشـــاء يتم في صمت كلي مطبق، لم يتحدث والد دونالد إليه على الإطلاق ولم يعطه أي اهتمـــام. وبمجرد انتهاء الوجبة أخذته والدته إلى السرير في الطابق العلوي.

عندما تركته، كان مستلقيا في الظلام وهو ينصت إلى صوت الثلج الرقيق بينما كانت الريح تطوح به في مقابل ألواح الزجاج. كان الذئب هناك في الخـــارج في ظلام الليل، يعدو عبر الطرق التي لم يســبق لأحد أن رآها، إلى أســفل التل وعبر المرعى، ثم توقف ليشـــرب من مكان عميق في الجدول حيث لم يكن الجليد قد تشـــكل بعد. كان شـــعر فروته الصلب قد علق به الثلج، فهزّ نفسه وعدا إلى أعلى الضفة حيث كان دونالد جالسا في انتظاره. ثـــم تمدد على الأرض إلى جواره، ووضع رأســـه الثقيل في حجر دونالـــد، فانحنى دونالد فوقه ودفن وجهه في فراء مؤخرة عنقه الأشـــعث. وبعد فترة نهضا كلاهما وشرعا في العدو معا، أسرع فأسرع، عبر الحقول.

تابياما

كان النهـــر يقع خلف الفندق مباشـــرة. لو كان يأتي من أرض بعيدة جدا لكان ســيصبح عريضا وســاكنا، لكــن لأنه كان في الحقيقة مجــرد قناة وحيدة تمتلئ بمياه الأمطــار، وكان قاعها تكثــر فيه الصخــور الضخمة، فقد كان يصــدر ضوضاء هادرة جعلــت المصور يخطئ فيظن أنها مزيد من هطول الأمطار خارج الفندق. أصابته الرحلة والحرارة بالتعب، كان قد تناول الســمك المقلي البارد وعجة البيض (الأومليت) الذي نزّ مادته الشــحمية التي قلي بهــا وكان صعب المضغ، ومعجون الفول البني مع الأرز والموز المشوي، وكانت قد استبدت به فجأة رغبة قوية في النعاس كالتــي تنجم عن تناول مخــدر. وهو يترنح إلى ســريره، تحرر بســرعة من قميصه وبنطلونه، ورفع شــبكة الناموسية المتيبسة التي بعثت برائحة الغبار، وسقط كالحجر على المرتبة، لم يلحظ عدم ليونتها إلا قبل أن يغط في النوم.

لكنه عندما استيقظ في أثناء الليل أدرك أنه كان ينام بطريقة خاطئة سببت له عسر هضم، قال لنفسه وهو يحدق في الظلام فوق رأســه إنه كان من الصعــب أن يجد طريقه إلى الراحة مرة أخرى. وفي ذاك الوقت أصبح على دراية بثبات الصوت الخلفي لليل، الذي كان يحســبه بســبب المطر. من وقت إلى آخر، على مســافة بعيدة فوق رأسه (كيف يمكن للسقف أن يكون على هذا الارتفاع؟) كان الضوء الضعيف غير المســتقر لوميض حشــرات الليل يصــدر شــيفرته غــير المفهــومــة للحــظة أو لحظــتين.

كان مســتلقيا على ظهره، شيء ما صغير كان يزحف إلى أسفل صــدره. وضع يده هنـــاك، كانت قطرة عـــرق تتحرك في بطء. كانت الملاءة الخشــنة القاسية مبتلة تحته. أراد أن يتحرك، لكن إذا تحرك بالفعل فلن تكون هناك نهاية للتحرك، وســيصبح كل مكان جديد يتحرك إليه غير مريح بشــكل أكثر من السابق. كان شخص ما في ظلمة الغرفة المجهولة المجاورة يسعل من وقت إلى آخــر، ولم يكن بإمكانه أن يحــدد إن كان رجلا أو امرأة. الوجبة التــي كان قد تناولها لم تزل باقية في معدته مثقلة إياها وكأنها عشر وجبات. وبشكل بطيء كانت ذكرى الوجبة تزحف في رعب غامض، بصفة خاصــة الأومليت البارد الثقيــل الذي كان يلمع بالشحم.

كان الاستلقاء هناك واستنشاق الغبار من شبكة الناموسية يشبه حبس المرء داخل جوال من الخيش. كان الخروج إلى الشارع والنزهة هو مـــا أراده، لكن كانت هناك صعوبات. فقد أخبره الرجل العجوز الـــذي يدير الفندق أن الكهرباء تنقطع في منتصف الليل. وبدلا من أن يضـــع أعواد الثقاب تحت وســادته تركها في جيب بنطلونه، ولم ترق له فكرة ســيره على الأرضية حافـــي القدمين من دون مصدر ضـــوء. بالإضافة إلى ذلك، ذكّر نفســـه، وهو ينصـــت مرة ثانية إلى الهدير البعيد الهائل والغريب هناك في الخارج، أن الســماء تمطر. لكن الحركة على امتداد الشوارع، الصامتة والخالية تماما في الوقت نفســـه، حتى لو كانت تحت المطر غير المرئي، ســتكون ممتعة... إذا بقي مســتلقيا في سكون تام، فربما يعاوده النوم. وفي النهاية اتخذ قراره، في غمرة اليأس أبعد الشبكة جانبا في قوة وقفز من السرير،

وعبر الحجرة باتجاه الكرسي الذي كان قد ألقى عليه ملابسه.

تمكن من ارتداء قميصه وبنطلونه مستخدما ثلاثة أعواد ثقاب فقط، طرق حذائه فوق الأرضية الخرسانية عدة مرات في الظلام، ليسقط منه أم أربعة وأربعين أو أي عقرب يحتمل أن يكون قد تسلل داخله. ثم أشعل عود الثقاب الرابع وفتح الباب المؤدي إلى الفناء. لم تكن الظلمة حالكة في الفناء في ذلك الوقت. كانت أصص النباتات الضخمة مرئية في ضوء الليل الشاحب الرصاصي اللون، لكن السماء، المختنقة بسحابة لا يمكن لضوء النجوم أن يخترقها، بدت غير موجودة هناك على الإطلاق. لم يكن هناك مطر. «لابد أن النهر قريب جدا»، فكر المصور.

سار بطول الممر المسقوف، وهو يحتك بأطراف نباتات الأوركيد التي تدلت من السلال والجرار الموضوعة على الأفاريز، ويصطدم بقطع الأثاث المصنوعة من القش المضفر، حتى وجد باب المدخل، وكان مغلقا برتاج (ترباس) مزدوج. سحب الرتاجين المعدنيين بعناية وسحب الباب فاتحا إياه، ثم أغلقه خلفه. كان ظلام الشارع عميقا مثل ظلام الفناء، والهواء لا يزال ساكنا مثلما كان تحت الناموسية. لكن كانت له رائحة غير محددة لنباتات خضراء، رائحة حلوة للاكتمال التام والاستنفاد.

انعطف إلى اليسار، في اتجاه الشارع الرئيس الطويل الخالي الذي اصطفت على جانبيه مبان ذات طابق واحد، والمؤدى مباشرة إلى أسفل حيث الممشى الجانبي المخصص للسير(*) على امتداد البحر. وبينما كان يتقدم في سيره، أصبح هواء المنازل

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

الساخن الساكن محملا بالرائحة المنعشة النقية للطحالب والأعشاب التي على الشاطئ. كان يضطر عند تقاطع كل شارع إلى النزول ست درجات إلى مستوى الطريق الرئيس، ثم يجتازه، وبعد ذلك يصعد مرة ثانية إلى المشى الجانبي على الرصيف. في موسم المطر، كما أخبره مالك الفندق(*)، يوجد هناك زورق عند كل ناصية لنقل المارة من جانب إلى آخر. مثل الامتزاج بين روائح الأرض والبحر التي كان يتنفسها، كان قد استحوذ عليه إحساسان متعارضان لكنهما متقاطعان ومتشابكان في الوقت نفسه: الراحة التي تصل حد السرور تقريبا، وإحساس خافت بالغثيان الذي قرر أن يقاومه بقوة لأنه أحس بأن عدم القدرة على ترك كل إيحاء بالمرض خلف ظهره كان يعني النقص في قوته. حاول أن يضخ المزيد من الحيوية والنشاط في سيره، لكنه اكتشف على الفور تقريبا أن الجو كان ساخنا جدا للقيام بأقل قدر ممكن من المجهود. كان غارقا تماما في عرقه أكثر مما كان عليه في سريره. أشعل سيجارة من نوع أوفالادو. كان المذاق الحلو للتبغ جزءا من الليل.

كان المشى الجانبي الذي يحد الجبهة البحرية طوله نصف ميل تقريبا. تصور أنه ستكون هناك حركة طفيفة جدا للهواء في ذلك المكان، لكنه لم يشعر بأي اختلاف. ومع ذلك، فقد كان هناك من وقت إلى آخر صوت حميم هادئ لموج يتكسر برفق فوق الرمل في الأسفل مباشرة. جلس على السور المنخفض واستراح، على أمل أن يحظى بقليل من البرودة. لم يكن من الممكن رؤية

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

البحـــر. كان بإمكانه الجلوس فوق قمة جبل مغطى بالســـحب، والظلام من أمامه كان ســـيصبح بلا شكل محدد ويكتنف جميع الجهـــات. لم تكن لضوضاء البحر العارضة أي عمق في داخلها، مثلما كان لأصوات البحر، التي كانت تحدث كأنها في فناء مغلق شـــديد الاتساع. كان البلاط الخرساني الذي يجلس عليه رطبا، وباردا قليلا بالمقارنة بحرارة جســـمه هو. أشـــعل سيجارتين ثم أرهف ســـمعه لسماع صوت ما، صادر بطريقة غير مباشرة، عن عنصر بشري. لكن لم يكن هناك أكثر من الانزلاق المتقطع للمياه وامتصاصها الكســـول في الأســـفل على الشـــاطئ. ألقى بنظرة سريعة في جميع أنحاء الممشى الجانبي الخالي، كان هناك ضوء بعيد على امتداد الشـــاطئ في اتجاه الغرب، كان ضوءا برتقاليا، يلمع بشـــكل متذبذب: هل هي نار مشتعلة؟ استأنف السير ببطء أكثر من ذي قبل، وكان اللهب البعيد أمامه مباشـــرة هو النقطة الوحيدة المضيئة في المنظر كله.

كانت هناك مجموعة درجات عريضة لســـلم حجري تفضي إلى الشاطئ. وبعدها مباشرة، أمكنه رؤية الهيكل الخفيف الفارغ لرصيف بحري على شـــكل لســـان بُني فوق المياه. وقف ثابتا في مكانه وراح ينصـــت. بدا المس الرفيق المتقطع للأمواج الصغيرة حول الدعامات كما لو أنه كان يحدث في غرفة التسجيلات بصدى الصوت.

جـــرى بخفة هابطا الدرجات ومر من أســـفل اللســـان. كان الســـير على الرمل بالتأكيـــد يبعث على البـــرودة أكثر مما في الممشـــى الجانبي. وشعر في ذلك الوقت بأنه أكثر يقظة عن ذي قبل، فقرر أن يرى مدى الاقتراب الذي ســـيصل إليه من مصدر

الضوء في العمق سـيرا على الشاطئ في غضون خمس عشرة دقيقة. كانت سـرطانات البحر الملونة بتأثير الليل تسـرع على امتداد الرمل أمامه مباشرة، في صمت تام وغير مرئية تقريبا، قبل أن يطـأ الرمل بقدميه. بينما بعد نهاية المشـى الجانبي بقليل تراجع الرمل وأفسح مكانا لسطح مرجاني صلب كان من السهل السـير فوقه. وبدافع من الحرص حافظ على قربه من حافة الماء قدر الإمكان.

كان هنـاك اختلاف كبير بين هذا السـير والنزهات الأخرى التي كان قد قام بها في منتصف الليل قبل ذلك، وشعر بميل لأن يتسـاءل عن السـبب الذي جعل هذا السير ممتعا ولطيفا جدا. ربما كان مسـتمتعا ببسـاطة لأن الجو العام هنا كان من الحرية الخالصـة، كان غيـر مُقيد بالمرة. لم يكن يبحث عن أي شـيء، وجميع الكاميرات كانت في حجرته بالفندق.

بـين الفينة والأخـرى كان يرفع عينيه عن الأشـكال الباهتة للمرجان الذي تحت قدميه، الشـبيهة إلى حد كبير بالمخ البشري وينظر نحو اليابسة، ليرى إن كان بوسعه تبين أي علامات تدل على وجود مساكن. بدا له أنه قد تكون هناك كثبان رملية على مسافة بضـع مئات من الأقدام إلى الوراء، لكن في غياب الضوء كان من المسـتحيل حتى التأكد من هذا إلى حد بعيد. كان العرق يسـيل إلى أسفل عموده الفقري حتى عصعصه، وينزلق بين ردفيه. ربما تكون فكرة التجرد تماما من ملابسـه أفضل، لكن عندئذ ستكون هناك مضايقة ناجمة عن حمله لملابسه، وهو يريد أن تبقى يداه حرتين، حتى لو كانت هناك خطورة في الإصابة بالتقرح.

كانت مســـألة الحرية محكومة بقانون تناقص الغلة(*)، هكذا قال لنفسه، وهو يسير بشكل أسرع. إذا مضيت إلى نقطة معينة أبعد من شدة إحساسك بالرغبة في الحرية، فأنت بذلك تضمن عدم بلوغها. على أي حال، فكر المصور وتســـاءل ما الحرية في التحليل النهائي، أكثر من كونها مسألة موجودة بشكل كلي، بدلا من وجودها بشـــكل جزئي، فهي متوقفة على ســـطوة الاحتمال والمصادفة؟

لم يكن ثمة شـــك في أن هذا الســـير كان يبدد التأثير الضار لعســـر الهضم الذي ألم به. ينبغي عليه الوصـــول إلى المكان أو النقطة في غضون ثلاث دقائق، كما يشير عقرب الدقائق المضيء في ساعته، وقد بدا الضوء البرتقالي في المقدمة أصغر مما كان عليه من البلدة. لماذا خمس عشرة دقيقة تحديدا؟ ابتسم للنمط المدني المحدد الـــذي تحرك فيه عقله بطريقـــة تلقائية، لو رفع ذراعه لأمكنه ملامسة السماء، ستكون رطبة، ودافئة وطرية على نحو حسي مثير.

والآن على مسافة إلى الأمام، في اتجاه اليابسة، سمع أصواتا تعـــرف عليها من فوره حيث كانت أصـــوات المئات من الضفادع الصغيـــرة. كان الضوء، بعدما تفحصه جيـــدا، يتحرك بطريقة غريبـــة، إلى أعلى وإلى أســـفل في رفق، ويمينا ويســـارا أيضا، لكـــن من دون أن يبدو عليه تغيير في مكانه. فجأة أصبح الضوء لهبا كبيرا يقذف بقوة إلى أعلى مجموعات متلاحقة من الشرار الأحمـــر المتطاير، ففهم أنـــه قد وصل. كانت النـــار تحترق في

(*) قانون تناقص الغلة: قانون يقول إن زيادة العمل أو رأس المال إلى أبعد من نقطة معينة لا يترتب عليها زيادة مناسبة في الإنتاج [المترجم].

أرضيـــة زورق يتأرجح برفق أمامه، لا يبعـــد أكثر من مائة قدم. كان يقـــف فوقه رجل عار تماما، وهو يقذف فيه بأفرع أشـــجار النخيل. توقف المصور عن الســـير وأنصت لعله يســـمع أصواتا بشرية، لكن كورس الضفادع السعيدة كان يملأ الهواء.

سار إلى الأمام عدة خطوات وقرر أن ينادي عليه، بالإسبانية «مرحبا!» اســـتدار الرجل فـــي الاتجاه المعاكس، ثـــم قفز إلى الجانب القريـــب من الزورق (كان الماء ضحـــلا إلى حد بعيد) وجاء يجري إليه.

ومن دون أن يرد على تحيته، ربما اعتبرها صادرة عن شخص آخـــر غيره، قال الرجل بالإســـبانية: «تابيامـــا؟ هل تود الذهاب إلـــى تابياما؟» لم يســـبق للمصور من قبل أن ســـمع عن تابياما، لذلك تلجلج قليلا وفي النهاية قال بالإســـبانية، «نعم»، وعندئذ أمسك الآخر بذراعه وجذبه إلى حافة المياه. «الجزر على وشك الانتهاء، سنمضي في غضون دقيقة».

كان بوســـعه رؤية شـــخصين آخرين في الزورق، راقدين على الأرضيـــة، في الجانبين بجوار النـــار، وبعيدين عن حرارتها قدر الإمكان. جلس المصور القرفصاء وخلع حذاءه وجوربه، ثم خاض في المياه إلى حيث الزورق. عندما وقف في منتصفه، وكانت النار لا تزال تطقطق في تألق وســـطوع، استدار وراقب الرجل العاري وهو يفك الحبل الذي كان يمسك بالزورق في مكانه.

«إن الأمر برمته غير معقول». لم يكن بوسعه سوى الارتياب فـــي تلك الطبيعية الشـــديدة التـــي كان يحدث بهـــا كل هذا: اللامبالاة التي قوبل بها وصولـــه المفاجئ من جانب الراكبين،

وربما حتى ما هو أكثر من ذلك، هذا التوقع والاستعداد المثير للريبة إلى درجة كبيرة من جانب صاحب الزورق للتحرك في الحال عقب وصوله مباشرة. قال لنفسه، «لا تحدث الأمور بهذه الطريقة»، لكن نظرا إلى أنها من دون شك كانت تحدث بهذه الطريقة، فإن أي سؤال عن الكيفية يمكن أن يؤدي فقط إلى طريق الإصابة بالبارانويا. هبط إلى أرضية القارب وأخرج علبة الأوفالادو. المراكبي العاري، الذي كان قد لف الحبل المبتل حول ساعده الأسود مثل إسورة، قفز على متن الزورق، ودفع بمقدمة إصبع قدمه الكبير أحد الراكبين المستلقين الذي تحرك بدوره، ونهض على ركبتيه، وألقى بنظرة انزعاج وضيق خاطفة وسأل: «أين هو؟»، من دون أن يجيبه ناوله صاحب الزورق أقصر صاري في الصاريين اللذين كانا موضوعين بطول حافة الزورق. بدآ معا في دفع الزورق على امتداد السطح غير المرئي للمياه. كانت الأنشودة الصادرة عن الضفادع وضوء النار الساطع تملأ الليل.

بعد إجابته بـ «نعم» عن السؤال الخاص بتابياما، شعر المصور بأنه ليس بمقدوره تقريبا القيام بخطوة تراجعية والسؤال «ما تابياما؟» أو «أين تقع تابياما؟» ولذلك، بقدر ما كان يود أن يعرف، بقدر ما قرر الانتظار. هذا المسطح المائي الضحل تحتهم، مصب أم بحيرة ضحلة قريبة من البحر أو متصلة به؟ الاحتمال الأكبر أنه نهر، بما أن صاحب الزورق قال إن الجزر كان قد انتهى. لكنه لم يكن هو الجدول نفسه الذي كان قد سمع مرور مياهه المزعجة بين الصخور وهو في سريره.

كانوا يواصلون دفع الزورق من وقت إلى آخر. ويشقون طريقهم تحـــت كتل النباتات العالية حيث كان نقيق الضفادع يغطيه لفترة وجيزة صوت آخر، غامض ووحشي، يشبه التمزيق المفاجئ لملاءة كبيـــرة من الكتان القوي. بين الحين والآخر كان شـــيء ما صلب وثقيل يرتطم بســـطح المياه في الجوار، كما لو أن رجلا يســـقط في المياه. وأحيانا بشـــكل عرضي كان الراكب الآخر يرفع نفسه مستندا على مرفقه ومن دون مجهود كبير يتمكن من إنعاش النار التي كانت تذوي، مستعينا بألياف نخيل أخرى جافة.

ربما انقضى أقل من ساعة قبل أن يصلوا إلى منطقة التوقف والرســـو في الطين. وثب الراكبان الآخران إلى الخارج وأسرعا بعيدا في الظلام. بعدما ارتدى صاحب الزورق ســـروالا قصيرا، ضـــرب برفق ذراع المصور وطلب منه ســـتين ســـنتافو. فأعطاه خمسة وسبعين وتسلق بجهد إلى خارج الزورق في الطين الناعم، وحذاؤه في يده.

«انتظر لحظة»، قال الرجل. سآتي معك. كان المصور مسرورا. عندما انتهى المراكبي - الذي بدا ذا بشرة أكثر سمرة في سرواله الأبيض القصير - من تثبيت الزورق إلى جذع شـــجرة مغروسة في الطين، تقدم كتلة من الشـــجيرات، وقال بشكل عرضي: «هل سترجع غدا إلى الجانب الآخر؟»

«الجانب الآخر؟ لا».

«ألست هنا بغرض المرافقة؟». كان الصوت يوحي بأن الوجود هنا لغرض آخر غير المرافقة، ما أدى إلى ارتياب في الشـــخص من جميع النواحي.

حان الوقت لكي يكون صادقا، كان خائفا، على الرغم من أنه لم يستمتع بالوضع الذي عرف أنه سيضع نفسه فيه. «لم يسبق لي أن سـمعت عـن المرافقة»، قال. «لقد وصلـت الليلة إلى ريو مارتيلو. أي نوع من المرافقة؟»

«النوع الحلو»، قال الآخر. ثم وقف سـاكنا في الظلام وتكلم ببـطء قائلا: «إذن(*) لماذا جئت إلـى تابياما؟ إنهم لا يحبون هنا أصحـاب الملايين(* *)، هل تعرف». فهـم أن هذا كان مصطلحا سـاحليا سـاخطا مخصصا للأمريكيين، فكذب المصور بسرعة قائلا: «أنا دانماركي»، لكنه أحس أن صوته كان يفتقر إلى الإقناع فأضاف على الفور: «هل سـنخوض في المزيد من الطين، أم أن بإمكاني ارتداء حذائي؟»

شرع الرجل في السير مرة ثانية وهو يقول ملتفتا إلى الخلف: «اغسـل قدميك في الحانة إذا أحببـت». وخلال دقيقة كانا قد وصلا إلى هناك، كان المكان كله يلفه ظلام مفتوح، وبه مجموعة مـن الأكواخ المصنوعة من جريد وسـعف النخيل في طرف منه، وفـي الطرف الآخر رصيف تحميل بحـري على الأرجح، وكانت الحانة، الواقعة بين فـراغ الليل والمياه المفتوحة من خلفها، وفي المنتصف بين الرصيف ومجموعة المساكن، مجرد كوخ كبير جدا من دون حائط أمامي.

كان هناك ضـوء خافت يأتي من الداخل، ولم يكن هناك من صوت سـوى صوت الضفـادع في جميع الجهـات، والاحتكاك الخشن المهتاج بين الفينة والأخرى في الأفرع عاليا. «لماذا المكان

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

(* *) وردت بالإسبانية [المترجم].

مفتوح حتى هذه الساعة؟» سأل المصور. توقف المراكبي في وسط المنطقة الخالية وضبط سرواله بسرعة. ثم قال: «يفتحه دون أوكتافيو من السادسة صباحا حتى السادسة مساء. ويديره أخوه من السادسة مساء حتى السادسة صباحا. فالشركة تصرف الرجال من العمل في ساعات مختلفة، وهم يأتون إلى هنا بأجورهم(*) لينفقوها. إنهم يفضلون المكان هنا عن البيت، فلا يوجد هنا الكثير من البعوض». كان خيال المصور هو الذي جعل صوت الرجل يبدو ساخرا بينما كان ينطق بالكلمات الأخيرة. واصلا سيرهما عبر الخلاء ثم خطوا إلى داخل الحانة.

لم تكن هناك أرضية، فقد كانت الأرض مغطاة بالرمل الأبيض. وركبت طاولة (كاونتر) من ألواح الخشب بشكل مائل بطول أحد الأركان البعيدة. في المكان مصباح زيتي يحترق وينفث دخانه ورجلان واقفان يتناولان الشراب. كانت صناديق التعبئة الخشبية مبعثرة هنا وهناك، بعضها مرصوص في المؤخرة وفوقها زجاجات بيرة فارغة، وهناك صناديق أخرى إلى جانبها، لاستخدامها كمقاعد. «المكان هادئ تماما وكئيب»، علق المراكبي بالإسبانية، وهو يلقي نظرة سريعة في أرجاء المكان. ثم مضى إلى خلف البار واختفى عبر باب صغير هناك في الحائط. بخلاف الرجلين الواقفين، اللذين توقفا عن التحدث ويحدقان في المصور، لم يكن ثمة أحد آخر في المكان. قال لنفسه «عندما ترتاب أو تشك في الأمر، تحدث»، ثم تقدم نحوهما، على الرغم من أنه قد خطر له أيضا أن ما ينبغي عليه فعله فقط هو،

(*) وردت بالإسبانية - [المترجم]

«عندما ترتاب أو تشك، اصمت»، حتى أنه عندما فتح فمه ليقول بالإسبانية: «ليلة طيبة»، لم تتغير تعبيراتهما بأي طريقة كان في إمكانه تبينها. استمرا في التحديق فيه ثلاث ثوان كاملة قبل أن يردا عليه، وهو ما فعلاه معا في الوقت نفسه تقريبا. لاحظ أنه لم يكن هناك شيء مشترك بين هذين الاثنين: فأحدهما جندي يرتدي زيا رسـميا، صبي هندي ربما في الثامنة عشرة، والآخر الذي يبدو عليه التعب خلاسي مدني غير محدد العمر. أو ربما - خطـرت إليه الفكرة بينمـا كان يضع مرفقه على البار بحركة تنم عن عدم الاكتراث - على الأقل تولد بينهما تنافر مشـترك، بعد دخوله إلى الحانة. «آه، حسنا، إنني حافي القدمين وحذائي مغطـى بالطين»، فكـر «هل يوجد أحد هنـا؟» قال بصوت عال بالإسـبانية وهو مستند إلى الحائط المصنوع من ألياف النخيل. لم يستأنف الاثنان محادثتهما وأيضا لم يمضيا معه في الحديث أكثر من هذا، وهو لم يدر رأسـه نحوهما مـرة ثانية. وفي تلك اللحظة انفتح الباب الصغير واندفع عبره رجل بدين. وقف ويداه ممدودتان على البـار، وحاجباه مرفوعان فـي توقع انتظارا لما سـيطلبه. «سآخذ كمبيامبا»، قال المصور، متذكرا اسم المشروب المفضل لدى سـكان المنطقة الساحلية، وهو كوكتيل من أعشاب مشهور بآثاره الغادرة.

كان المشـروب كريـه الطعم لكنه قوي. بـدت الكأس الثانية أفضل. مشى المصور إلى الجانب المفتوح من الحانة وجلس فوق صندوق تعبئة، وتطلع إلى الليل الهلامي الذي لا شـكل له. كان الاثنان عند البار يتكلمان مرة ثانية بنبرات منخفضة. لم تتقض

فترة طويلة قبل أن يظهر خمســـة رجال من نهاية الرصيف في الخلاء، وانتشروا من دون نظام ووقفوا على البار، وهم يضحكون بينما كانوا ينتظرون مشـــروباتهم. كانوا كلهم ذوي بشرة سوداء، ويرتدون الســـراويل فقط، مثل المراكبي. حضرت الآن فتاة ذات أســـنان ذهبية عبر الباب الصغير الموجود خلف البار وانضمت إليهـــم. لكنها أدركت على الفور أن المصور كان جالســـا بمفرده، فســـلكت طريقها نحوه عبر المكان المفتـــوح. عندما وصلت إليه، جلســـت القرفصاء بجانبه ثم ابتســـمت ابتسامة عريضة. كانت الضوضاء الناجمة عن الضحكات عند البار غير كافية للتغطية على صوتها الرفيع، الذي جاء حادا ومشحونا بالغضب: «يا لك من خشـــن فظ! بينديجو!»(*). ورجعت مرة ثانية إلى البار وقدم أحد العمال البيرة لها. على الرغم من أن المصور لم يكن متعمدا ركلها، فإنه لم يشعر بأي أسف على الشكل الذي اتخذه الحادث. بدا أن كأســـي الكمبيامبا قد بدأ تأثيرهما، فقد بدأ يشعر بأنه على ما يرام جدا. ظل جالسا برهة، وهو ينقر بأطراف أصابعه إيقاعـــات على جانب كوبه الفارغ. بعـــد فترة وجيزة حضر إلى الحانة عمال زنـــوج آخرون وانضموا إلـــى الآخرين عند البار. كان أحدهم يحمل جيتارا وجلس ليعزف عليه قطعة موســـيقية صغيـــرة من موســـيقى وترية على أنغام لحن فشـــل في عزفه. وعلـــى الرغم مـــن أن الموســـيقى كانت من النوع الـــرديء، فإن الجميع كانوا مســـرورين بها. من المحتمل أن الصوت قد تسبب في إيقاظ كلاب القرية، فقد بدأت في إطلاق «كورس» غاضب

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

مـن النباح، وكان هذا النباح مسـموعا بصفـة خاصة للمصور الذي كان جالسـا في المدخل، وقد تسبب في إصابته بالضيق. نهض وانتقل إلى صندوق فارغ بجانب الحائط المقابل، مسـندا رأسـه إلى عمود خشبي خشن كان دعامة من دعامات السقف. على مسافة قدم أو نحو ذلك فوق رأسه مباشرة كان هناك شيء ما غريب مدلى من مسـمار. من وقت إلى آخر كان يدير عينيه إلى أعلى ويتفحصه.

فجأة قفز المصور واقفا وبدأ ينظف ظهر رقبته ورأسـه. كان العمـود من خلفه يعج بالنمـل الصغيـر، آلاف وراء آلاف: كان شـخص ما قد علق أفعى مرجانية مغضنة على المسـمار، وقد جاء النمـل لأكل لحمـها. اسـتغرق الأمر منه فـترة طويلة كـي لا يشعر بمزيد من الحشرات تجري فوق ظهره، وفي تلك الأثناء حضر شخصان آخران إلى الحانة، لم يلحظ إن كانا قد قدما من الخارج أو عبر الباب الواقع خلف الطاولة، وجلسا بينه وبين البار بطريقة جعلتهما يجلسـان في مواجهته. بدا الرجل العجوز من أبناء الشـمال الاسـكندنافي، ومن الممكن أن يكون الولد البريء الذي معه ذو السـاق الواحدة إسبانيا، كان الرجل العجوز يحكي للولـد قصة طريفة، وهـو يميل تجاهه باهتمـام كبير، كان بين الحين والآخر يوخز ذراع الولد بسبابته ليلفت انتباهه إلى إحدى النقاط، لكن الولد كان شارد الفكر تماما وكان يصنع على الرمل تصميمات بطرف عكازه.

نهض المصور، لم يسـبق له من قبـل أن انتابه مثل هذا الأثر من جراء كأسـين. «إحسـاس غريب جدا»، قال لنفسه، «غريب

جدا»، قال مكررا جهرا لكن في صوت هامس بينما كان متوجها نحو البار لطلب كأس أخرى. لم يكن إحساسه بالسكر شديدا إلى درجة أن يصبح شخصا آخر وليس هو ذاته، شخصا ما كان العيش وممارسة الحياة في نظره شيئا شديد الاختلاف عما كان يعتقد أنهما عليه، وهذا الشخص الذي ترك غريبا في منطقة إحساس بعيدة عن أي إحساس عرفه من قبل. لم تكن الحالة بغيضة: فقط كانت غير محددة وغير قابلة للتحديد. «ديسبينسيم»، قال بالإسبانية للزنجي الطويل المرتدي طاقما من ماركة «بي في دي أس» مخططا بألوان قرنفلية وبيضاء ثم أعطى كأسه الفارغة إلى عامل البار البدين. أراد أن يرى ما الذي كان يدخل في تركيب الكمبياما، لكن عامل البار فعل كل شيء بسرعة تحت الكاونتر وأعاد إليه الكأس ممتلئة بعض الشيء بخليط الرغوة الوفيرة. تناول منها جرعة جيدة ملء فمه ثم وضع الكأس على الكاونتر، بينما كان يستدير قليلا إلى جهة اليمين. كان الجندي الهندي واقفا إلى جواره، وفي الزاوية العلوية من قبعته وجه أمامي لأحد سكان أمريكا الأصليين. «لماذا يضع الجيش مثل هذه الحافة الأمامية الكبيرة في القبعات؟» تساءل المصور متعجبا بينه وبين نفسه.

رأى أن الجندي كان على وشك التحدث. «أيا كان ما سيقوله فسيتضح أنه إهانة»، قال لنفسه محذرا، على أمل أن يساعده هذا على تجنب الغضب المحتمل الوقوع في ما بعد.

«هل تحب هذا المكان؟» قال الجندي، وكان صوته رقيقا ناعما.

«نعم، إنه لطيف(*). نعم، أحبه».

«لماذا؟» أصبحت الكلاب في الخارج أكثر قربا، وكان في إمكانه في ذلك الوقت سماع نباحها الذي غطى على الضحك.

«هل في مقدورك أن تخبرني لماذا يعلقون ذلك الثعبان الميت على الحائط هناك؟» وجد نفسه يسأل، وافترض أن السؤال كان بدافع منه لتغيير الموضوع.

لكن الجندي كان على وشك أن يصبح أكثر ضجرا مما كان يخشى هو.

«سألتك لماذا تحب هذه الحانة، واصل حديثك»، قال مُصرا.

«وأنا قلت لك إنها لطيفة، ألا يكفي هذا؟»

أمال الجندي رأسه إلى الخلف ورمقه بنظرة ازدراء واستخفاف.

«أكثر مما يكفي»، أجاب بطريقة متحذلقة، وبتعبير مثير للاستياء.

عاد المصور إلى شرابه، التقطه، وانتهى منه ببطء. ثم أخرج سجائره وعرض واحدة على الآخر. بتأن مبالغ فيه مد الجندي يده وأخذ السيجارة، وبدأ يطرقها على الكاونتر. الرجل الذي كان يعزف على الجيتار بدأ أخيرا في الغناء بصوت منخفض على مقربة منه، لكن معظم الكلمات كانت باللهجة المحلية التي لم يكن في استطاعة المصور أن يفهمها. عندما أشعل السيجارتين، وجد نفسه يتساءل من الذي أشعلهما - هو أم الجندي؟

«من أين أنت بالضبط؟» سأل الجندي.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

لــم يكن منزعجا من الرد، لكن الجندي أســاء حتى فهم هذا الموقف، وقال «بوســعي أن أرى أنك تختلق شــيئا ما»، ثم أردف، «وأنا لا أرغب في سماعه».

«آاااه»، صــاح المصور بقوة من فرط اشــمئزازه، وطلب كأس كمبيامبا أخرى. أحدثت هذه الكأس التي تناولها الآن شــيئا ما غير عادي فيه: فقد شعر بأنه أصبح محددا جدا، رفيعا وصلبا، شــيئا مصنوعا من المينا أو مادة ما مشابهة لها، شيئا ما بخلاف كونه كائنا حيا، لكنه مع ذلك كان واعيا بشدة. «أربع كؤوس يجب أن تحدث الأثر المطلوب»، فكر.

كانت الكأس الفارغة في يده، وكان عامل البار البدين يحدق فيه، وفي تلك اللحظة لم تكن عنده أدنى فكرة إن كان قد شرب بالفعــل الكأس الرابعة أو أنه كان فقط في اللحظة التي أعقبت طلبه لها. أحس بنفســه يضحك، لكنه لم يكن قادرا على ســماع مــا إن كان للضحك صوت ظاهر أم لا. ضايقه الثعبان المتغضن الغاص في النمل بعض الشيء عندما لمحه، وكان المصور في تلك اللحظــة واعيا برائحته، لم يكن متأكدا من أنها قد اختفت حتى ذلك الحين. هنا عند البار كان مصباح الكيروسين يدخّن بشدة، ودخانه القوي أصاب المصور بالاختناق. «شكرا للرب»، أسرّ إلى عامل البار بالإسبانية، وهو يناوله الكأس.

نهــض الرجل العجوز الذي كان يجلس على الصندوق خلفهم وحضــر إلى البــار بطريقة مبهمة. «من أين جــاء هذا الرجل؟» قــال المصور، وهو يضحك معتذرا، ثم نظــر إلى الكأس الممتلئة في يده. كانت الكلاب المســعورة بالخارج تنبح وتعوي في الخلاء

بصوت مثير للغيظ. «لماذا لا تتخلصون من هذه الكلاب؟» سأل بالإسبانية مستفسرا في الجندي.

كان الرجل العجوز يقف بجانبهم، وشرع في التحدث قائلا: «مرحبا، يا صاح، أنا لا أقصد مقاطعة الحديث أو ما إلى ذلك». كان أصلع لوحت الشمس بشرته، وكان يرتدي قميصا شبكيا خاصا بالصيادين. وقد ظهرت التجاعيد بين ضلوعه كظلال متوازية، وكانت كتل الشعر الرمادي الأشعث تبرز إلى الخارج من بين فتحات القميص الشبكية. وكان يرسم على شفتيه ابتسامة عريضة، أظهرت لثته البيضاء العارية. أصبح موقف الجندي باردا أكثر من اللازم، فقد كان يحدق في الوافد الجديد، والكراهية الواضحة في عينيه، وينفث دخان سيجارته برفق في وجه الرجل العجوز.

«أنت من ميلووكي(*)؟ تفضل بالجلوس معنا».

«دقيقة واحدة، شكرا»، قال المصور.

«دقيقة واحدة؟» ردد الرجل العجوز بطريقة متشككة، وهو يمرر يده على رأسه. ثم نادى بالإسبانية على الولد ذي الساق الواحدة. كان المصور يفكر: «لن يمر هذا بسلام، على الإطلاق. إنه لن يمر بسلام أبدا». تمنى أن يتوقف الزنجي عن الغناء والكلاب عن النباح. نظر إلى الكأس في يده، كانت ممتلئة بما يشبه رغوة الصابون. خبط أحدهم على كتفه. «اسمع يا صاح، سأسدي إليك نصيحة صغيرة». كان الرجل العجوز مرة ثانية. وواصل قائلا: «هناك مال في هذا البلد إذا عرفت أين تجده. لكن الرجل الذي

(*) ميناء جنوب غرب ويسكنسن، على بحيرة ميشغان [المترجم].

يعثر عليه هو الذي يظل ملتصقا بجنسه الخاص، إذا كنت تعرف ما أعنيه». ثم قرّب وجهه وخفض صوته ولمست ثلاث أصابع هيكلة ذراع المصور. «خذها نصيحة مني، من رجل أبيض مثلك. اسمع ما أقوله لك!» ارتفعت الأصابع الثلاث، الداكنة من أثر التبغ، من تلقاء ذاتها، وارتعشت، وعادت مرة ثانية إلى وضعها السابق. «هؤلاء الرجال جميعا ينوون منذ البداية القيام بمشكلة».

التقط الولد عكازيه وتمكن من النهوض من المكان الذي كان يجلس فيه، ووصل في تلك اللحظة إلى البار. «ألق نظرة على هذا، يا صاح»، قال الرجل العجوز. «أطلعه عليه»، قال للولد بالإسبانية، وانحنى الولد مستندا على عكازه، وطوى ساق البنطلون الكاكي البالية اليمنى حتى كشف عن بقية ساقه المبتورة. كان البتر على مسافة غير بعيدة أسفل الخصر، وكانت أماكن التئام الأنسجة قد تجعدت وانثنت بغرابة على هيئة طيات صغيرة جدا وكثيرة. «هل ترى؟» صاح الرجل العجوز. «حمولة مائتين وستين طنا من الموز سقطت هنا. تحسسها».

«تحسسها أنت»، قال المصور، وهو مندهش من كيفية تمكنه من أن يظل واقفا ويتحدث معهم بالضبط كما لو كان واحدا منهم. (هل من الممكن أن يكون ما حدث له غير ظاهر؟) أدار رأسه ونظر نحو المدخل. كانت البنت الخلاسية تتقيأ في الخارج مباشرة. أسرع عامل البار في اتجاهها وهو يصرخ ودفعها بعيدا في غضب، إلى حيث الخلاء. عندما عاد إلى الداخل كان يمسك بأنفه بطريقة مسرحية. «تلك القردة القذرة!» صاح. «ستكون الكلاب في غضون دقيقة عندنا هنا في الداخل».

كان الولد لا يزال ينظـــر بترقب إلى الرجل العجوز، ليرى إن كان الوقت قد حان لإســـداله ســـاق البنطلون. «هل تعتقد أنه قد حصل على ســـنتافو واحد منهم؟» قال الرجل العجوز بحزن. «هاه!»

بـــدأ المصور في الارتياب من أن شـــيئا ما قد ســـار بداخله علـــى نحو خاطئ. فقد كان يشـــعر بالاعتلال، لكن نظرا إلى أنه لـــم يعد مخلوقـــا حيا فإنه لم يكن في إمكانـــه التعبير عنه بهذه المصطلحات. فأغلق عينيه ووضع يده على وجهه. «إنها منتشـــرة في كل مكان في الخلفية»، قال. كان مشروب الكمبيامبا الذي لم يشربه بعد لايزال في يده الأخرى.

تلفظه بهذه الجملة جعلها تبـــدو أكثر حقيقة. كانت بالتأكيد منتشـــرة في كل مكان في الخلف. كان الشيء المهم هو تذكره أنه كان هنا بمفرده وأن هذا المكان كان مكانا حقيقيا ويوجد به أناس حقيقيون. في إمكانه أن يشعر بأنه من السهولة الانسياق بشكل خطير وراء الرسائل المعطاة له عن طريق حواسه، واستبعد الأمر برمتـــه مثل اعتقـــاد خفي أن في إمكانه الهـــرب بطريقة ما من الكابوس عندما تأتي اللحظة الحاسمة عن طريق إيقاظه لنفسه منه. وضع مشروبه على الطاولة وهو يترنح قليلا. الخلاف الذي كان قـــد تصاعد منذ فترة بين الجنـــدي الهندي ورفيقه الحزين بلـــغ في ذلك الحين مرحلة مزعجة، حيث حاول الرفيق ســـحب الجندي بعيدا عن البار رغما عنه، والجندي كانت قدماه الاثنتان المرتديتان حـــذاء عاليا متباعدتين في ثبات، ويتنفس بســـرعة، وبطريقة مزعجة في أثناء مقاومته له. فجأة كان هناك ســـكين

صغير يلمع في يده اليمنى، واكتسى وجهه بنظرة صبي صغير على وشك أن ينفجر بالبكاء. تحرك الرجل العجوز بسرعة إلى الجانب الآخر من المصور. «هذا الرجل سيئ السمعة بكل المعاني»، هممهم، وهو يشير بعصبية إلى الولد ذي العكاز لكي يأمره بالتحرك بعيدا عن الطريق.

كان المصور يقول لنفسه: «لو كان في إمكاني الصمود. فقط لو كان في إمكاني!». كان المكان بأكمله ينسرب بعيدا عنه، إلى الأسفل وإلى الخارج، وكان الجيتار يعزف والكلاب تنبح، أشار الجندي بسكينه ومطّ شفتيه، تحدث الأمريكي القديم عن الكهوف الممتلئة بالزمرد المدفونة على مسافة ستة أيام فقط أعلى «تبرو»، أصبح ضوء المصباح أكثر احمرارا وراح يبعث بدخان أكثر. لم يفهم شيئا باستثناء أنه كان يجب عليه البقاء هناك والمعاناة، فمحاولة الهرب ستكون قاتلة. كان وجه الجندي في تلك اللحظة قريبا من وجهه، وينفث دخان تبغه الأسود فيه. بضعف، وبدلال طبيعي مجنون، جعل رموشه الطويلة ترتعش بينما راح يسأل: «لماذا لم تعرض عليّ كوبيتا؟ فقد كنت أنتظر طوال الليل أن تعرض عليّ واحدا». تدلت اليد الممسكة بالسكين بفتور إلى جانبه، ففكر فيه المصور كطفل نائم لايزال متشبثا بخشخيشته.

«سي كويزيز ... كي توماس؟» تمتم مفكرا في أن حذاءه كان يجب أن يكون في يده لكنه لم يكن، أين ذهب إذن؟ أحضر شخص ما قردا كبيرا من فصيلة السعدان العنكبوتي إلى الحانة وكان يحاول إجباره على الرقص على إيقاع الجيتار، وهو يجعل

القرد يقف مستقيما عن طريق الإمساك بمخلبيه الأماميين. خطا القرد بمظهر ينم عن الذهول بعض الشيء، وهو يحدق في هذا الطريق وذاك، وهو مقطب في عصبية بسبب الدوي العالي للضحك الذي كان يصدر عن هؤلاء الواقفين عند البار ويشاهدون سلوكه الطريف. أسرعت الكلاب، التي لاحظت وصوله، واقتربت جدا من مدخل الحانة، حيث هيأت نفسها للنهش والعض بغضب مبيت النية.

ابتاع الجندي الشراب ودفع ثمنه، لكنه لم يشربه. كان مستندا بعيدا إلى الخلف على البار، متكئا على مرفقيه تقريبا كما لو أنه كان في السرير، كانت عيناه بسيطتين لوزيتين وذاتي لون أسود، همس: «أنت لا تحب المكان هنا. تريد أن تنصرف، أليس هذا صحيحا؟ لكنك تخشى الانصراف».

على الرغم من أن الجلد كان ينزلق مبتعدا عنه، فإن كل شيء ظل بالضبط كما كان عليه. كان من الممكن أن يكون في حالة أفضل لو كان في وسعه الجلوس. «آه، يا إلهي»، وسأل نفسه: «هل سأظل قادرا على احتمال هذا؟»

«لماذا تخشى الذهاب؟» واصل الآخر بلطف، وهو يبتسم إلى درجة أن المصور أعجب بأسنانه الصغيرة المكتملة. ضحك المصور في صمت، ولم يجب.

كان وجه الجندي، البيضاوي بلون العسل القريب جدا منه، قد تبدل الآن إلى وجه آخر، وجه يشبه وجه جنرال. («نعم، أنا جنرال»(*)، ذو شارب صلب نابت من تحت فتحتي الأنف، وعينين

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

لوزيتين ســوداوين تطفران برغبة مرهفة، وزي مهندم، وســوط صلب مضفر في اليد، وســنون المهماز تلمع على عظمة الكاحل. «حقا، أنا جنرال»، مستلقيا فوق فراش السكنة الساخن، في وقت متأخر جــدا من بعد الظهر(*)، كان الجندي يحلم بكونه جنرالا. من أي قرية جبلية جاء كما قال هو؟ منذ متى كان يتكلم؟)

«... وفــي ذلك اليوم وحده قتلوا واحدا وأربعين خنزيرا أمام عيني، هناك في الحظيرة. أنا مخطئ أو مقصر بطريقة ما، لكن هم أنفسهم ...»(* *) كانت ابتسامته حميمية تدل على الاعتذار، خفض عينيه بشــكل غير ملحوظ، وبــذل مجهودا ورفعهما مرة ثانيــة لينظر إلى المصــور، بطريقة، نظرا إلــى أنهما كانتا أكثر اتســاعا عن ذي قبل، جعلتهما تلتمعان. «لن أنســاهما أبدا، ولا أعرف لماذا».

جاءت الفتاة ذات الأســنان الذهبية واندســت في ما بينهما، ويداهــا تتلويان فوق رأســها، ووركاها يــدوران، وصوتها الرفيع يصيح بالإســبانية: «آهيي! آ هيــي! إل فانداجو دي لا جوجيرا». كان من المؤكد أن الجندي قد دفعها، لأنها صفعته فجأة. لكن الأمر كان يحدث ببطء شــديد. وإلاّ كيف استغرق الأمر وقتا طويلا من الجندي ليرفع سكينه، وبينما كان يهم برفع يده، كيف أمكن للفتاة الغبية الانتظار بهذه الطريقة قبل أن تصرخ أو تنحني جانبا؟ وعلى الرغم من أن المدية قد طالت ذراعها فقط، فإنها كانت راكعة على الأرض وســط الرمل، وهــي تتأوه: «لقد جرحني! يــا إلهي! لقد أصابنــي!» ولأن الرجل الذي كان يرقص مع الســعدان العنكبوتي

(*) وردت العبارة بالإسبانية [المترجم].

(* *) وردت بالإسبانية [المترجم].

كان قد تركه لينضم بسرعة قدر الإمكان إلى الآخرين عند البار، فقد مضى الحيوان بخطوات قصيرة إلى الفتاة، وبذهول وحيرة لفّ ذراعه الطويلة الممتلئة بالشعر حول رقبتها. لكن المصور آنئذ كان قد اندفع تقريبا وكانت قدماه العاريتان تخطوان بينما كان الجميع يحاولون الوصول إلى الجندي وانتزاع سلاحه. (كان وجه شخص اكتسى بقناع يلمع بالغل الشديد، وله صوت يقول بنبرات خشنة مهتاجة بالإسبانية: «فلينتبه الجميع! لينتبه الجميع!»)

كان قد وقف بالضبط على بعد تسع عشرة خطوة في مكان به شجرة بابايا صغيرة أمام المدخل. لم تكن الشجرة قوية بما فيه الكفاية، فتأرجحت عندما استند إليها. كانت الكلاب في ذلك الوقت تصيح من داخل الحانة. في هذا المكان كان الهواء لطيفا وباردا بعض الشيء، وكان هناك وميض باهت جدا للصباح في السماء وفي المياه خلف رصيف المرفأ. «يجب أن أبدأ السير»، قال لنفسه، بدا من المهم أن يصدق ما قاله لنفسه. كانت الصيحات والصرخات تتعالى داخل الحانة وتتصاعد درجتها وحدتها، فبدأ الناس ينادي بعضهم بعضا من أبواب أكواخهم. كان رصيف المرفأ خاليا، مجرد ألواح خشبية ولا يوجد درابزين. جر قدميه بعناية بالغة لأنه لم يكن معتادا على السير حافيا، وسار متتبعا ما اعتقد أنه الطريق الذي كان قد سلكه في وقت سابق، خلال الشجيرات عائدا إلى حافة النهر، وكان هناك قارب في مرسى شاطئ طيني به أشجار منجروف.

كان من السهل عليه الصعود على متنه، وكذلك فك الحبل، وسهل عليه أيضا - لأن مستوى الماء ارتفع إلى حد كبير منذ

أن ترك القارب - تحريكه عن القاع الطيني حيث كان مستقرا. لكن بمجرد طفوه بالقارب بين الجذوع والفروع المرئية الآن تقريبا، واصطدامه بها والتفافه في أول الأمر في مواجهة ضفة النهر المضطرب المظلم ثم الفراغ الأبيض المتسع لسماء ومياه مفتوحتين، فهم بشكل غامض أنه لم يكن من الممكن أن يندفع في طريقه عائدا مرة ثانية إلى الشاطئ الذي أتى منه، نظرا إلى أن المد كان يواصل ارتفاعه. كانت فكرة مريحة، قرر ذلك، لأنها كانت تعني أن كل شيء كان يمضي قدما وليس هناك سبيل للتراجع. بعد دقيقة كان يطفو برفق قرب قاعدة رصيف المرفأ، وكان الناس يركضون هنا وهناك في الخلاء. استلقى بسرعة إلى أسفل وتمدد في قاع القارب، وظل هناك، ينظر إلى أعلى مباشرة في السماء الرمادية، متمنيا أن يبقى بهذه الطريقة بمعزل عن مجال الرؤية، حتى يصل إلى أبعد من تابياما.

كان النهار على وشك أن يصبح أحد تلك الأيام الاستوائية الضائعة، حيث لا تكون هناك شمس، ولا رياح، ولا سحب - لأن السماء بالكامل كانت محاطة بغلاف خانق شديد الاتساع عبارة عن سحابة واحدة - حيث لا يحدث شيء على الإطلاق باستثناء اشتداد الحرارة كل ساعة حتى يأتي الغروب. كان الجانب الشرقي من السماء بالفعل هو الجانب الساخن، مقوسا فوق المستنقع العريض. كان القارب يتحرك بصعوبة، واتسعت القناة في هذه البحيرة المستنقعية العريضة. لايزال المصور مستلقيا وهو يتأوه. شيئا فشيئا بدأ الخوف من احتمال رؤية أحد له يفسح المجال للأمل في أن يدفع تيار مائي القارب إلى الداخل

باتجاه الشاطئ بدلا من الخارج نحو المياه الشاسعة والجزر الصغيرة المقفرة، لأنه في بعض الأحيان - وعلى الرغم من أن بعض المعاناة مضمنة فيه - يكون الاتصال مع الآخرين أفضل من الرعب الناتج عن الوحدة والمجهول. وضع ذراعه على عينيه لحمايتهما من الضوء الرمادي المزعج الذي كان يسقط عليه من السماء. وكانت اليد الأخرى ممددة فوق الرماد المتخلف عن نار ليلة الأمس. كان وهو يطفو في الصمت التام في قلب البحيرة الهادئ، لا يشعر بالنشاط بينما كانت ساعات الصباح تنقضي، بل كان على وعي متزايد بالاضطراب الفظيع الذي تحدثه كؤوس الكمبيامبا في رأسه، الاضطراب الذي أعرب عن نفسه مثل كابوس لا معنى له أتاه من الخارج، كابوس لم يستطع إزاءه إلا أن يصبح فقط سلبيا بشكل تام. كان عبارة عن ذلك المشهد غير المرئي الذي له منطقه المؤلم والذي انغمس فيه وراح يتتبع طبيعة وجوده الكلي، لكن، من دون إعطائه ولو مرة واحدة رؤية واضحة لما كان ينطوي عليه من أقدار مؤلمة.

في وقت ما قرب منتصف الصباح احتك القارب بأحد الجذور المغمورة تحت السطح، فأخذ يتأرجح في تدويم البحيرة تحت مظلة من النباتات على مقربة من الشاطئ. في هذا المكان كان الذباب الشرس يلسعه، ومن فوقه بين أوراق النباتات في الأعلى، كان أحد الطيور من الفصيلة الناطقة يعلق بشكل عرضي بالإسبانية، مرارا وتكرارا: «إيديجاراجا. إيديجاراجا. إيديجاراجا».

لم يكن هناك عزاء بعينه بالنسبة إليه، فقد كان عن قصد وتصميم شديد في دراما مجهولة تعرض من خلاله، يمكن أن

يقدمه إليه في ذلك الوقت سـماعه لأصوات بشـرية، أو شعوره بأن القارب قد أمسـكته يد شخص ما كان يشق طريقه في الماء إلى جـواره. فقط عندما طلع عدة أشـخاص على متن القارب وجثـوا من حوله بالفعل وهم يثرثرون حتـى حرك ذراعه ونظر إليهم شـزرا. كانوا خمسـة من الشبان، يشـبه بعضهم البعض بشـكل ملحوظ، قد أحاطوا به. كانت قطرات الماء تسقط عليه من أجسـادهم العارية. أغلق عينيه مرة ثانية: كان المشـهد غير مرغـوب فيه إلى حد كبير جدا. في تلك الأثناء قفز أحدهم من القارب، وغاب فترة قصيرة، ثم عاد بثمرة جوز هند خضراء شق قمتهـا. وبدأ يترك الماء يسـقط منها على وجه المصور، وعندئذ اعتدل المصور جالسـا بشـكل جزئي وشـرب ما تبقى من الماء المتسـاقط منها. حدق فيهم مـرة ثانية لمدة دقيقة، ثم قال: «هل أنتم أشقاء؟».

«نعم. نعم»، رددوا معا في صوت واحد بالإسبانية. كان في هذا عزاء له لسبب ما. «أشقاء»، قال بالإسبانية متنهدا، ثم انزلق إلى جـوار الرماد ثانية. ثم أضاف بيـأس، متمنيا أن يكونوا ما زالوا قادرين على سماعه: «من فضلكم خذوني إلى ريو مارتيلو».

كان فاصـلا قصيـرا من صفاء الذهن. كانـوا الآن يدفعون القارب إلى الخلف نحو الخارج تحت السـماء الساخنة، تاركين إياه مسـتلقيا هناك يتأوه كما يشاء. وفي إحدى اللحظات أحس بأنه يجب عليه أن يحاول أن يشرح لهم أنه سوف يعطي كلا منهم خمسة وسبعين سنتافو على ما يتكبدونه من إزعاج بسببه، لكنهم قهقهوا من الضحك ودفعوه إلى أسفل.

«حذائـــي!» صرخ. «لا توجد هنـــاك أحذية»، أخبروه. لا يزال مستلقيا.

«ومتى ســـنصل إلى الشاطئ»، قال وهو يلهث، ممسكا بكاحل أســـمر كان بجانب وجهه، «كيف ستأخذونني إلى ريو مارتيلو؟». «لن نذهب إلى أي شـــاطئ»، أجابوا. «سنمضي عبر المستنقع ثم القناة».

ظل مســـتلقيا فتـــرة، محاولا عزل نفســـه عن الأفـــكار غير المنطقية التي كانت تضطرب في رأسه. «هل هذا هو الطريق إلى ريو مارتيلو؟» تساءل، وهو يدفع نفسه إلى أعلى قليلا وهو يلهث، محـــاولا أن يرى ما وراء غابة الأرجل والأذرع الســـمراء المحيطة به، وشـــعر بخجل عميق غير مبرر لتقبلـــه الهزيمة مرة أخرى. كانوا يضحكـــون، ودفعوه برفق إلى أرضية القارب، واســـتمروا في دفع القارب بطريقة إيقاعية جهة الشـــرق. «مدخنة المصنع»، قال بعضهم لبعض، وهم يشـــيرون إلى مـــكان بعيد. أعاده عقله إلـــى المنطقة الهادئة عند ضفة النهر حيث تكلم الطائر الصغير، فوق أعلى الأشـــجار، وســـمع مرة ثانية صـــوت اللهجة العامية. «إيديجاراجا»، قال المصور بصوت عال، مقلدا بشكل متقن ورائع صوت الطائر ونبرته. كان هناك جو من المرح من حوله. أمســـك أحد الشـــبان بذراعـــه، وهزه برفق. «هل تعـــرف ذلك الطائر؟» قال: «إنه طائر مضحك جدا. فهو يذهب إلى أعشـــاش الطيور الأخـــرى ويرغب في البقاء هناك بداخلهـــا، وعندما تتقاتل معه الطيور الأخرى وتطرده بعيدا، فإنه يجلس فوق الشـــجرة نفسها هناك ويقول: «إيديجاراجا». وهـــذه الكلمة تعني: «إيريجاراجو،

نــادي أناكوير، لا أحد يحبنــي». ويرددها مرارا وتكرارا، إلى أن تجعله الطيور الأخــرى يذهب إلى مكان أكثر بعدا حتى لا يكون في إمكانها ســماعه ثانية. لقد قلتها بصورة صحيحة بالضبط، قلها مرة أخرى. «نعم، نعم»، وافقه الآخرون قائلين بالإســبانية، «كررها مرة ثانية!»

لم تكن لدى المصور أي نية لقولها مرة ثانية. خجله من تقبله الهزيمة أقلقه في ذلك الحين بشكل أقل. كان الصعب في وضعه الحالــي أن يقلد الطائر بطريقة ســليمة تماما من حيث الأداء، لكنه كان يعرف أن عليه أن يقلد الطائر.

عندما أطلق مصنع «أزوكاريرا ريو ماريتلينس» صافرة طويلة لإعلان حلول وقت الظهر، ظل الصوت يتردد برهة فوق المستنقع الخالي مثل أثر دخان غير مرئي. «الســاعة الآن الثانية عشرة»، قال أحد الإخوة بالإســبانية. جاءت واحدة من فراشات التنين، كبيرة ذات لون ذهبي في أســود وقد مرت في خفة وسرعة فوق الماء وحطت فــوق قدم المصور العاريــة. بعدما رفعت وخفضت جناحيهــا مرتين كانت مرة ثانية في خط ســيرها الملتوي، وهي تنحني وتنخفض بســرعة فوق البحيرة، نحو تابياما. «قلها مرة ثانية»، قال الإخوة وهم يرجونه.

الضبع

كان أحد طيور اللقلق يمر فوق بلدة صحراوية في طريقه إلى الشمال. كان ظمآن، فبدأ في البحث عن الماء. وعندما وصل إلى جبل «خنق الغار»، رأى بركة مياه في أسفل الوادي. فهبط إلى أسفل بين الصخور وحطّ عند حافة الماء. ثم اقترب وشرب.

في تلك اللحظة تسلق ضبع إلى أعلى الجبل، ورأى اللقلق وهو يقف في الماء، فقال له: «هل جئت من مسافة بعيدة؟» لم يكن اللقلق قد رأى ضبعا من قبل، ففكر «هذه إذن هي هيئة الضبع». ووقف ينظر إلى الضبع فقد قيل له إنه إذا رش الضبع بعضا من بوله على أحد، فإن هذا الشخص عليه أن يمضي وراء الضبع إلى أي مكان يريده له الضبع.

«سيحل الصيف قريبا، وأنا في طريقي إلى الشمال» قال اللقلق. وفي الوقت نفسه، خطا مبتعدا إلى مسافة داخل البركة، بحيث لا يكون على مقربة من الضبع. كان الماء هنا أعمق، ففقد توازنه تقريبا مما اضطره إلى الرفرفة بجناحيه ليبقى منتصبا. مشى الضبع إلى الجانب الآخر من البركة ونظر إلى اللقلق من هناك.

«أعرف ما يدور في رأسك»، قال الضبع. «إنك تصدق القصة التي تروى عني. هل تعتقد أن لديّ تلك القوة؟ ربما هذا ما كانت عليه الضباع من قبل منذ زمن بعيد. لكنها الآن مثل أي حيوان آخر. كان في إمكاني أن أبللك ببولي من هنا لو شئت. لكن لماذا؟ إذا أردت أن تكون عدوا لي، فاذهب إلى منتصف البركة وامكث هناك».

نظر اللقلق إلى البركة من حوله ولاحظ أنه لم يكن ثمة موضع فيها حيث يمكنه الوقوف ويكون بعيدا عن متناول الضبع.

«لقد انتهيت من الشــرب»، قال اللقلق. وبسط جناحيه ورفرف بعيدا عن البركة. وعند حافتها جرى بسرعة إلى الأمام وارتفع في الهواء. دار محلقا فوق البركة، وهو ينظر إلى الضبع في الأسفل.

«أنــت إذن مــن يطلقون عليه الغــول»، قــال. «العالم ممتلئ بالأشياء الغريبة» أضاف.

نظر الضبع إلى أعلى. كانت عيناه ضيقتين ومعقوفتين. «لقد أحضرنا الله(*) إلى هنا»، قال. «أنت تعرف هذا. أنت الذي تعرف عن الله، ولست أنا».

خفّض اللقلق من تحليقه قليلا. وقال «هذا صحيح. غير أنني مندهش من سماعي ما تقوله أنت. إن لك سمعة سيئة، بالضبط كما قلت أنت نفسك. والسحر ضد مشيئة الله».

طأطأ الضبع رأسه، وصاح قائلا: «إذن أنت لاتزال تعتقد في الأكاذيب!».

«أنا لم يتســن لي بعد رؤية ما بداخــل مثانتك»، قال اللقلق. «لكن لماذا يقول الجميع إن في إمكانك أن تفعل بها سحرا؟»

«إنني أتساءل لماذا أعطاك الله عقلا؟ إنك لا تعرف بعد كيف تســتعمله». لكن الضبع كان يتحدث بصوت منخفض إلى درجة أن اللقلق لم يكن في إمكانه سماعه.

«لم أســمع كلماتــك»، قال اللقلــق، وترك نفســه يهبط إلى أسفل.

(*) وردت بالعربية - [المترجم]

نظـــر الضبع إلى أعلى مرة ثانية. «قلت: لا تقترب مني كثيرا. لربما أرفع قدمي وأغمرك بالسحر!» ضحك، وكان اللقلق قريبا بما فيه الكفاية بحيث رأى أن أســنان الضبـــع كانت بنية. «ومع ذلـــك يجب أن يكون هناك ســبب ما»، بدأ اللقلـــق في التحدث ثانيـــة. ثم نظر إلى صخرة عالية فوق الضبع، فحط فوقها. رقد الضبع وراح يحدق فيه. «لماذا يسمونك غولا؟ ما الذي فعلته؟».

نظـــر الضبع إلى اللقلق شـــزرا وقال، «أنـــت محظوظ جدا، لـــن يحاول الناس قتلك أبدا، لأنهـــم يعتقدون أنك مقدس. إنهم يســـمونك القديس والحكيم. وحتـــى الآن لا تبدو مثل قديس أو حكيم».

«ما الذي تقصده؟» قال اللقلق بسرعة.

«لو كنت تفهم فعلا، لكنت قد عرفت أن السحر ذرة من غبار فـــي مهب الريـــح، وأن قوة الله فوق كل شـــيء. ولم تكن لتخاف أبدا».

وقف اللقلق فترة طويلة، وهو يفكر. رفع ساقا وأوقفها منثنية أمامه. ازداد الوادي احمرارا بينما كانت الشمس تنخفض. وكان الضبع جالسا في هدوء وهو يتطلع إلى اللقلق، وينتظر أن يواصل حديثه.

أخيرا أنزل اللقلق ســـاقه، ثم فتـــح منقاره، وقال: «تقصد أنه إذا لم يكن هناك ســـحر، فإن الذي يقترف الإثم هو الذي يعتقد في وجود السحر».

ضحك الضبع. «أنا لم أقل شـــيئا عـــن الإثم. لكن أنت الذي قلـــت، وأنت الحكيم. أنا لســـت في هذا العالـــم لأقول لأحد ما

الصواب وما الخطأ. يكفيني العيش من ليلة إلى أخرى، فالجميع يتمنون رؤيتي ميتا».

رفع اللقلق ساقه مجددا ووقف يفكر. ارتفع آخر ضوء من النهار في السماء واختفى. غرقت المنحدرات الصخرية في جانب الوادي في الظلام.

بعد فترة قال اللقلق: «لقد منحتني شيئا ما للتفكير فيه. وهذا حسن. لكن الليل قد حلّ ويجب عليّ أن أواصل طريقي. رفع جناحيه وشرع في التحليق بعيدا عن الصخرة التي كان قد حط فوقها. أصغى الضبع. فسمع جناحي اللقلق يصفقان الهواء في بطء، ثم سمع صوت جسد اللقلق بينما كان يرتطم بالمنحدر الصخري في الجانب الآخر من الوادي. تسلق الضبع الصخور فوجد اللقلق هناك. «لقد تحطم جناحاك»، قال. «كان حريا بك أن تذهب والضوء لا يزال هناك».

«نعم»، قال اللقلق. كان تعيسا وخائفا.

«تعال معي إلى البيت»، قال الضبع. «هل باستطاعتك أن تمشي؟»

«نعم»، قال اللقلق. وشرعا يسلكان معا طريقهما إلى أسفل الوادي.

سرعان ما بلغا كهفا في جانب الجبل. دخل الضبع أولا ونادى قائلا: «اخفض رأسك». وعندما أصبح كلاهما في الداخل تماما، قال: «الآن بإمكانك أن تقيم رأسك، فالكهف هنا مرتفع».

لم يكن في الداخل سوى الظلام. وقف اللقلق لا يحرك ساكنا. «أين أنت؟» تساءل.

«أنا هنا»، أجاب الضبع، وهو يضحك.

«لماذا تضحك؟» سأل اللقلق.

«كنت أفكر في أن العالم غريب»، أخبره الضبع. وأضاف «لقد جاء القديس إلى داخل كهفي لأنه يعتقد في السحر».

«أنا لا أفهم»، قال اللقلق.

«أنت مرتبك ومشوش. لكن يمكنك الآن على الأقل أن تصدق أنني مثل أي كائن آخر في العالم».

لم يجبه اللقلق على الفور. فقد شمّ رائحة العفونة الكريهة للضبع قريبة جدا منه. عندئذ قال متنهدا: «أنت على صواب، بالطبع. ليس هناك قوة فوق قوة الله».

«أنا سعيد»، قال الضبع، وهو يزفر أنفاسه في وجهه. وأردف الضبع يقول «أخيرا فهمت». وانقض بسرعة على رقبة اللقلق وأحدث فيها جرحا. خفق اللقلق وسقط على جانبه.

«أعطاني الله شيئا ما أفضل من السحر»، قال الضبع وهو يهمس. «أعطاني الله عقلا».

استلقى اللقلق ساكنا. حاول أن يقول مرة أخرى: «ليست هناك قوة فوق قوة الله». لكن منقاره انفتح فقط على اتساعه تقريبا في الظلام.

انصرف الضبع. «ستموت خلال دقائق»، قال وهو يلتفت إلى الوراء. «سأعود خلال عشرة أيام. وعندئذ ستكون جاهزا».

بعد عشرة أيام عاد الضبع إلى الكهف فوجد اللقلق حيث تركه. لم يجد للنمل من أثر. قال «حسن». والتهم ما شاء ثم غادر الكهف إلى صخرة كبيرة منبسطة في الخارج فوق مدخله.

ووقف هناك لفترة في ضوء القمر، ثم تقيأ.

أكل بعضا مما تقيأ وظلّ يتمرغ لفترة في ما تبقى من قيئه، وهو يدعكه بعمق في فروته. عندئذ شكر الله على العينين اللتين تستطيعان أن تريا الوادي في ضوء القمر، وعلى الأنف الذي في إمكانه أن يشم رائحة الجيفة في الريح. ظل يتقلب أكثر ثم لعق الصخرة من تحته. وبعد ذلك استلقى هناك فترة وهو يلهث. وبعد قليل نهض ومضى في طريقه مترنحا.

زمن الصداقة

كانت الصعاب تزداد تفاقما في كل سنة، منذ أن انتهت الحرب. منذ البداية، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم بوجود الحرب، فقد قررت الآنسة ويندلينج ألا تعيرها انتباها. في البداية لم تكن هناك سوى إشاعات هامسة عن الاعتقالات السرية، وكان الناس يقولون: «عدة آلاف من المسلمين قد أُرسلوا إلى السجن في فرنسا»، وبعد فترة قصيرة بدأ نفر من أصدقائها يختفون، مثل الشاب بشير وعمر بن الأخضر، وكذلك مدير مكتب البريد في تميمون، الذي اختفى ذات صباح، أو هذا ما أُخبرت به، لأنها عندما عادت في الشتاء التالي لم يكونوا موجودين ولم يكن من أثر لهم هناك، ولم ترهم بعد ذلك منذ تلك الفترة. كانت وجوه الناس يعتريها التجهم الصامت عندما كانت تحاول التحدث عنهم في الأمر. بعدما بدأت أعمال العنف بشكل جدي، وعلى الرغم من أن الوطنيين قد سببوا إخراج القطارات عن قضبانها وعطلوا خدمة النقل عبر الصحراء في مناسبات عدة، إلاّ أنه لايزال بالإمكان الوصول إلى ما وراء المنطقة المضطربة إلى حيث الواحة التي كانت تذهب إليها الآنسة ويندلينج. وهناك في الجنوب، حيث الواحة، كان القتال بعيدا جدا، وفي الصحراء الخالية التي كانت الساعات الطويلة تنقضي فيها ببطء جعلها تبدو أكثر امتدادا، تقريبا كما لو كانت هذه الساعات تنقضي في البحر. إذا افترض في أي وقت من الأوقات أن أصيب رجال هذه الواحة بفيروس السخط عن طريق الشمال البعيد - وكان

هذا غير متصــور من وجهة نظرها - عندئــذ وعلى الرغم من حقيقة أنها كانت على يقين من أن الحرب لن تعود عليهم بشـــيء ســـوى التعاسة، فإنها لم يكن بوســعها إلاّ أن تتمنى لهم النصر. فقد كانت أراضيهم وحدهم هي التي يقاتلون من أجلها، وحياتهم وحدهــم هي التي سيخســرونها للفوز بالقتــال. لكن الناس لم يكونوا يتكلمون عن الحرب حتى ذلك الوقت، فالحياة كانت شاقة بالنسبة إليهم لكنها كانت لاتزال هادئة. وكان كل فرد منهم يعلم بأنها مستمرة في الشمال، وكانوا سعداء جميعا لأن الحرب كانت بعيدة جدا عنهم.

في أثناء فصول الصيف، حيث كانت الآنســة ويندلينج تعمل بالتدريس في مدرسة فرلوفر في برن، كانت تسرّي عن تلاميذها بحكايات عن الحياة التي كان يحياها الناس في الصحراء الكبرى في أفريقيا. كانت تقول لهم إنه في القرية التي كانت تعيش فيها كان كل شــيء يُصنع بواســطة أهالي القرية أنفسهم مما كانت توفره لهم الصحراء، وإنهم كانوا يعيشــون في عالم من الأشياء التي كانت تصنع مما كانت تنضجه الأرض وتجود به، من ألياف العشـــب، وأشــجار النخيل وجلود الحيوانات. لم تكن هناك أي أشــياء مصنوعة من المعدن. على الرغم من أنها لم تعترف بهذا للأطفــال، فلم يعد هذا حقيقيا تماما، نظرا إلى أن النســاء في الوقت الحالي قد اعتدن استخدام صفائح الزيت الفارغة لحمل الماء، بدلا من قرب جلد الماعز، وذلك منذ ســنوات قليلة مضت. وكانت قد حاولت ثني صديقاتها من نسوة القرية عن هذا الابتكار، وقالت لهن إن العلب الصفيح يمكن أن تسمم الماء، وكن يوافقنها

الرأي، ويستمررن في استخدامها. «كن كسولات»، قررت، «فقد كانت علب الزيت أكثر سهولة للحمل بالنسبة إليهن».

عندما كانت الشمس تميل نحو الغروب والهواء المحمل برائحة دخان الخشب يرتفع بلسعته الباردة من الواحة في الأسفل إلى مستوى الفندق، كان بإمكانها أن تستنشقه داخل غرفتها فتتوقف عن أي شيء كانت تفعله. ثم ترتدي «بُرنسها» وتصعد السلالم إلى السطح. كانت تفرش البطانية هناك حيث تقوم بأخذ حمّام شمس كل صباح، وكانت تستلقي فوقها في مواجهة سماء الجهة الغربية، وهي تشعر بأن حرارة الشمس الغاربة لاتزال تحت جلدها بقوة. وكانت إحدى متع اليوم، أن تشاهد الضوء وهو يتغير في الواحة تحتها، عندما كان الغسق والدخان المنبعث من حرائق المساء يخفيان الوادي تدريجيا. دائما ما كانت تأتي لحظة يكون فيها كل ما تبقى من هذا عبارة عن شكل غير واضح، هندسي ودقيق، الطينية التي كانت تتألف منها القرية، وكتل بعينها من أشجار النخيل العالية التي كانت تقف منتصبة خارج مداخل القرية. ثم لا تعود البيوت نفسها موجودة بعد، وفي النهاية تختفي حتى قمم أشجار النخيل نفسها، وفي حالة وجود القمر كان كل ما يصبح بالإمكان رؤيته هو السماء المحتضرة، وأطراف الصخور الحادة في صحراء الحمادة، والفراغ المتسع والممتد للضباب الذي كان ينتشر فوق الوادي، لكنه لا يصل بعيدا إلى أعلى المنحدرات الصخرية حيث يوجد الفندق.

ربما مرتين كل شتاء كانت مجموعة من نساء القرية تقوم بدعوة الآنسة ويندلينج للذهاب معهن إلى أعلى حيث الأرض

الفسيحة الممتلئة بالكثبان الرملية بحثا عن الحطب. كان الوهج قاسيا بشكل دائم في هذا المكان. ولم يكن هناك من أثر حتى لغصن شجرة أو ساق نبات في أي مكان في الرمال، وعلى الرغم من ذلك فقد كان في مقدور النساء اللائي يتجولن على امتداد القمم عاريات الأقدام أن يحددن أماكن الجذور المطمورة أسفل السطح، وعندئذ كن يتوقفن، ويكشفن الرمال عنها ويستخرجنها. كن يقلن لها، «إن الريح تترك إشارة»، إلاّ أنها لم تكن متأكدة قط من قدرتها على التعرف على الإشارة، ولم يكن باستطاعتها أن تفهم كيف يمكن أن تكون هناك علاقة بين الجذور المطمورة في الرمال والريح التي في الهواء من فوقها. «ما افتقدناه نحن، لايزالون هم محتفظين به»، كانت تفكر.

كانت رؤيتها الأولى للصحراء وأهلها بمنزلة خبرة ذات شكل مغاير، وبالطبع، بدا لها الآن أنها قبل مجيئها إلى هنا لم تكن على اتصال بالحياة. كانت تؤمن بشكل كامل وثابت أن كل يوم كانت تقضيه هنا يزيد من إجمالي محصلة قدرتها على المقاومة. كانت تحسد المواطنين على الصحة السليمة وقوة البنيان، في الوقت الذي كانت فيه صحتها قوية بالقدر نفسه، لكن لأنها كانت ذات بشرة بيضاء وعلى قدر من التعليم، فقد كانت على اقتناع بالسليقة أن جسمها كان أقل صحة.

كان عمل الفندق كله يقوم به شخص ذو وجه هادئ حزين يدعى بوفيلجا. كان موجودا هناك عندما وصلت لأول مرة منذ عدة سنوات؛ وفي نظر الآنسة ويندلينج أصبح وجوده في الفندق كأنه جزء لا يتجزأ من المكان مثله مثل المنحدرات

الممتدة عبر الوادي. كانت تجلس دائما إلى طاولتها قرب المدفأة وتتناول الغداء ثم تلعب الورق مع نفسها، حتى تتوقف كتل الخشب المشتعلة عن بعث الحرارة في المكان. كان هناك جنديان فرنسيان صغيران جدا من الحصن المقابل يأكلان في حجرة الطعام بالفندق- ويحتسيان كمية كبيرة من الشراب، وكان من المزعج لها أن ترى وجهيهما وهما يتحولان ببطء إلى اللون الأحمر بينما كانا يجلسان هناك. في البداية كان الجنديان يخفضان قبعتيهما لها بينما يهمان بالخروج، وكانا يحاولان إمساك ضحكهما لأطول فترة ممكنة حتى ينتهيا من أن يقولا لها «صباح الخير يا سيدتي»(*)، لكنهما لم يعودا يفعلان هذا في الوقت الراهن. كانت تنتابها السعادة عندما يغادران، وتستمتع باللحظة قبل أن تخبو النار، بينما كانت تتأجج بفعل هبات الريح التي كانت تهب إلى أسفل من المدخنة العريضة.

كانت الريح تهب بشكل دائم تقريبا في فترات مبكرة من بعد الظهر، وتعصف بشكل دائم وقوي حتى أنها كانت تزمجر خلال الآلاف من أفرع أشجار النخيل في الواحة في الأسفل، وتصفر أسفل أبواب الفندق كلها، وتغطي على أصوات القرية الأكثر بعدا. في هذه الساعة كانت تلعب بالأوراق لعبة السوليتير، أو تجلس فقط لمشاهدة القطع الخشبية المحترقة وهي تتفتت إلى قطع أصغر أمام عينيها. وكانت تذهب بعد ذلك إلى الشرفة، ذلك المكان المرتفع والمضيء مثل ظهر سفينة عملاقة تبحر عبر الصحراء بعد الظهر، ثم تسرع عائدة إلى

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

غرفتها للحظة لتحضر سترتها وعصاها، وتشرع في السير. في بعـض الأحيان كانت تذهب باتجاه الجنوب بمحاذاة وادي النهر، على امتداد سفوح المنحدرات الصخرية الهادئة ثم خلال الأودية الملتوية، إلى قرية مهجورة شُـيدت في مكان شديد الحرارة في منعطف في الوادي الضيـق. كانت الجدران الصخرية العمودية خلـف القرية تعمل على إعادة الحرارة ثانيـة، لدرجة أن الهواء كان يلهب حلقها عندما كانت تتنفسه. أو كانت تمضي إلى مكان أكثر بعدا، حيث كانت توجد الكهوف المحفورة على جدرانها رموز أشكال حيوانية.

كانـت تعود من الطريق الذي يؤدي إلى القرية، والذي يتوغل عبر الظلال الخضراء في الجزء الكثيف من غابة أشجار النخيل، وكانت تدرك بشـكل منتظم وجود المجموعة نفسـها من الأولاد الذين كانوا يجلسـون فـي منعطف الطريق، فـي مكان تمضي فيه قبل أن تصعد مباشـرة إلـى أعلى التل حيث توجد المحلات والقرية. كانوا يجلسـون متربعين فوق الرمل تحت الأفرع الهشة لشجرة طرفاء(*) عملاقة، وهم يتكلمون في هدوء. وعندما كانت تصل إليهم كانـت تلقي عليهم التحية، ودائمـا ما كانوا يردون، ثم يظلون صامتين حتى تمر متجاوزة إياهم، وعندئذ يسـتأنفون حديثهم. كان بوسعها إلى حد ما أن تتبين أنه لم يكن في حديثهم أي ذكـر لها، ومع ذلك فقد بدا لها فـي بعض الأحيان في هذه السـنة أنه بمجـرد مرورها بهم، كانت درجـات أصواتهم تتغير بخبـث وكأنه كان يحدث تبدل في نبرات أصواتهم من مقام إلى

(*) الطرفاء: شجرة قريبة من الأثل [المترجم].

مقـــام، ومن نبرة إلـــى أخرى. هل كان موقفهـــم هذا يقترب من السخرية والاستهزاء؟ لم تكن تعرف، لكن نظرا إلى أن هذه كانت المرة الأولى على مدار الســنوات التي قضتها في الصحراء حيث لم تطرح الفكرة نفســها عليها من قبل، فقـــد أبعدتها بعزم عن ذهنها. «يتطلب الجيل الجديد تكنيكا جديدا إذا أراد المرء إقامة علاقة معهـــم»، فكرت. «ويجب عليّ أن أجد هذا التكنيك». ومع ذلك فقد كانت آســـفة لأنه لم تكن ثمة طريق أخرى للوصول إلى القرية إلاّ عبر هذه الطريق الرئيســـية التي كانوا يتجمعون فيها دائما، لدرجة أن التوتر الخفيف الذي كان ينجم عن اضطرارها إلى العبور من أمامهم كان يفسد عليها متعة السير.

أدركـــت في أحـــد الأيام بصدمـــة خجل خفي أنهـــا لم تكن تعرف حتى مـــا كانت عليه وجوه الأولاد. فقد كانت تراهم فقط كمجموعـــات من بعد؛ وعندما كانت تقتـــرب منهم بدرجة كافية لتحيتهـــم، كان رأســـها منكســـا دائما، تنظر إلـــى الطريق تحت قدميهـــا. حقيقة أنها كانـــت خائفة من أن تنظر إليهم كانت غير مبررة، وفي الوقت الراهن، عندما كانت تقترب منهم، كانت تحدق بعنايـــة في عيني كل منهم الواحد تلـــو الآخر. تومئ بالتحية في ارتبـــاك، ثم تواصل طريقها. نعـــم، كانت وجوههم وقحة، فكرت – لا تشبه وجوه الكبار على الإطلاق. وسمات الوقار التي ترتسم على وجوههـــم عندما يجفلون، كانت نوعـــا منحطا من التصنع والافتعال. لكن الشيء المهم بالنسبة إليها أنها قد فازت؛ ولم تعد مشـــغولة بعد الآن بمرورها اليومي بهم. وببطء تمكنت تدريجيا من التعرف على كل ولد منهم.

لاحظت أن هناك واحدا أصغر من الآخرين، وكان يجلس دائما بعيدا عنهم بعض الشيء، وكان هذا الولد الخجول هو الذي يقف في مطلع كل صباح يتحدث مع بوفيلجا في مطبخ الفندق عندما كانت تدخل. تظاهرت في ذلك اليوم بأنها لم تلاحظه في الفندق، وقالت لبوفيلجا: «أنا ذاهبة لأعمل على الآلة الكاتبة مدة ساعة تقريبا في غرفتي، وبعدئذ يمكنك أن تحضر لترتيب الغرفة». ثم استدارت لتخرج. وبينما كانت تجتاز المدخل ألقت بنظرة سريعة على وجه الولد. كان ينظر إليها، ولم يبعد وجهه عندما تلاقت أعينهما. «كيف حالك؟» قالت. بعد ذلك ربما بنصف ساعة، عندما كانت تكتب خطابها الثاني على الآلة الكاتبة، رفعت رأسها، كان الولد يقف هناك في الشرفة ينظر إليها عبر الباب المفتوح. كان يحدق فيها، ولأن الريح قوية؛ فقد كان بوسعها أن ترى قمم أشجار النخيل وهي تتمايل وتنحني خلف رأسه.

«إذا كان يرغب في مراقبتي، فلندعه يراقبني»، قالت لنفسها، وقررت ألا تعيره انتباهها. بعد فترة ذهب بعيدا. بينما كان بوفيلجا يقدم لها الغداء، سألته عن الولد. «مثل رجل عجوز»، قال بوفيلجا، «يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، لكنه شديد الجدية. مثل بعض الرجال، الرجال الكبار»، وابتسم، ثم هزّ كتفيه وأضاف: «إنها الطريقة التي أراده الله أن يكون عليها».

«بالطبع»، قالت. وتذكرت الوجه التعيس واليقظ للولد. «الكلب الصغير الذي ينبذه الجميع»، فكرت، «لكنه لا يستسلم».

في الأيام التالية، كان كثيرا ما يأتي إلى الشرفة ويقف يراقبها بينما كانت تطبع على الآلة الكاتبة. في بعض الأحيان كانت تلوّح لـه، أو تقول: «صباح الخير». ومن دون أن يجيبها يتراجع خطوة إلى الخلف، بحيث يصبح بعيدا عن مرمى بصرها. ثم يستمر في الوقوف حيث كان. أزعجها سلوكه، وفي أحد الأيام عندما فعل هذا، نهضت بسرعة وذهبت إلى الباب. «ماذا في الأمر؟»، سألته، محاولة الابتسام بينما كانت تتكلم.

«أنا لم أفعل شيئا»، قال، وكانت بعينيه نظرة عتاب.

«أعرف»، أجابت. «لماذا لا تأتي إلى الداخل؟»

نظر الولد بسرعة في الشرفة من حوله كأنه كان يطلب المساعدة، ثم خفض رأسه وخطا إلى داخل الباب. ووقف ينتظر هناك، ورأسه إلى أسفل، وقد بدا بائسا. أحضرت من بين أمتعتها حقيبة بها حلوى جافة، وأعطته واحدة منها. ثم وجهت إليه بضعة أسئلة، ووجدت أن لغته الفرنسية كانت أفضل بكثير مما كانت تتوقع. «هل يجيد الأولاد الآخرون الفرنسية مثلك؟» سألته.

«كلا، يا سيدتي»، قال، وهو يهزّ رأسه ببطء. كان والدي يعمل جنديا، والجنود يتحدثون الفرنسية بشكل جيد».

حاولت أن تبعد وجهها وتخفي تعبير الاستنكار الذي كانت تشعر به، لأنها كانت تزدري كل ما هو عسكري. «أفهم هذا»، قالت ببعض الحدة، ثم عادت إلى طاولتها وعمدت إلى تغيير الأوراق. «يجب عليّ أن أعمل الآن»، أخبرته بذلك، وأضافت على الفور في صوت أكثر دفئا، «لكن بإمكانك العودة في الغد،

إذا أحببت». ظل منتظرا لحظة، وهو ينظر إليها بلهفة شديدة. ثم ابتسم ببطء، ووضع غلاف قطعة الحلوى، وقد طواه على هيئة مربع صغير، فوق طرف طاولتها. «وداعا، يا سيدتي»، قال، وخرج من الباب. في الصمت المتسع كانت تسمع بصعوبة الصوت المكتوم لقدميه العاريتين فوق أرضية الشرفة. «في هذا الجو البارد»، فكرت. «يا للطفل المسكين! لو أنني سأقدم على شراء شيء له فسيكون صندلا».

كل يوم بعد ذلك، عندما كانت الشمس ترتفع بقدر كاف لإضفاء وجود على هواء الصباح الساكن، كان الشاب يأتي خلسة عبر الشرفة إلى بابها، ويظل واقفا عدة دقائق، ثم يقول بعد ذلك في صوت يفتقر إلى الثقة لدرجة أنه كان الصوت الأكثر انخفاضا وهدوءا وسط الصمت العظيم في الخارج: «صباح الخير، يا سيدتي»، وتدعوه هي إلى الدخول، ويتصافحان في ارتباك، وبعد ذلك يرفع الولد ظهر أصابعه إلى شفتيه، دائما بالبطء نفسه الذي في التعاملات الرسمية. في بعض الأحيان كانت تحاول أن تفهم تعبيره جيدا بينما كان يقوم بهذا الطقس، لترى إن كان بإمكانها أن تكتشف عن طريق المصادفة إن كانت فيه ظلال من السخرية؛ لكنها كانت ترى تعبيرات تدل على ولاء شديد الإقناع لدرجة أنه أفزعها، وكانت تنظر بعيدا على الفور. كانت تحتفظ دائما بقليل من الخبز أو بعض البسكويت في درج دولاب الملابس، وعندما كانت تُخرج الطعام ويتناوله الولد، كانت تسأله عن أخبار العائلات في حي القرية الذي يسكن فيه. وكانت لأجل ترسيخ الانضباط تعرض عليه قطعة واحدة فقط

من الحلوى ما بين يوم وآخر. كان الولد يجلس على الأرض عند المدخل، فوق بطانية قديمة بالية من وبر الجمل، وكان يراقبها بشكل مستمر، ولا يدير رأسه أبدا بعيدا عنها.

كانت ترغب في معرفة اسمه، لكنها كانت تعرف إلى أي مدى كان سكان المنطقة كتومين في ما يتعلق بالأسماء، وأنهم نادرا ما كانوا يبوحون بأسمائهم الحقيقية للأغراب، وكانت تحترم هذه الخصوصية لأنها كانت تعرف أن لها جذورها في دينهم الخاص الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ. لذا أحجمت عن سؤاله، وهي واثقة من أنه سيأتي الوقت الذي سيثق فيه بها بدرجة كافية لأن يقوله لها بمحض إرادته. وجاءت تلك اللحظة من دون توقع ذات نهار، بالضبط عندما كان يروي لها عدة أساطير متعلقة بأحد ملوك المسلمين العظام منذ عهد بعيد، والذي كان اسمه سليمان. فجأة توقف الشاب، وأجبر نفسه على أن يحدق فيها بثبات من دون أن يطرف له جفن، ثم قال: «أنا أيضا اسمي سليمان، نفس اسم الملك».

حاولت تعليمه القراءة، لكنه لم يبد قادرا على التعلم. في أحيان كثيرة، عندما كانت تشعر بأنه على وشك أن يربط بين جزأين غير مكتملين من الأفكار والعبارات، الأمر الذي كان سيمكنه في النهاية من استيعاب القاعدة الأساسية، كانت تبدو على وجهه نظرة استسلام وسلبية، ويقطع عن عمد محاولة التدفق من منابعها، ويظل جالسا، وهو يحدق فيها فقط، ويهز رأسه من جانب إلى آخر، ليبين لها أن هذا كان غير ذي جدوى. وفي تلك اللحظات كان من الصعب ألاّ ينفد صبرها معه.

قررت في السنة التالية ألاّ تستمر في الدروس، وأن تستخدم سليمان بدلا من ذلك كمرشد، أو حمال، أو مرافق لها، أو أي دور كانــت ترى على الفور أنه أكثر ملاءمـــة لطبيعته منه كتلميذ. لم يكن يمانع مهما كانت المسافة التي سيمشيانها أو كم التجهيزات التي كان عليه أن يحملها، بل على العكس، كانت الرحلة الطويلة بالنسبة إليه تمثل ما يفوق الحدث، وأي شيء كانت تجعله يحمله كان يحمله بمظهر الرجل الذي تم تكريمه ومنحه جائزة. ربما كان هذا الفصل من أسعد الفصول التي قضتها الآنسة ويندلينج في الصحراء، شـتاء الصداقة حيث قاما فيه معا برحلات لا حصر لها إلى أســفل الوادي. بينما كانت الأسابيع تمر كانت الرحلات تتزايد فرصتها، وكانت ســاعة الرحيل تتقدم أكثر فأكثر إلى أن جاءت فعلا عقب انتهائها من تناول وجبة الإفطار مباشرة. على مدار اليوم، وبينما كانا مجهدين من السير في الشمس الساطعة المباشـــرة وفي الظل العارض لأطراف أشـــجار النخيل المتكسرة التي تتاخم مجـــرى النهر، ظلت تتحدث إليـــه بحرارة عاطفية. في بعض الأحيان كان بإمكانها أن ترى أنه كان يشـــعر وكأنه كان يطلعها في اطمئنان على ما يدور في رأسه، وكانت تسمح له بأن يتحدث ما دام حماسه مستمرا ومتواصلا، وكثيرا ما كانت تنعشه وتجدده عندما يخبو في النهاية بأســئلة مختارة بعناية. لكن في العـــادة كانت هي التي تتحدث بالفعل في أكثر المرات بينما كانت تمشي خلفه. وهي تدق الأرض الحجرية بعصاها المصنوع طرفها مـــن الصلب مع كل مرة كانت تطأ الأرض بقدمها اليمنى، راحت تخبره بتفصيل شـــديد بقصة حياة هتلـــر، موضحة له لماذا كان

مكروها من جانب المسيحيين، وقد اعتقدت أن هذا كان ضروريا لأن سليمان كان لديه انطباع مختلف، وأنه كان يتصور بالطبع أن الأوروبيين كانوا يحترمون ويقدرون إلى حد بعيد هذا الزعيم الذي اختفى نهائيا عن الأنظار، وأن سليمان وبقية الناس من أهل القرية كانوا يعتقدون هذا عن الأوروبيين. كما أنها تحدثت كثيرا عن سويسرا، وكانت تؤكد في كلامها من دون قصد على النظافة والصدق والأمانة والصحة الجيدة لأهل بلدها في شكل حكايات قصيرة من صميم الحياة اليومية. أخبرته عن السيد المسيح، ومارتن لوثر، وغريبالدي.

كانت قد حافظت منذ فترة طويلة على الوعد الأول الذي كانت قد قطعته على نفسها بأن تشتري له صندلا، وهذا الشراء تلته عدة شراءات أخرى، فعلى فترات منتظمة نوعا ما كانت تأخذه إلى محل «بن عيسى» لشراء قميص، وبنطلون قطني أسود فضفاض من النوع الذي يرتديه قائدو جمال التشامبا، وأخيرا برنس جديد أبيض، على الرغم من أنها كانت تعرف أن القرية بأكملها سوف تتحدث عن أمر هذه الهدايا الثمينة جدا التي أعطته إياها. وكانت تعرف أيضا أن هذه الهدايا الممنوحة بشكل متكرر هي التي كانت تجعل والد سليمان لا يمنعه عن قضاء الوقت معها. وعلى الرغم من ذلك، وفقا لما كان يرويه سليمان، فقد كان والده يعترض في بعض الأحيان. لكنها كانت واثقة من أن سليمان نفسه لم يكن يرغب في شيء، ولا ينتظر شيئا منها.

كل سنة عندما كان يقترب شهر مارس من نهايته تبدأ الحرارة في الاشتداد طوال النهار بشكل مؤلم وحتى الليالي

كانت تصبح خالية من النسيم؛ بعد ذلك، على الرغم من أنها دائما ما تتطلب مجهودا شاقا من الإرادة لتجعل الآنسة نفسها قادرة على الخطوة التي سوف توفر لها اتصالا من جديد مع العالم الخارجي، كانت تخصص يومين أو ثلاثة لغسل ملابسها والاستعداد للسفر. عندما كان يحين الأسبوع المحدد لمغادرتها، كانت تذهب إلى الحصن وتتصل بالمقهى في كيرزاز، وتطلب إلى صاحبه أن يخبر سائق الشاحنة التالية المتجهة إلى الشمال أن يأخذ الطريق الجانبية الفرعية التي تتيح لها أن تستقل هذه الشاحنة في مكان يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن القرية.

عندما عادت هي وسليمان إلى الفندق في فترة ما بعد الظهر من رحلتهما الأخيرة القصيرة إلى أسفل الوادي، كانت الآنسة ويندلينج واقفة في الشرفة تتطلع إلى جبال الرمل البرتقالية خلف الحصن. كان سليمان قد أحضر العلب إلى داخل الغرفة ووضعها على الأرض. استدارت وقالت: «احضر الصندوق الصفيح الكبير». وعندما سحب الصندوق وأخرجه من تحت السرير حمله إليها، وهو يمسح عنه الغبار بكمّ قميصه، تقدمته وصعدت السلالم إلى السطح، وجلسا معا فوق البطانية، وكان وهج الشمس الغاربة يلهب وجهيهما. كانت عدة ذبابات لاتزال تحلق في الهواء، ومن وقت إلى آخر كانت تهاجم رقبتيهما. أعطاها سليمان علبة البسكويت الصفيح وأعطته هي حفنة من الكعك المغطى بالشيكولاتة. «الكثير ودفعة واحدة؟»

«نعم»، قالت، «أنت تعرف أنني سأعود إلى بلدي في غضون أربعة أيام».

خفض رأسه وراح ينظر إلى البطانية لحظة قبل أن يتمتم مجيبا: «أعرف». وصمت مرة ثانية. كان يشتكي بشكل فيه إحساس بالاضطهاد قائلا: «يقول بوفيلجا إن الجو حار هنا في فصل الصيف. إنه ليس حارا! إنه لطيف في بيتنا. إنه يشبه الواحة حيث توجد البركة الكبيرة. ولن تشعري بالحر أبدا هناك».

«يجب عليّ أن أكسب بعض المال، أنت تعرف، فأنا أريد أن أعود في العام المقبل».

قال بحزن: «العام المقبل، يا سيدتي! لا يعرف ما سيحدث في العام المقبل إلاّ مولانا».

كانت بعض الجمال تزمجر بينما كانت تتمايل فوق الرمل أسفل الحصن، وكان الضوء يتراجع بسرعة. «كل بسكويتاتك»، قالت له، وأكلت هي بسكويتها «في العام المقبل سوف نذهب إلى العبادلة بصحبة القائد إن شاء الله»(*).

تنهد بعمق وقال: «آه، نعم يا سيدتي». لاحظت في البداية غصة التعاطف ثم بعد ذلك، وبعدما أعادت النظر، باستنكار، العذاب الذي أضفى على صوته حدة غير معتادة. كانت سجيته المتألمة هي أقل ما كانت تحبه فيه، هذا الإشفاق المسرحي الباهت على الذات. «سوف تصبح رجلا في العام المقبل»، قالت بثبات وحزم. كان صوتها قد أضحى أقل يقينا، وكان محملا بنبرة افتراض متفائلة: «هل ستتذكر كل الأشياء التي تحدثنا عنها؟»

أرسلت له بطاقة بريدية من مارسيليا، وأطلعت تلاميذ فصلها

(*) وردت بالعربية [المترجم].

على الصور الفوتوغرافية التي التقطها أحدهما للآخر، والصور الخاصة بالقائد. كان الأطفال منبهرين بعمامة القائد الضخمة، «هل هو بدوي؟» سأل أحدهم.

عندما غادرت مكتب السفارة الفرنسية كانت تعرف أن هذه كانت السنة الأخيرة التي ستعود فيها إلى الصحراء. لم يكن فقط العداء الرسمي من جانب الموظف المسؤول أو الارتياب المعبر عنه بشكل سافر: بل كانت هذه هي المرة الوحيدة التي جعلها فيها تجيب عن قائمة من الأسئلة التي وجدتها مفزعة. فقد أراد أن يعرف أي موضوعات تدرِّسها في مدرسة فرلوفر، وإن كانت قد عملت من قبل كصحافية، وعلى وجه التحديد في أي مكان من المفترض أن تقضي يومها بعد وصولها إلى الصحراء. ردت عليه بشكل استفزازي حاسم وسريع قائلة: «أذهب إلى حيث أشعر بالرغبة في الذهاب. لا أضع خططا». لكنها أتت بالكاد على ذكر اسم الواحة. كانت تعرف أن الرجال الفرنسيين لم يكونوا يكنون أي احترام للسيدات السويسريات الكبار في السن اللائي يلبسن الجوارب الصوفية؛ فكان هذا يجعلهم ببساطة أكثر خسة في نظرها. ومع ذلك، فقد كانوا هم من يتحكمون في الصحراء.

كان اليوم الذي دخلت فيه السفينة إلى الميناء الغربي لأفريقيا يوما ماطرا. كانت تعرف أن طرقات المدينة الرمادية المنحدرة المزودة بشرفات كانت هناك في الظلام في المقدمة، إلاّ أنها كانت غير مرئية. كانت الملابس الأوروبية البالية لعمال رصيف الميناء مشبعة بمياه الأمطار. في ما بعد، بدت لها المدينة المبتلة عن آخرها بمياه المطر غريبة ومزعجة، وبدا الناس الذين يمرون

على امتداد الشوارع غير سعداء. كان التغيير، حتى عن السنة الماضية، ضخما، وقد جعلها الذهاب والجلوس في مقهى كبير واسع وبارد، حيث كانت ترغب في تناول القهوة عقب العشاء، تشعر بالحزن، ولذا عادت إلى الفندق الذي كانت تنزل فيه ونامت. في اليوم التالي استقلت القطار إلى «بريجوكس». ظل المطر يسقط معظم اليوم. وفي بريجوكس استأجرت غرفة في أحد الفنادق قرب المحطة، ولم تبرحها، وهي تنصت إلى صوت قعقعة المطر في أحد المزاريب أسفل نافذتها. «سيكون هذا المكان نموذجا مثاليا للجحيم»، هذا ما كتبته في تلك الليلة إلى صديقة لها في بازل قبل أن تذهب لتنام. «مثال كامل للتفسخ الاجتماعي تم تحقيقه عن طريق فرض التهجين الثقافي. تم إفساد العامة والحط من قدرتهم وخلق عداوات عن طريق استغلال الأجيال بطريقة لا رحمة فيها. سأستقل قطار السكة الحديد الضيقة الصغير المتجه إلى الجنوب غدا صباحا إلى حيث الأرض الأكثر سعادة، وأنا واثقة من أن صديقتي الشمس ستطلع في بعض الأوقات أثناء اليوم، تحياتي القلبية وسلامي إلى العزيزة ماريا».

بينما كان القطار يزحف متقدمًا صوب الجنوب، إلى أعلى أرض الهضبة الواسعة المرتفعة، كانت السحب تختص وقد بسطت الشمس سطوتها على الريف. كانت الآنسة ويندلينج تجلس بانتباه بجانب نافذة متسخة، وهي تشعر بالحزن المتزايد يغلفها. طوال الفترة التي كان المطر يسقط فيها، كانت تتصور أن المطر من بين أسباب اكتئابها، فقد كان ضوء السحاب الرمادي

يضفي معنى غير مألوف على المنظر عن طريق تغييره للأشكال والمسافات. وقد اســتوعبت الآن أن معالم وتضاريس الصحراء الأكثر ألفة وتمييزا كانت على وشك ألا تصبح أكثر إدراكا ووعيا من جانبها؛ لا لسبب سوى أن هذه كانت آخر زيارة لها.

بعد يومين، عندما توقفت الشــاحنة لإنزالهــا، كان بوفيلجا واقفا في الشــمس بجانب إحدى الصخور وهــو يلوّح لها، وكان معه أحد الرجال من القرية لمســاعدته في حمل الأمتعة. بمجرد انطلاق الشــاحنة وتلاشي ســحابة الغبار الأصفر التي خلفتها عبر صحراء الحمــادة، كان هناك صمت، ولم يبد أن ثمة صوتا بإمكانه أن يغطي على صوت أحذيتهم وهي تسحق الأرض.

«كيف حال سليمان؟» ســألته. كان بوفيلجا غير محدد وغير واضح في إجابته. «إنه بخير»، قال، وأضاف، «يقولون إنه حاول الهــرب. لكنه لم يصل إلى مكان بعيد جدا». قد تكون الإشــاعة حقيقيــة، وربما تكون غير صحيحة؛ على أي حال فقد قررت ألاّ تأتي على ذكرها إلاّ إذا ذكرها سليمان بنفسه أولا.

كانت تشــعر براحــة غير عاديــة عندما اقتربــوا من حافة المنحــدرات الصخرية وتمكنت من رؤية القرية عبر الوادي، لكن ليــس قبل أن قامت بجولات في البيوت حيث يعيش أصدقاؤها، لتناقش معهم مشــكلاتهم وتترك بعض الحبوب وأقراص الدواء الدوائية هنا وبعض والحلوى هناك، حتى اقتنعت بأنه لم يحدث تغييــر مهم فــي الواحة في أثناء غيابها. ذهبــت إلى بيت عائلة سليمان، ولم يكن سليمان موجودا هناك. «قل له أن يأتي ليراني»، قالت لوالده، بينما كانت تغادر البيت.

في صباح اليوم الثالث لوصولها ظهر سليمان، وظلّ واقفا هناك في المدخل وهو يبتسم. وبمجرد أن حيته أجلسته وجعلته يتناول القهوة معها، وأخذت تمطره بوابل من الأسئلة عن الحياة في القرية في أثناء فترة وجودها في أوروبا. أخبرها سليمان أن بعضا من أصدقائه قد ذهبوا ليصبحوا من الوطنيين، وأنهم يقتلون الفرنسيين مثل الذباب. تحطم قلبها لما سمعته لكنها لم تقل شيئا. بينما كانت تراقبه وهو يبتسم، كانت مبتهجة بشدة لفكرة أن سليمان كان منفتحا ويسهل الوصول إلى أعماقه، وعلى الرغم من كل شيء، كان بإمكانها أن تثبت أن بالإمكان تكوين أصدقاء حقيقيين صادقين ممن هم أصغر سنا. لكن بينما كانت تقول له: «كم أنا سعيدة لرؤيتك، يا سليمان»، تذكرت أن وقتهما معا أصبح محدودا، فاعترى وجهها تعبير من الألم بينما كانت تختم عبارتها. «يجب عليّ ألاّ أنطق له بكلمة عن هذا الموضوع»، قررت. فإذا ظل سليمان، على الأقل، يعيش في الوهم غير المحدد عن الزمن الممتد في المستقبل، فسوف يحتفظ بطريقة ما بهالة البراءة والنقاء التي له، وسوف تشعر هي بعذاب أقل في أثناء الوقت الذي يقضيانه معا.

نزلا معا في أحد الأيام إلى الوادي لرؤية القائد، ومناقشته في مخطط الرحلة الطويلة إلى العبادلة. وفي اليوم التالي عند الفجر انطلقا لزيارة ضريح مولاي «علي بن سعيد». حيث كان هناك ينبوع ماء ساخن. كان المكان عبارة عن واحة صغيرة على مشارف قمة كثيب من الكثبان الرملية، وكان هناك ما يقرب من خمسين نخلة حول المقام المتهدم. وهناك في ظلال الصخور

أسـفل الحوائط الصخرية كان هناك صهريج متهدم يتدفق الماء الفائر فيه. فرشا البطاطين فوق الرمل في مكان مجاور للضريح، أسـفل شجرة طرفاء صغيرة، وتناولا غداءهما. وقبل أن يشرعا في الأكل، شـربا حفنات قليلة من الماء، الذي قال عنه سـليمان إنه معروف بقداسته. كان سعف النخيل يصدر أصوات خشخشة وهسيس في الريح فوق رأسيهما.

«أرسل الله الريح لأجلنا كي تجعلنا نشعر بالبرودة بينما نأكل»، قال سليمان عندما انتهى من تناول تمراته.

«كانت الريح هنا بشـكل دائم»، ردت هي بلا مبالاة، «وستكون هنا دائما».

وهـي تراقب سـليمان وهو يقف في الجانـب من الصهريج الخرب ويتخذ المظهر التقليدي لشـخص على وشـك أن تلتقط له صورة، خطرت في رأسـها فكرة. سـوف تقوم لأجل ليلة عيد الميلاد المجيد، والتي سـتحل في غضون الأسـبوعين القادمين، بعمل منظر لميلاد المسيح. وسوف تدعو سليمان ليأكل معها وهما جالسـان بجانب المدفـأة، وعندما ينتصف الليل سـوف تأخذه وتريها له.

بعدما انتهت من تصوير سليمان، لملما أغراضهما ورحلا في الاتجاه المعاكس لريح بعد الظهيرة السـاخنة صوب القرية. في بعض الأحيان كان الرمل يندفع بقوة، ويلسـع وجهيهما بأهدابه الدقيقة غير المرئية. كانت الآنسـة ويندلينج تتقدم المسـيرة في هـذه المرة، وكانا يسـيران بسـرعة. كانت صـورة منظر لميلاد المسـيح، المضاءة بواسطة الشـموع، قد خطرت لها عدة مرات

وهـــي في طريـــق عودتها فوق الصخور المتراميـــة في الصحراء الرملية الواسعة، وجعلتها تشـــعر بحزن يفوق الوصف، لأنها لن تتمكـــن من ربـــط هذا بحقيقة أن كل شـــيء كان في طريقه إلى الانتهاء. وصلا إلى بقعة في شـــمال القرية حيث كانت الصحراء الصخريـــة المترامية الأطراف يقطعها من طـــرف إلى آخر نهر الوادي المتدفق. عندما تسلقا ببطء إلى أعلى قمة الرمل الناعم، وجدت نفســـها تهمس: «إن هذا هو الشيء الصائب الذي يتعين القيام به». وفكرت، «صائب، ليست الكلمة المناسبة»، ولم تستطع أن تجد كلمة أحســـن منها. كانت ستقدم على عمل لوحة ميلاد المســـيح لأنها كانت تحب ليلة الميلاد، ولأنها أرادت أن يشـــاركها سليمان هذه الليلة. وصلا إلى الفندق بعد الغروب بوقت قصير، وقامت بإرســـال سليمان إلى بيته لكي تجلس لتخطط مشروعها على الورق.

أدركت فقط عندما شـــرعت بالفعل في وضع تصميم منظر الميلاد مقدار العمل الذي ســـوف يتعين بذله. في وقت مبكر من صباح اليوم التالـــي طلبت من بوفيلجا أن يعثر لها على صندوق خشبي قديم. وقبل أن يمر نصف ساعة على انهماكها في العمل، ســـمعت صوت ســـليمان يتحدث في المطبخ، فدفعت بسرعة كل شيء تحت السرير وخرجت إلى الشرفة.

«ســـليمان، أنا مشـــغولة جدا، تعال بعد الظهر»، قالت، وبعد ظهر ذلك اليوم قالت له إنه نظرا إلى أنها ســـتصبح مشغولة في كل صبـــاح حتى إلـــى ما بعد يوم الاحتفال بميلاد يســـوع الابن، فإنهما لـــن يتمكنا من القيام بأي مشـــاوير طويلة في أثناء تلك

الفترة. تلقى سليمان الخبر بتجهم، وقال: «أعرف. أنت تستعدين لليوم المقدس. أنا أفهم هذا».

«عندما يجيء اليوم المقدس، سنعمل وليمة».

«إذا أراد الله»، قال.

«أنا آسفة»، قالت وهي تبتسم.

هزّ سليمان كتفيه وقال لها «إلى اللقاء إذن».

كانا لا يزالان يسيران بعد كل ظهيرة في الواحة أو يتناولان الشاي على السطح، لكن فترات الصباح كانت تقضيها في غرفتها تقوم بأعمال الخياطة، والدق والنحت. بمجرد انتهائها من بناء المنصة الخشبية، كان عليها أن تعمد إلى تشكيل الشخصيات. أحضرت كتلة كبيرة من طمي النهر إلى غرفتها. وتمكنت في غضون يومين من تنفيذ تمثال العذراء الذي سرها شكله النهائي. ومن قطعة قماش صغيرة من الموسلين شكلت خيمة متقنة لإيواء الأم والطفل في عش من ريش الدجاج الأبيض الصغير، وشقت بشكل طولي بعض أوراق إبرية من شجرة طرفاء مهملة وصنعت منها سجادة جيدة لتضعها داخل الخيمة. ثم سكبت الرمل خارج الخيمة وغرست فيه بعمق أرجل الجمال الطويلة، كان أحد الجمال يسير خلف الآخر فوق أحد الكثبان، وكان يجلس فوق كل واحد منها بشكل مستقيم رجل ماجوس يرتدي جلبابا أبيض تتدلى أطرافه الطويلة المدببة على جانبي الجمل. سيأتي الرجال الماجوس(*) محملين بأجولة اللوز وشيكولاتة الليكوير الصغيرة جدا والملفوفة في الورق الفضي الملون. عندما انتهت من تنفيذ

(*) إشارة إلى الماجوس الثلاثة الذين قادتهم النجمة التي ظهرت في الشرق إلى مهد يسوع في بيت لحم [المترجم].

لوحة الميلاد، وضعتها علـــى الأرض في منتصف الغرفة ورصت أكوام اليوســـفي والتمر أمامها، بالإضافة إلى صف من الشموع خلفها، وشـــمعة واحدة على كل جانب في المقدمة منها، ســـوف تبدو مثل لوحة دينية إسلامية ملونة مطبوعة حجريا. كانت تأمل أن يكون المنظر مميزا بالنســـبة إلى سليمان، فعندئذ من الممكن أن يقتنع بسهولة أكثر بالحقيقة الشاعرية للمشهد. أرادت فقط أن توحـــي له بأن الله الذي كان ســـليمان مرتبطـــا معه بعلاقة حميمة هو نفســـه الإله الذي يعبده النصـــارى. ولم تكن لتحاول أبدا أن تعبر له عن هذه الفكرة عن طريق الكلمات.

ستكون هناك مفاجأة إضافية في هذه الأمسية وهي الفلاش الجديـــد الملحق بكاميرتها، والذي لم يكن ســـليمان قد رآه حتى تلـــك اللحظة. اعتزمت أن تلتقط الكثير من الصور لمنظر الميلاد ولســـليمان وهـــو ينظر إليها، وســـوف تكبِّر هذه الصـــور لتريها لتلاميذها. كما ذهبت واشـــترت عمامة جديدة لســـليمان، لأنه حتـــى الوقت الراهن ولما يزيد على ســـنة لم يكن يرتدي عمامة. وكانت هذه العمامة لرجل بالغ، وكانت رائعة جدا: عشـــرة أمتار من أنعم الأقطان المصرية.

في اليوم الذي ســـبق يوم عيد الميلاد ظلت الآنســـة ويندلينج مستغرقة في النوم، فقد خدعتها السماء الملبدة بالغيوم. في كل شتاء كانت تمر على الواحة بضعة أيام مظلمة، وكانت تلك الأيام نادرة، لكن هذا اليوم كان أحدها. بينما كانت لاتزال مستلقية في السرير، سمعت هدير الريح، وعندما نهضت لتطل من النافذة لم تجد أثرا للعالم في الخارج - لا يوجد سوى ضباب وردي رمادي

خافت كان يخفي أو يطمس معالم كل شــيء. وكان الرمل المدوم يترذذ في موجات بلا توقف أمام الزجاج، وقد اتخذ شــكل كتل رملية على أرضية الشرفة. عندما ذهبت لتناول إفطارها، كانت ترتدي برنســها وتضع قلنســوته حول وجهها. كان صوت الريح العاصف عندما خرجت إلى الشــرفة قد أصابها بأثر اصطدام ناتج عن شــيء صلب، وكان الرمــل يصدر صريرا على الأرضية الخرسانية تحت حذائها. كان بوفيلجا قد أحكم إغلاق الضلفات الخشــبية في حجرة الطعام، قام بتحيتها بطريقة حماســية من داخل الحجرة المظلمة، وكان سعيدا بوجودها هناك.

«يوم سيئ جدا لاحتفالك، للأسف، يا آنسة»، أبدى ملاحظته بينما كان يضع إبريق القهوة على المائدة.

«الاحتفال غدا»، قالت، «إنه يبدأ الليلة».

«أعــرف. أعــرف». كان نافد الصبــر في ما يتعلــق بولائم واحتفالات النصارى لأن الســاعات التي تبدأ فيها وتنتهي كانت تؤدى مراســمها بطريقة غير متقنة بالمرة. أعياد المسلمين تبدأ في وقت محدد، إمّا في وقت الغروب أو قبل الشــروق بســاعة، أو عندما يظهر الهلال لأول مرة بشكل واضح في الجهة الغربية من الســماء في الشــفق. لكن النصارى يبــدأون أعيادهم متى شعروا بأنه يجب عليهم بدؤها.

قضت فترة الصباح في غرفتها تكتب خطابات. وعند الظهر كان الجو في الخارج أكثر قتامة ولا يزال محملا بالرمال، وكانت الريح تهزّ قمم الفندق فوق صخرته المقام عليها كما لو أنها سوف تطــوح به من فوق قمم أشــجار النخيل التي تحته إلى حيث قاع

النهر. نهضت عدة مرات وذهبت إلى النافذة لتحدق في الخارج حيث الفراغ القرنفلي خلف الشرفة. كانت العواصف تجعلها تشعر بالسعادة، وعلى الرغم من ذلك تمنت لو أن هذه العاصفة كان بإمكانها المجيء بعد عيد الميلاد. كانت قد تخيلت ليلة صحراوية صافية - باردة، تسطع فيها النجوم، وتنبح الكلاب من الواحة. حتى الآن قد تكون هذه هي تلك الليلة الجميلة، فلايزال هناك متسع من الوقت، فكرت، بينما كانت ترتدي برنسها من فوق رأسها لتذهب لتناول الغداء.

كانت المدفأة، بسبب الرياح، نعمة غير أكيدة، فإضافة إلى الحرارة التي كانت تبعثها، وإلى أنها كانت المصدر الوحيد للضوء في حجرة الطعام، إلاّ أن الدخان الذي كانت تبعثه بقوة كان يلسع عيني الآنسة وحلقها. كانت الضلفات الخشبية تقعقع وهي ترتطم بالنوافذ وتقرعها بعنف مرارا وتكرارا، وقد غطى صوتها على صوت الريح نفسها.

خرجت الآنسة ويندلينج على الفور من حجرة الطعام بمجرد انتهائها من الأكل، وأسرعت عائدة إلى غرفتها وجلست في ظلمة بعد الظهر التي كانت تنقضي ببطء، بينما كانت مستمرة في كتابة خطاباتها وهي تنتظر أن يخبو ضوء النهار تماما، كان سليمان سيأتي في تمام الساعة الثامنة. سيكون هناك متسع من الوقت يكفي لحمل كل شيء إلى حجرة الطعام قبل أن يحضر، وكذلك لإنارة لوحة الميلاد في الجزء البعيد المظلم غير المستغل فيها والذي كان من المستبعد أن يذهب إليه بوفيلجا، لكن عندما همت بأن تفعل هذا، وجدت أن الريح كانت أقوى بكثير مما

تخيلت. كررت الرحلة بين الغرفة وحجرة الطعام مرارا وتكرارا، وهي تحمل كل قطعة من اللوحة ملفوفة بعناية في برنسها. وفي كل مرة كانت تمر أمام المطبخ كانت تتوقع أن يفتح بوفيلجا الباب ويكتشف أمرها. ولم تكن راغبة في أن يكون بوفيلجا موجودا هناك عندما تطلع سليمان على لوحة الميلاد، بإمكانه أن يراها في صباح اليوم التالي عند الإفطار.

نجحت الآنسة ويندلينج، محتمية بضوضاء العاصفة، في نقل جميع القطع إلى الركن البعيد المظلم في حجرة الطعام من دون أن ينتبه بوفيلجا. قبل العشاء بفترة طويلة كانت لوحة الميلاد على أتم الاستعداد، لا ينقصها سوى إشعال الشموع كي تصبح حية ومتوهجة تماما. تركت علبة أعواد الثقاب على المائدة بجانب اللوحة، وأسرعت عائدة إلى غرفتها لترتيب شعرها وتغيير ملابسها. كان الرمل قد تسلل مخترقا ملابسها وأصبح الآن في كل مكان، بل وتسلل إلى أسفل ملابسها الداخلية مباشرة والتصق بجلدها مثل السكر. كانت ساعتها تشير إلى ما بعد الثامنة بعدة دقائق عندما مضت إلى خارج غرفتها.

لم يكن هناك سوى مكان مخصص لشخص واحد على المائدة. انتظرت، بينما كانت الضلفات الخشبية ترتج وتلتصق بالجدار، حتى ظهر بوفيلجا حاملا سلطانية الحساء.

«يا لها من ليلة سيئة»، قال.

«لقد نسيت أن تجهز مكانا لسليمان»، قالت له. إلاّ أنه لم يعرها انتباهه، وصاح بصوت عال «إنه غبي!» وبدأ في صب الحساء.

«انتظــر!» صاحت، «ســليمان آت، ويجب علــيّ ألا آكل حتى يجيء».

لايزال بوفيلجا غير متفهم. «أراد أن يدخل إلى حجرة الطعام، وهو يعرف أن هذا ممنوع في وقت تناول العشاء»، قال.

«لكنني دعوته!»، قالت وهي تنظر إلى طبق الحســاء الوحيد الموضوع على المائدة، ثم أكملت قائلة: «قل له أن يدخل، وأعد له طبقا آخر».

كان بوفيلجا صامتا. وقام بوضع المغرفة في السلطانية، «أين هو؟» ســألته، ومن دون أن تنتظر منه إجابة واصلت قائلة: «ألم أخبرك أنه كان سيتناول عشاءه معي الليلة؟» ثم ارتابت فجأة في أن تكون رغبتها الســرية قد جعلتها تهمل إخبار بوفيلجا بدعوة سليمان.

«إنك لم تخبريني بأي شــيء»، قال لهــا وأردف: «ليس لدي علم، لقد أرسلته إلى بيته، لكنه سيعود بعد العشاء».

«آه، بوفيلجا!» صاحت، «أنت تعرف أن سليمان لا يكذب أبدا».

خفض بصره ونظــر إلى وجهها بنوع من اللوم. «أنا لا أعرف شــيئا عن خطط الآنســة»، قال في حزن. وجعلهــا هذا تعتقد، لحظة خاطفة، أنه قد اكتشف أمر لوحة الميلاد، لكنها قررت أنه لو كان يعرف شيئا لكان قد تكلم من دون ريب.

«نعــم. نعم. أعــرف. كان يجب عليّ أن أخبــرك، إنه خطئي أنا».

«هذا صحيح، يا آنســة»، قال. لاحظت الآنسة ويندلينج وهو يقــدم لها بقية أصناف الطعام الصمــت الوقور الذي كان عليه،

إلاّ أنها وهي لاتزال تشـعر ببعض الاسـتياء منه، لم تحثه على أن يقطـع هذا الصمت. فقط عند نهايـة الوجبة، عندما دفعت كرسـيها إلى الخلف بعيدا عن المائدة وجلسـت تتعم النظر في أشـكال اللهب في المدفأة، قرر بوفيلجا أن يتكلم، «هل ستتناول الآنسة القهوة؟».

«أرغب في تناول القليل»، قالت، وهي تحاول أن تجعل صوتها محملا بنبرة حماسـية، «حسـنا»(*)، تمتم بوفيلجا، وتركها في الحجـرة بمفردها. وعندما عـاد بوفيلجا حامـلا القهوة، كان سليمان في صحبته، ولاحظت الآنسة أنهما كانا يضحكان، وكأنه ليس هناك سـوء تفاهم بشـأن موضوع العشـاء. وقف سليمان لحظة عند الباب، وهو يـدق الأرض بقدميه وينفض الرمل عن برنسـه. وعندما تقـدم كي يأخذ يدها، صرخـت قائلة: «آه، يا سـليمان، إنه خطئي أنا، لقد نسـيت أن أخبر بوفيلجا. إن هذا فظيع!»

«ليس هناك خطأ، يا سيدتي، فهذا احتفال»، قال سليمان في رصانة ووقار.

«نعـم، هذا احتفال»، قالت مـرددة، «ولا تزال الريح تعصف. انصت!»

لم يشرب سليمان القهوة، ولكن بوفيلجا شرب بناء على ضغط منهـا، تركها تصب له فنجانا، وشـربه وهو واقف قرب المدفأة. شـكت الآنسـة ويندلينج في أن يكون مسـرورا بشكل خفي لأن سليمان لم يتمكن من تناول العشاء معها. عندما انتهى من تناول

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

قهوته، تمنى لهما ليلة سعيدة وذهب إلى السرير في حجرته الصغيرة المجاورة للمطبخ.

ظلا جالسين فترة يشاهدان النار، دون أن يتحدثا. كانت الريح تسرع وهي تمر في الخلاء بالخارج، وكانت تصفق الضلفات الخشبية التي ما انفكت تصدر طرقاتها. كانت الآنسة ويندلينج مرتاحة البال، فحتى لو كان الجزء الأول من الاحتفالية قد سار على نحو خاطئ، فلايزال بالإمكان أن تكون بقية الليلة مبهجة مرضية.

انتظرت الآنسة ويندلينج حتى تأكدت من أن بوفيلجا قد ذهب إلى السرير فعلا، ثم تناولت حقيبتها وأخرجت منها كيسا بلاستيكيا صغيرا ممتلئا بشيكولاتة الكريمة، حيث وضعته على المائدة.

«كل»، قالت من دون اهتمام، وأخذت منه قطعة لنفسها. مد سليمان يده بقليل من التردد وأخذ الكيس. عندما كانت الشيكولاتة في فمه، شرعت الآنسة في التحدث. كانت تعتزم أن تخبره بقصة ميلاد السيد المسيح، وهي موضوع كانت قد تطرقت إليه بالفعل مرات كثيرة في أثناء رحلاتهما، لكن بشكل عابر فقط. أحست هذه المرة أنه ينبغي عليها أن تخبره بالقصة كاملة. وتوقعت منه أن يقاطعها عندما يكتشف أنها قصة دينية، لكنه فقط أبقى عينيه الخاليتين من المعنى مسلطتين عليها وهو يمضغ بطريقة آلية، مبينا لها بين الحين والآخر أنه يتابعها عن طريق إيماءات من رأسه. بدأت تستغرق في ما كانت تقوله، وأخذت في استخدام ذراعيها

لتصدر بهما إشـــارات كبيرة. تناول سليمان قطعة أخرى من الشيكولاتة وواصل الاستماع.

ظلت الآنســـة تتكلم ســـاعة أو أكثر، وهي مدركة، كما لو من بُعـــد فصاحتها الخاصـــة. عندما أخبرته عـــن بيت لحم كانت تصـــف بالفعل قرية ســـليمان، وكان بيت يوســـف النجار ومريم هو البيت الموجود في الأسفل عند القصر(*) حيث ولد سليمان. تقوس ســـماء الليل فوق «أويد زوســـفانا»، وسطعت نجومه على صحراء الحمـــادة الباردة. وعبر الصحـــراء المترامية الأطراف جاء الماجوس الثلاثة فوق جمالهم يرتدون البرانس والعمامات، وتوقفوا فـــوق قمة آخر كثيب رملي كبيـــر ليتطلعوا إلى الوادي حيث كانت تمتد القرية المظلمة. وعندما انتهت الآنسة ويندلينج من قصتها، تمخطت.

بدا سليمان في حالة تقترب من الغيبوبة. ألقت بنظرة سريعة عليه، وتوقعت منه أن يتكلم، لكن لأنه لم يفعل شيئا، فقد نظرت إليه بعناية أكثر. كانت عينـــاه تبعثان على القلق، عينان خاليتان من التعبيـــر، وعلى الرغم من أنهما كانتـــا مثبتتين على وجهها، فقـــد كان بإمكانهـــا أن تقول إنـــه كان ينظر إلى شـــيء ما أبعد كثيرا منها. تنهدت، لم تكـــن تريد اتخاذ قرار يؤدي إلى إفاقته. فرضيـــة أنها كانت ترغـــب في إمتاعه، إن لـــم تكن مدركة جدا لاســـتحالتها، كانت تعني أن الولد بطريقة ما قد أسرته وجذبته القصة الشـــعرية، وأنه كـــان يستعـرضها في خيـــاله. «بالتأكـيد لا يمكـــن أن يكون هـــذا هو الأمر»، قـــررت، كان الأكثر ترجيحا

(*) وردت بالعربية [المترجم].

أنــه قد توقف منذ بعض الوقت عن الإنصات لكلماتها، وأنه كان جالســا هناك وحســب، وأنه قد أدرك بطريقة غامضة أنها قد وصلت إلى نهاية القصة.

بعد ذلك تحدث ســليمان: «أنت محقة، كان ملك المجوس». التقطت الآنسة ويندلينج أنفاسها وانحنت إلى الأمام، لكنه واصل قائلا: «وبعد ذلك أرســل الشيطان حية ذات رأسين، وقام يسوع بقتلها. كان الشيطان غاضبا من يسوع. وقال له الشيطان: «لماذا قتلت صديقتي؟ هل كان من المحتمل أنها أرادت أن تؤذيك؟» وقال له يســوع: «لقد عرفت من أين جاءت». وكان الشــيطان مرتديا برنسا أسود. هذا صحيح»، أضاف، بينما رأى على وجهها تعبيرا اعتبره دلالة على عدم التصديق.

اعتدلت الآنسة، جلست مستقيمة وقالت: «سليمان، ما الذي تتحدث عنه؟ ليســت هناك قصص مثل هذه عن يسوع. ولا عن سيدنا عيســى أيضا». لم تكن متأكدة من دقة تصريحها الأخير عن ســيدنا عيســى، كان من الممكن، هكذا افترضت، أن توجَد مثل هذه الأســاطير بين هؤلاء الناس. «أنت تعرف أن تلك مجرد قصص وأنها لا تمت إلى الحقيقة بصلة».

لم يتمكن ســليمان من ســماعها لأنه كان قد شــرع بالفعل في التحــدث قائلا: «أنا لا أتحدث عن ســيدنا عيســى»، قــال بثبات وصرامة. أنا أتحدث عن يســوع، نبي النصارى. الجميع يعرفون أن الشيطان أرسل له حية ذات رأسين».

أنصتت الآنســة لصوت الريح للحظــة، «آه»، قالت، وتناولت قطعة أخرى من الشــيكولاتة، وهي لا تعتزم التطرق في النقاش

إلى حدود أبعد من هذا. بعد ذلك بفترة قصيرة فتشت في حقيبتها مرة ثانية وأخرجت منها العمامة، التي كانت ملفوفة في منديل ورق كبير من نسيج رقيق أحمر في أبيض.

«هذه هدية لك»، قالت وهي تناولها له. أمسك بها سليمان بطريقة آلية، ووضعها على حجره وظل يحدق فيها. «ألن تقوم بفتحها؟» سألته.

أومأ برأسه مرتين ومزّق الورق الخفيف فاتحا إياه. عندما رأى لفة من القطن الأبيض ابتسم. بعدما رأت الحياة تدب أخيرا في وجهه، رفعت نفسها إلى أعلى، وصرخت بقوة «دعنا نضعها على رأسك!». أعطاها سليمان طرفا من طرفيها، شدته بإحكام عن آخره بعدما سارت حتى وصلت إلى باب الحجرة. بعد ذلك رفع سليمان الطرف الآخر بيده إلى جبهته، وظل يدور ببطء مرارا وتكرارا، وهو يقترب منها في أثناء دورانه، وهو يرتب ويسوي هيئة العمامة وهو يلفها حول رأسه. «رائع!» صاحت. اقترب سليمان من صف النوافذ المظلمة لكي يتطلع إلى نفسه والعمامة في زجاجها.

«هل بوسعك أن ترى؟» سألته.

«نعم. بإمكاني أن أرى جانبيها»، قال لها، وأضاف، «إنها جميلة جدا».

تقدمت إلى الأمام نحو منتصف الحجرة. «أريد أن ألتقط صورة لك، يا سليمان»، قالت، فرأت نظرة حيرة فورية بدت على وجهه. «هل بإمكانك أن تسدي لي صنيعا؟ اذهب إلى غرفتي وأحضر لي الكاميرا».

«في الليل؟ هل بإمكانك أن تلتقطي صورة في الليل؟»

أومأت بالموافقة، وهي تبتسم بشكل غامض، وأضافت «وأحضر لي الصندوق الأصفر من فوق السرير».

أبقى سليمان العمامة فوق رأسه، وارتدى برنسه، وأخذ كشافها الضوئي ومضى إلى الخارج، تاركا الريح تصفق الباب خلفه. تمنت الآنسة ويندلينج ألاّ يكون الصوت قد أيقظ بوفيلجا، لأنها راحت تنصت للحظة في حين لم يكن هناك من صوت سوى هزيم الهواء المندفع عبر الممر في الخارج. ثم جرت إلى الركن البعيد في الحجرة وأشعلت عود ثقاب، وراحت بسرعة تشعل جميع الشموع المحيطة حول منظر الميلاد، وعدّلت من وضع أحد الجمال في الرمل ثم عادت مرة ثانية إلى الركن قرب المدفأة. لم يكن في مقدورها أن تتصور أن الشموع يمكن أن تبعث بالكثير جدا من الضوء. وفي الوقت الحالي صار الطرف الآخر من الحجرة أكثر إضاءة من الطرف الذي كانت تقف فيه. على الفور انفتح الباب فجأة ورجع سليمان وهو يحمل الكاميرا وقد علقها على كتفه. وضع الكاميرا بعناية فوق المائدة، وقال لها: «ليس هناك صندوق أصفر على السرير». ثم التقطت عيناه بسرعة خاطفة الخفقان الإضافي غير المألوف للضوء المرتمي على الجدران البعيدة، فتقدم إلى منتصف الحجرة. رأت الآنسة ويندلينج أن هذه هي اللحظة المناسبة، «تعال»، قالت وأمسكت ذراع سليمان وجذبته برقة قرب الركن إلى حيث كانت لوحة الميلاد مرئية في شكلها النهائي، وهي تلمع وتتوهج بفعل ضوء

الشموع المرتعش الساقط عليها. لم يقل سليمان شيئا، توقف عن السير ووقف ساكنا تماما. وبعد لحظة من الصمت، جذبت ذراعه بتردد، وشجعته قائلة: «تعال وانظر». واصلا السير نحو لوحة الميلاد، وعندما وصلا تولد لدى الآنسة ويندلينج انطباع بأنها لو لم تكن موجودة هناك لكان سليمان قد قام بمد يده ولمس المنظر، وربما كان سيهم برفع الطفل يسوع المكسو باللون الذهبي من سريره المصنوع من ريش الدجاج. لكنه كان واقفا بشكل هادئ، وهو ينظر إليها. وفي النهاية قال: «هل أحضرت كل هذا من سويسرا؟».

«بالطبع لا!»، كان الأمر محبطا لها بعض الشيء فقد كان من الواجب عليه أن يتعرف على الصحراء في الصورة، وأنه كان يجب عليه أيضا أن يحس بأن تلك الأشياء كانت من بيئته، وأنها ليست مستوردة. «لقد نفذتها هنا»، قالت. ثم انتظرت لحظة وسألته: «هل أعجبتك؟».

«آه، نعم»، قال بانفعال. «إنها جميلة. اعتقدت أنها جاءت من سويسرا».

ولكي تتأكد من أنه قد تسنى له فهم الموضوع، بدأت في التعريف بالشخصيات الواحدة تلو الآخرى، واتخذ صوتها مثل هذه التغير في التعبير غير المعتاد النابع عن الاحترام لدرجة أنه رفع بصره إليها بدهشة في إحدى المرات. كان الأمر كما لو أنها كانت تراها هي أيضا للمرة الأولى. «ووصل الماجوس الثلاثة إلى مكان بعيد خارج الصحراء الصخرية المترامية الأطراف لرؤية الطفل».

«لماذا وضعت كل هذا اللوز هناك؟»، سأل سليمان، وهو يلمس بعضه بسبابته.

«إنها هدايا ليسوع الصغير».

«لكن ما الذي ستفعلينه بها بعد ذلك؟»، تابع.

«نأكلها، ربما، في ما بعد»، قالت بشكل مقتضب. «خذ واحدة إذا أحببت. تقول إنه لم يكن هناك صندوق أصفر على السرير؟» كانت ترغب في التقاط بعض الصور بينما كانت الشموع لاتزال على القدر نفسه من الارتفاع المتساوي.

«لم يكن هناك سوى السترة وبعض الأوراق، يا سيدتي».

تركته عند اللوحة، ثم اجتازت الحجرة وارتدت برنسها. كان الظلام في الممر كاملا، ولم تكن هناك علامة على أن بوفيلجا كان مستيقظا. كانت تعرف أن غرفتها في حالة كبيرة من الفوضى، فأطلقت شعاع الكشاف هنا وهناك فوق الأرضية قبل أن تدلف إليها. في خضم مزيج الأشياء المبعثرة في كل مكان فوق أرضية الغرفة الصغيرة بدا أن هناك فرصة صغيرة للعثور على أي شيء. كان البصيص الضعيف يضيء، بشكل متتابع، الأشكال الخالية من المعنى الناجمة عن تكويم الأشياء المختلفة الواحد فوق الآخر، تحرك الضوء على امتداد السرير، وخلف الستار الرقيق المهلهل لخزانة الملابس. توقفت فجأة ووجهت الشعاع إلى أسفل السرير. كان الصندوق أمام وجهها، كانت قد وضعته بجانب لوحة الميلاد.

«لا بد أنني قد أخطأت»، فكرت، وهي تجري خلال الممر. أجبرت نفسها على أن تبطئ من خطوتها السريعة إلى سير

عادي، دخلت إلى حجــرة الطعام وأغلقت الباب خلفها بحرص. كان ســليمان راكعا على ركبتيه في منتصــف الحجرة، وفي يده شــيء صغير. لاحظت بارتياح أنه كان يســلي نفسه. «أنا آسفة فقد اســتغرق ذلك مني وقتا طويلا جدا»، أعلنت في قوة. «لقد نســيت المكان الــذي وضعته فيه». كانت تنــزع البرنس من فوق رأسها، وقامت بتعليقه الآن على مسمار قرب المدفأة، ثم التقطت الكاميرا والصندوق الأصفر، ومشت بخطى واسعة لتنضم إليه.

ربما كان وميض إحساس بذنب غير واضح في تعبيرات وجهه، عندمــا رفع بصره إلى أعلى، هو الذي جعل عينيها تشــردان على امتداد الأرضية نحو شــيء آخر كان موجودا على مســافة قريبة، شيء ما شبيه بذلك الذي كان ممسكا به في يده. كان هذا الشيء الملقى في الجوار أحد الرجال الماجوس، وقد تمزق من عند مفصل وركيــه عن مطيته. وكان الرجل الماجوســي الذي في يد ســليمان سليما، إلاّ أن الجمل كان قد فقد رأسه وجزءا كبيرا من رقبته.

«ســليمان! ما الذي تفعله؟» صرخت بغضب واضح. «ما الذي فعلتــه بلوحة الميلاد؟» تقدمت مقتربة مــن الركن وألقت بنظرة نحوهــا. لم يكن هناك في الواقع ما هو أكثر من صف الشــموع وكومة من الرمال المبعثرة وقد اختلط بها قشــر اليوسفي ونوى البلــح، وكانت مربعات الــورق المفضض ذات اللــون الأرجواني والبرتقالي مطوية بعناية ومغروســة هنا وهناك في الرمل. وكان الرجال المجوس الثلاثة قد جُندوا في معركة سليمان التي أقامها فوق الأرضية، وتم تدمير الخيمة في الحملة العســكرية لانتزاع اللوز المكوم داخلها، وتم نهب شيكولاتة «الليكوز من الأجولة التي

كانت تحتـــوي عليها. لم تكـــن هناك علامة فـــي أي مكان تدل على أثر ليســـوع الطفل أو ملابسه المصنوعة من قماش اللاميه الذهبي. شعرت بالدموع تطفر من عينيها. ثم ضحكت باقتضاب، وقالت: «حسنا، لقد انتهيت، أليس كذلك؟».

«نعم، يا سيدتي»، قال بهدوء. «هل ستلتقطين الصورة الآن؟» ثـــم نهض على قدميـــه ووضع الجمل الممزق علـــى الأرضية في الرمل إلى جوار الأنقاض والأطلال الأخرى.

تكلمت الآنســـة ويندلينج بهدوء واتزان قائلة: «كنت أرغب في التقاط صورة لمنظر الميلاد».

انتظر سليمان للحظة، كما لو كان يستمع إلى صوت بعيد. ثم قال: «هل يجب عليّ أن أرتدي برنسي؟».

«لا!»، وبدأت تخرج الفلاش الملحق بالكاميرا. وعندما انتهت مـــن تجهيزه، التقطت الصورة قبـــل أن يتاح له وقت كافٍ لاتخاذ الوضع المناســـب للتصوير. رأت أن دهشته نفســـها إزاء الضوء الســـاطع المفاجئ قـــد طالت وامتدت وتحولـــت إلى مفاجأة من أن الأمر قـــد تم بالفعل، ثم تحولت إلى نوع من الاســـتياء لكون التصويـــر قد تم فـــي غفلة منه، غير أنها تظاهـــرت بأنها لم تر شـــيئا، وراحت تحكم غلق غطاء الكاميرا. كان ســـليمان يراقبها وهي تجمع أشـــياءها وترتبها. «هل انتهى الأمر؟»، قال بإحباط. «نعم»، أجابت. «ستكون صورة جيدة جدا!».

«إن شاء الله»، قال سليمان بالعربية.

لم تعمد هذه المرة إلى ترديد عبارته الأخيرة بعده. «أتمنى أن تكون قد استمتعت بالاحتفال»، قالت له.

ابتسم سليمان ابتسامة عريضة. «آه، نعم، يا سيدتي. استمتعت أيما استمتاع. شكرا لك».

جعلته يخرج بعيدا إلى ساحة الجمال وأغلقت مزلاج الباب. وعادت بسرعة إلى غرفتها، وتمنت لو كانت هذه الليلة صافية مثل الليالي الأخرى، حيث كان بإمكانها الوقوف في التراس والتطلع إلى الكثبان الرملية والنجوم، أو الجلوس فوق السطح وسماع نباح الكلاب، لأنها على الرغم من تأخر الوقت، لم تكن بها رغبة في النعاس. أخلت سريرها من كل الأشياء التي كانت ملقاة عليه، واستلقت فوقه، وهي على يقين من أنها ستظل مستلقية لفترة طويلة من دون نوم، بسبب الصدمة التي ألمت بها نتيجة للفوضى التي أحدثها سليمان في أثناء الدقائق القليلة التي غابت فيها عنه. على مدار الفصول التي مرت على صداقتهما اعتبرت أن تفكيرها فيه كان باعتباره مثلها أو قريبا جدا إلى نفسها، على الرغم من أنها كانت تعرف أن سليمان لم يكن قريبا إلى نفسها في المرة الأولى التي التقته فيها. وهي الآن ترى كيف أنها خدعت نفسها وسقطت في ذلك الغرور الخطير الباطل والزائف في قلب ذلك الوهم: فقد افترضت بطريقة ما أن مرافقته وصداقته لها، بطريقة تلقائية، كانت شيئا جيدا إلى أقصى حد بالنسبة إليه، لدرجة أنه كان سيمر بعملية تحسن وتطور لا يمكن التغاضي عنها، نتيجة لمعرفته بها. وفي غمرة رغبتها في رؤيتها له وهو يتغير، كانت قد بدأت تنسى ما كان عليه سليمان بالفعل في الأصل. «لن أتمكن من فهمه أبدا». فكرت بشكل يائس، وهي واثقة من هذا كل الثقة لأنها أحست

بأن اقترابها الشديد منه لم يتح لها الفرصة أبدا لأن تكون قادرة على ملاحظته من دون تحيز.

«هذه هي الصحراء»، قالت لنفسها. الطعام هنا ليس للزينة؛ فالغرض منه هو الأكل. لقد قمت بتقديم الطعام، وقام هو بتناوله. وأي نقاش سيلقي باللوم على هذا ويدين الولد يمكن أن يكون خاطئا في النهاية. ولذا كانت ممددة هناك وهي تتهم نفسها، «لقد كان الأمر مثاليا بدرجة متقدمة وراقيا إلى حد كبير جدا»، فكرت بإمعان، «وليس مجرد رغبة أو ميل إلى الشفقة». وفي النهاية غرقت في النوم على صوت الريح.

عندما استيقظت في الفجر رأت أن اليوم سيصبح يوما آخر مظلما. كانت الريح قد هدأت. نهضت وأغلقت النافذة. كانت سماء الصباح الباكر ملبدة بالغيوم. فعادت إلى سريرها وراحت في النوم. كان الوقت متأخرا عن المعتاد عندما نهضت عن سريرها، وارتدت ثيابها ودخلت إلى حجرة الطعام. كان وجه بوفيلجا خاليا من التعبير بشكل غريب عندما ألقى عليها تحية الصباح. فافترضت أن هذا كان بسبب ذكرى سوء التفاهم الذي وقع في الليلة الماضية والتي لم تفارقه بعد، أو من المحتمل أنه كان متضايقا للاضطرار إلى تنظيف بقايا منظر الميلاد. بمجرد أن جلست وبسطت فوطتها فوق حجرها، اعتدل بشكل كاف ليقول لها: «احتفال سعيد».

«شكرا لك، قل لي يا بوفيلجا»، واصلت وقد تغيرت نبرة صوتها، «عندما أحضرت سليمان إلى هنا في الليلة الماضية بعد تناولي العشاء، هل كنت تعرف أين كان؟ هل أخبرك بمكانه؟».

«إنـــه ولد غبي»، قال بوفيلجا، «قلــت له أن يذهب إلى البيت ويتنــاول طعامه ويعود في وقــت لاحق. هل تعتقدين أنه قد فعل ذلك؟ أبدا. فقد ظل طوال الوقت يتجول في أرجاء الفناء، خارج باب المطبخ، في الظلام».

«لقد فهمت!» صاحت الآنسة ويندلينج في فرح، «وبالتالي لم يتناول أي عشاء على الإطلاق».

«لم يكن لديّ شيء لأقدمه له»، بدأ بوفيلجا، وقد تحفز للدفاع عن نفسه.

«لم يكن عليك بالطبع»، قالت بصرامة. «فقد كان ينبغي عليه أن يذهب إلى البيت ويتناول طعامه».

«آه، أترين؟» ابتسم بوفيلجا ابتسامة عريضة، وأضاف: «هذا هو ما قلت له أن يفعله!».

راحت القصة كلها تتجسد في ذهنها على النحو التالي: ليس من المســتبعد أن يكون سليمان قد أخبره والده وهو واقف بعيدا عنه أنه ســيتناول طعامه في الفندق مع الســيدة السويســرية، وأغلب الظن أن الرجل العجوز قد أتى ببعض الإشــارات الدالة على الاحتقار لها، ثم غادر سليمان البيت. ولم يكن هناك مجال للتفكيــر فــي العودة إلى البيــت ومواجهة الســخرية من جانب عائلتــه، عندما تم منعه من الدخول إلى حجرة الطعام، «يا للولد المسكين»، تمتمت.

«قائد الشــرطة يرغب في رؤيتك»، قال بوفيلجا، بطريقة من طرقــه الفجة في الكلام والتي يلجأ فيها إلى اســتخدام عنصر المفاجأة. أصابتها الدهشة، نظرا إلى أن القائد، العام تلو الآخر،

ـم تصدر عنه أي بادرة تدل علـى أنه كان على دراية بوجودها، فالفندق والحصـن كانا مثل مدينتين منفصلتين. «ربما بسـبب الاحتفال»، قال بوفيلجا مقترحا، ووجهه يخفي حقيقة ما يخبئه. «ربما»، قالت بارتباك.

وعندما فرغت من تناول إفطارها، سـارت إلى الجهة المقابلة حيث بوابات الحصن. بـدا أن الحارس كان في انتظارها، وكان أحد الجنديين الفرنسيين الشابين يطلي أحد الكراسي في الفناء الداخلي للحصن. ألقى الجندي الشاب عليها التحية، وقال لها إن القائد في مكتبه. صعدت درجات السلم الطويلة وتوقفت لحظة في أعلاها، وألقت بنظرة إلى أسـفل على الوادي ولاحظت، في الضوء الرمـادي غير المعتاد، إلى أي مـدى كان الوادي مختلفا تماما عما هو عليه في العادة، في هذا اليوم المعتم.

جاءهـا صوت مـن الداخل يناديهـا: «تفضلـي بالدخول إذا سـمحت!»(*) ففتحت البـاب ودخلت إلى الحجـرة. كان القائد جالسـا خلف مكتبه، تولد لديها شعور قوي غير محبب لأنه سبق لها الوقوف في موقف مشابه لهذا في مناسبة أخرى، وفي مكان آخر. واقتنعت فجأة أنها كانت تعرف ما كان على وشك أن يقوله. أمسكت الآنسة ويندلينج بظهر الكرسي الخالي المواجه للمكتب. «تفضلي بالجلوس، يا آنسة ويندلينج»، قال، وهو ينهض عن مقعده بشكل جزئي، وأشار بذراعه ثم جلس بسرعة مرة ثانية.

كانـت هناك عـدة خرائط طبوجرافية معلقـة على الحائط خلفـه، وعليها علامات بالطباشـير الأرجواني والأخضر. نظر

(*) وردت العبارة بالفرنسية [المترجم].

القائد إلى مكتبه ثم إليها، وقال في صوت واضح: «إنه لمن سوء الحظ أن أضطر إلى استدعائك إلى هنا في هذه الإجازة». جلست الآنسة ويندلينج على الكرسي، ومالت إلى الأمام، وقد بدا أنها على وشك أن تسند مرفقها إلى مكتبه، لكنها بدلا من ذلك وضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى وعقدت ذراعيها إلى صدرها بإحكام. «نعم؟» قالت، في توتر، وهي تنتظر الرسالة. وعلى الفور جاءتها الرسالة التي كانت على دراية مسبقة بها، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت ممتنة له. قال لها بوضوح إن المنطقة بأكملها قد أُغلقت بالنسبة إلى المدنيين، وأن هذا الأمر ينطبق على المواطنين الفرنسيين بالإضافة إلى الأجانب، ولذلك يجب ألاّ تشعر بتحامل تجاهها. وقد قيلت الجملة الأخيرة مصحوبة بمحاولة رسم ابتسامة تدل على الاستياء والتسليم بالأمر الواقع. «هذا يعني أنه يجب عليك أن تستقلي الشاحنة غدا في الصباح»، وقال القائد مواصلا كلامه: «لقد تم إخطار السائق بالفعل برحلتك. ربما في عام آخر عندما ينتهي الاضطراب... «(لماذا يقول ذلك؟» فكرت، في حين أنه يعرف أن هذه هي النهاية، وأن وقت الصداقة قد انتهى؟») نهض القائد ومدّ يده إليها.

لم يكن بوسعها أن تتذكر خروجها من حجرة المكتب وهبوطها السلم الطويل إلى الفناء الداخلي، إلاّ أنها كانت تقف الآن خارج البوابة التي يقف عليها الحارس بجوار سور الحصن، ويدها على جبينها. «بالفعل، لقد جاء سريعا جدا»، فكرت. وخطر لها أنه لن يتاح لها وقت كاف للقيام بالإصلاح من شأن سليمان

وتحسـينه لذلك فقد كان حقيقيا فعلا أنها لن تتمكن من فهمه أبدا. تقدمت إلى حاجز الشـرفة المنخفـض لتنظر للحظة إلى أسـفل حيث حافة الواحة، ثم عادت إلى غرفتها لتشرع في حزم أمتعتهـا. ظلت طوال اليوم تعمل فـي غرفتها، تخرج الصناديق، وهي تجبر نفسـها على أن تعمل تركيزهـا فقط على القرارات التـي كانت تتخذها في مـا يتعلق بما كان يتعين عليها أن تأخذه معها أو تتركه بصفة نهائية.

في وقـت الغداء أخذ بوفيلجا يتلكأ قرب كرسـيها، ثم قال: «آه، يا آنسة، كم من الأعوام قضيناها معا، وانتهت الآن!». «نعم»، فكرت، لكن لم يكن ثمة شيء للقيام به في ما يتعلق بهذا الشأن. أزعجها رثاؤه أو تفجعه وجعلها عصبية وجافة معه. ثم أحسـت بالذنب على نحو كامل، فقالت ببطء وهي تنظر إليه مباشرة: «أنا حزينة جدا، يا بوفيلجا». تنهد قائلا: «نعم، يا آنسة، أعرف!».

وعند مغيب الشـمس زحفت السـحب الكثيفة القاتمة بعيدا عبـر الصحراء، وكانت السـماء الغربية صافية بشـكل جزئي. كانت الآنسة ويندلينج قد انتهت من حزم جميع أمتعتها. خرجت إلى الشرفة، وشـاهدت الكثبان الرملية القرنفلية المتوهجة، ثم صعدت السـلالم إلى السـطح لتشـاهد الغروب. كانت السماء مخططة بمجموعات كبيرة من السـحب شديدة الاحمرار بلون النار. تركت نظرتها المحدقة تتبع بطريقة آلية التواءات وتعرجات وادي النهر الذي راح يضيع نفسـه في صحراء الحمادة المظلمة فـي اتجاه الجنـوب. «إن هذا في الماضي»، ذكّرت نفسـها، كان هـذا عهدا جديدا بالفعل. بدت الصحراء هناك في الخارج كما

كانت تبدو عليه دائما. لكن السماء، المفتقرة للتناسق، بين اللونين الأحمر والأسود، كانت مثل الإعلانات اليدوية التي انتشرت فوقها مباشرة، تعلن قدوم الحرب.

كانت خيانة، هكذا فكرت، وراحت تهبط السلالم العالية شديدة الانحدار، وتنقل يدها على امتداد الحائط الطيني الخشن المألوف لتحافظ على ثباتها وتوازنها. كان الفرنسيون بالطبع هم المتهمين. لكن بعيدا عن هذا كانت هي على اقتناع غير مقبول بأن الريف ذاته قد تآمر في الخيانة، بما أنه كان ينتظر ليتحول إلى ساحة للصراع. دخلت إلى غرفتها وأنارت المصباح الزيتي الصغير، وجلست، وأبقت يديها فوق المصباح لتدفئتهما. من ناحية أخرى كان هناك تغيير، فلم يعد الناس راغبين في الاستمرار في العيش في العالم الذي عرفوه. وضغط الماضي أصبح عظيما جدا، وتحطمت محارته الواقية.

بعد الظهر قامت بإرسال بوفيلجا لينقل الخبر إلى سليمان، ويطلب منه أن يحضر إلى الفندق في الفجر. في أثناء وجبة العشاء راحت تناقش بشكل دقيق تفاصيل المغادرة والسفر. وعندما حاول بوفيلجا التطرق في المحادثة إلى اتجاهات عاطفية، لم ترد عليه. كانت مواساته لا تطاق، وكانت هي غير معتادة على التعبير عن قنوطها. عندما وصلت إلى غرفتها ذهبت من فورها إلى السرير. وظلت الكلاب تنبح حتى منتصف الليل.

كان الطقس باردا في الصباح. كانت يدها تؤلمها عندما راحت تجمع أغراضها المبتلة من حوض الغسل فوق المنضدة، وبطريقة ما دفعت شظية على نحو عميق تحت ظفر إبهامها. أخرجت

جزءا منها بواسطة إبرة، لكن تبقى الجزء الأكبر منها. مضت إلى الخارج قبل الإفطار.

ووقفت في أرض قاحلة بين الفندق والحصن، ونظرت إلى أسفل إلى وجه الريف البريء. ومضخة الجازولين المقفلة بالقفل، والمبهجة في طلائها الجديد باللونين الأحمر والبرتقالي، واللافتة للانتباه في ضوء الشمس المبكر النقي. وقد بدت لها لبرهة الشيء الوحيد الحقيقي في المشهد. استدارت إلى الوراء. فوق الكتلة المظلمة غير المتناسقة لأشجار النخيل ارتفعت القرية بشرفاتها، هادئة في الصباح تحت ستار دخان الخشب. أغلقت عينيها للحظة، ثم دخلت إلى الفندق.

كان في مقدورها أن تشعر بنفسها وهي جالسة ساكنة فوق كرسيها بينما كانت تشرب قهوتها، وكانت تعرف أنها كانت متحفظة ورسمية في تعاملها مع بوفيلجا لكنها كانت متأكدة من أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي كانت تجعلها قادرة على الاستمرار. وبمجرد أن جاء لإخبارها أن سليمان قد وصل جالبا معه الحمار وصاحبه لحمل أمتعتها، شكرته ووضعت فنجان قهوتها على المنضدة. «هل ترغبين في المزيد؟»، قال بوفيلجا. «كلا»، أجابت. «تناولي فنجانا آخر يا آنسة»، حثها. «إنه جيد في الصباح البارد». وصب فنجانا آخر لها فشربت بعضا منه. كان هناك صوت طرق على البوابة. كان أحد الجنديين الشابين قد أُرسل بعربة جيب ليقوم بتوصيلها إلى نقطة توقف الشاحنة على الطريق.

«لن أستطيع!» صاحت، وهي تفكر في سليمان والحمار. أوضح الجندي أنه لا يقوم بعمل تطوعي، وأنه قد صدر إليه أمر بهذا.

كان سـليمان واقفا بجوار الحمار خارج البوابة. وعندما شرعت في التحدث مع سـليمان صاح الجنـدي: «هل يريد هذا الصبي المجـيء معنا؟ بإمكانه أن يأتي أيضا، إذا أحب». جرى سـليمان ليحضر الأمتعة وأسرعت الآنسـة ويندليـج لتسوي حسابها.

«لا تتعجلي»، صاح الجندي إليها، «هناك فسحة من الوقت».

كان بوفيلجـا واقفا في مدخل المطبخ. خطر لها للمرة الأولى أن تتساءل عما سـيحـدث له، فعنـد إغـلاق الفنـدق سيصبح بلا عمل. عندما انتهت من تسوية حسابها وأعطته «بقشيشا» كان أكبر بكثير مما بوسـعها أن تمنحه، أمسكت بكلتا يديه في يدها وقالت: «عزيزي بوفيلجا، سوف يرى أحدنا الآخر قريبا جدا».

«آه، نعم»، صرخ بوفيلجا وهو يحاول أن يبتسـم. «قريبا جدا، يا آنسة».

أعطت سائق الحمار بعض المال، وصعدت إلى العربة الجيب بجوار الجندي، وكان سـليمان قد انتهى من وضع الأمتعة ووقف خلف العربة، يركل الإطارات. «هل أحضرت كل شـيء؟»، نادت عليه. «كل شـيء؟» كانت ترغب في رؤية كل شيء بنفسها، لكنها كرهـت الرجوع إلى الغرفـة. كان بوفيلجا قد اختفى، وعاد الآن مسـرعا وهو يلهث حاملا كومة من المجلات القديمة. «حسـنا، لا، لا! أنا لا أريدها»، قالت. كانت العربة قد تحركت بالفعل إلى الأمام باتجاه أسـفل التل. وفي غضون وقت كان بالنسـبة إليها قصيرا جدا كانوا قد وصلوا إلى منطقة الصخور. عندما حاولت الآنسة ويندلينج رفع حقيبة يدها بدأت الدموع تطفر من عينيها بسبب الألم الذي سببته بقية الشظية تحت ظفر إبهامها، فتركت

نفسها تتفجر في البكاء. لمحها سليمان فأصابته الدهشة، «لقد أصبت يدي»، قالت له مفسرة، «ليس الأمر خطيرا».

تم رص الحقائب في الظل. كان الجندي الفرنسي جالسا فوق صخرة قرب العربة في مواجهة الآنسة ويندلينج، ومن وقت إلى آخر كان ينعم النظر في الأفق من خلفها بحثا عن أثر للشاحنة. كان سـليمان يتفحـص العربة الجيب من جميـع الجهات، وفي النهايـة جلس على مقربة منها. لـم يقل أحدهما للآخر الكثير. لـم تكن متأكدة إن كان هذا بسـبب الجندي، أو لأن إبهامها كان يؤلمها جدا بشكل مسـتمر، لكنها كانت جالسة في هدوء تنتظر، ولا ترغب في التحدث.

كان قـد مـر وقت طويـل قبل أن يتم سـماع صـوت موتور الشـاحنة. وعندما كانت الشـاحنة لاتزال بعيدة ولا تعدو كونها سـحابة من الغبار بين السـماء والأرض، كان الجندي قد نهض على قدميه وراح يراقبها، وبعد فترة قصيرة نهض سليمان وقال: «لقد وصلت، يا سـيدتي». ثم انحنى واقترب بوجهه بشـدة من وجهها وهمس إليها «أريد أن أذهب معك إلى» كولون - بشار»(*). وعندما لم ترد عليه، لأنهـا كانت ترى بالكامل قصة صداقتهما تترى أمامها رويدا رويدا، بدءا من نهايتها وحتى بدايتها، قال لها في صوت أعلى، وبإلحاح كبير: «من فضلك، يا سيدتي».

ترددت الآنسـة ويندلينج لحظة فقط. رفعت رأسها ونظرت بتفرس في وجه سـليمان الأسـمر الأملس الذي كان قريبا جدا منها، وقالت «بالطبع، يا سـليمان». كان من الواضح أنه لم يكن

(*) مدينة في غرب الجزائر [المترجم].

يتوقع أن يسمع هذا، وانتقلت البهجة التي غمرته إليها، فابتسمت بينما كانت تشاهده وهو يجري إلى كومة الحقائب وراح ينقلها من الظل إلى حيث ضوء الشمس ليضعها على هيئة صف في الغبار بجانب الطريق الوعرة.

في ما بعد، عندما كانوا ينطلقون بسرعة على امتداد الحمادة، هي في المقدمة إلى جوار السائق وسليمان مقرفصا في الخلف مع دستة من الرجال والغنم، راحت تنظر بعين الاعتبار إلى ما قامت به من عمل غير مسؤول بسماحها له بالقيام بهذه الرحلة العبثية بصحبتها على طول الطريق إلى كولون - بشار. ومع ذلك، كانت تعرف أنها تريد أن تعطي قصتهما نهاية كهذه. كانت بين الحين والآخر تلتفت بشكل جزئي في مقعدها لتنظر بسرعة عبر الزجاج المتسخ، وكان سليمان جالسا هناك في الغبار والدخان، يضحك مثل الآخرين، وقلنسوة برنسه تغطي معظم وجهه.

كانت الدنيا تمطر في كولون - بشار، وكانت الشوارع عبارة عن برك كبيرة تنعكس على صفحتها السماء الملبدة بالغيوم. في الجراج تمكنا من العثور على ولد زنجي فظ ليساعدهما على نقل الأمتعة إلى محطة السكة الحديد. كان إبهامها يؤلمها بدرجة أقل قليلا.

«إنها بلدة باردة»، قال لها سليمان بينما كانا يهبطان إلى الشارع الرئيسي. في المحطة أودعا الحقائب في الأمانات، ثم ذهبا إلى الخارج ووقفا يشاهدان إحدى السيارات التي كان يجري إنزالها من قطار بضائع مفتوح: كان سقف السيارة لايزال مغطى بالثلج الأبيض الذي تساقط فوقه من السهول المرتفعة.

كان النهار داكنا، وكانت الريح تحدث أمواجا في أسطح الماء في الأراضي الجرداء المغمورة به. ولأنه لم يكن بإمكان قطار الآنسة ويندلينج أن يغادر حتى وقت متأخر من بعد الظهر، فقد ذهبا معا إلى المطعم وجلسا فترة طويلة يتناولان الغداء.

«هل ستعود بالفعل إلى بيتك غدا؟»، سألته في قلق في إحدى المرات، بينما كانا يتناولان الفاكهة. «أنت تعرف أننا قمنا بعمل مزعج جدا لأبيك وأمك. وأنهما لن يسامحاني أبدا». بدا وكأن ستارا قد سقط على وجه سليمان. «لا يهم»، قال باقتضاب.

بعد الغداء سارا في الحديقة وشاهدا النسور في أقفاصها. بدأت الريح تجلب مطرا خفيفا. وأصبح طين الطريق أكثر عمقا. عادا إلى وسط البلدة وجلسا في شرفة مقهى حديث واسع ورديء. كانت الطاولة الموضوعة في مؤخرة الشرفة محمية بشكل جزئي من الريح المحملة بالمياه، كانا في مواجهة بقعة فارغة تناثرت بها قمامة ملقاة. وكان في الجوار، ممددا مثل عظام أحد الجمال التي تسقط على الطريق، بقايا حافلة قديمة صدئة. وكانت نخلة طويلة مقطوعة حديثا ملقاة بشكل قطري بطول رقعة الأرض الكبيرة. التفتت الآنسة ويندلينج لتنظر إلى الألياف البرتقالية المبتلة في جذع النخلة المقطوعة، وشعرت بشفقة كاملة لا جدوى منها نحو الشجرة. «سأطلب كوكا كولا»، قالت معلنة. وقال سليمان إنه يرغب هو أيضا في واحدة.

ظلا جالسين هناك فترة طويلة. مال المطر الخفيف خلال الهواء إلى خارج الأروقة المقنطرة، وراح يرتطم بالأرض في صمت. كانت قد توقعت أن يقترب منها الشحاذون، لكن لم

يصل أحد منهم، ونظــرا إلى أن الوقت قد حان لمغادرة المقهى والذهــاب إلى المحطة فقــد كانت ممتنة لرؤيــة أن اليوم قد انصرم بسهولة شديدة. فتحت محفظتها، وأخرجت منها ثلاثة آلاف فرنك، وأعطتها لسليمان وهي تقول: «سيكون هذا المبلغ كافيا لكل شــيء. لكن يجب عليك أن تشتري تذكرة العودة إلى قريتك اليوم، عندما تغادر محطة الســكة الحديد. كن شديد الحرص عليها».

وضع ســليمان المال في ملابســه، وأعاد تســويه برنسه، ثم شــكرها. «هل فهمت يا ســليمان»، قالت، ثــم احتجزته بيدها لتتمهله، لأنه بدا على وشــك أن ينهض عن الطاولة. «لن أعطيك أي نقــود أخرى الآن، لأنني في حاجة إلى ما معي لرحلتي. لكن عندما أصل إلى سويسرا سأرسل لك القليل، من وقت إلى آخر. ليس كثيرا، القليل».

كان وجهه قد ســيطرت عليه علامات الذعر، وكانت هي في حيرة من أمرها.

«إنك لم تأخذي عنواني»، قال لها.

«لا. لكنني سأرسلها على عنوان بيت بوفيلجا»، قالت، ظنا منها أن هذا ســوف يرضيه. مال نحوها، وعيناه تشعان قوة وتركيزا، وقال في حسم: «لا، يا سيدتي. لا، لديّ عنوانك، وسأرسل إليك عنواني. وعندما يصلك، يمكنك أن تكتبي لي عليه».

لم يبد أن هذا الأمر يســتحق الجدال بشأنه. طوال فترة بعد الظهر لم يؤلمهــا إبهامها كثيرا جدا، لكن الآن، وبينما كان النهار على وشك الانتهاء، بدأ يؤلمها بشدة، مرة ثانية. أرادت أن تنهض،

وتبحث عن النادل لتعطيه حســابه. لايزال المطر الخفيف يهب، وكانت المحطة بعيدة نوعا ما، إلاّ أنها رأت أن ســليمان كان لديه شــيء ما أكثر ليقوله. مال ســليمان في كرسيه إلى الأمام ونظر إلى الأرض، «سيدتي»، بدأ. «نعم؟» قالت.

«عندما تكونين في بلدك وتفكرين فيّ لن تكوني سعيدة. هذا صحيح، أليس كذلك؟».

«سأكون حزينة جدا»، أجابت وهي تنهض.

نهض ســليمان ببــطء، وصمت برهة قبــل أن يواصل كلامه قائــلا: «حزينة لأننــي أكلت الطعام من اللوحة. كان هذا ســيئا جدا. سامحيني».

صاحت صارخة في نبرة قوية أفزعتها «لا! لا!». صرخت مرة ثانية: «كان هذا شيئا جيدا!» وأحست بعضلات وجهها وشفتيها تتقلص إلى تكشيرات توحي بالبكاء، فأمسكت بذراع سليمان بقوة ونظرت إلى وجهه: «آه، يا صغيري المســكين!» وراحت تنشج، ثم غطت وجهها بكلتا يديها. وشعرت بسليمان وهو يلمس كمّها في رقة ورفق. مرت شاحنة في الشارع الرئيسي، فهزّت الأرض.

وبصعوبة بالغة ابتعدت وراحت تفتش في حقيبتها عن منديل.

«تعال»، قالت، ثم تنحنحت، وأضافت: «ناد على النادل».

وصلا إلى المحطة مبتلين وهما يشــعران بالبرد. كان القطار يجري ترتيب عرباته وتجهيزه، ولم يكن مسموحا للركاب بالاتجاه إلى الرصيف فجلســوا على الأرضية فــي الداخل. بينما كانت الآنسة ويندلينج تشتري تذكرتها ذهب سليمان ليحضر الحقائب من الأمانات. كانت قد مضت علــى ذهابه فترة طويلة. وعندما

عاد كان برنسه مطروحا على ظهره فوق كتفيه، وابتسامة فخر وانتصار عريضة على شفتيه، والحقائب الثلاثة مرصوصة فوق رأسه. وكان رجل يرتدي سترة وبنطلونا أوروبيين باليين يسير خلفه حاملا بقية الأمتعة. عندما اقترب منها أكثر رأت الرجل يحمل قصاصة ورقية بين أسنانه.

كانت مقصورة القطار القديمة تبعث برائحة ورنيش. كان بوسعها أن ترى عبر النافذة، فوق بعض الأراضي الجرداء البعيدة في اتجاه الغرب، بضعة خيوط من السماء البيضاء الممتلئة بالمياه. أراد سليمان أن يغطي المقاعد بالأمتعة، حتى لا يجيء أحد ويجلس في المقصورة. «لا»، قالت. «ضعها على الأرفف». كان هناك ركاب قليلون جدا في عربة القطار. عندما تم الانتهاء من وضع كل شيء في موضعه الصحيح، وقف الحمال خارج المقصورة في الممر، ولاحظت أنه لايزال ممسكا بقصاصة الورق بين أسنانه. عمد إلى عد العملات المعدنية التي أعطته إياها ووضعها في جيبه. ثم بسرعة أعطى الورقة إلى سليمان، وانصرف.

مالت الآنسة ويندلينج إلى أمام قليلا، وراحت تتفحص وتنظر إلى وجهها في المرآة الصغيرة التي كانت ممتدة بالطول على ظهر المقعد المقابل لها. لم يكن هناك ضوء كاف، وكان المصباح الزيتي فوقها يضيء السقف فقط، وكانت قاعدته تلقي بظل واهن على كل ما تحتها. فجأة اهتز القطار وصدرت عنه سلسلة من الأصوات الصاخبة. أخذت رأس سليمان بين يديها وقبلته في منتصف جبينه. «من فضلك انزل من القطار»، قالت له.

«بإمكاننا التحدث من هنا»، وأشــارت إلى النافذة وبدأت تجذب الحزام الجلدي الذي في أسفل النافذة لتفتح زجاجها.

بدا ســليمان صغيرا في ظلمة الرصيف، وهو يحدق فيها إلى أعلى بينما مالت هي إلى الخــارج. ثم بدأ القطار في التحرك. اعتقدت في ثقة أن القطار سيتحرك عدة أقدام فقط ثم يتوقف بعــد ذلك، لكنه واصل تقدمه ببطء. راح ســليمان يســير معه، محافظا علــى محاذاته للنافذة التي تقف فيها. وفي يده الورقة التــي أعطاه إياها الحمال. رفعهــا إلى أعلى ليناولها إليها، وهو يصيح: «هذا هو عنواني! أرسليه على هذا العنوان!».

أخــذت الورقة، وظلــت تلوح لــه بينما كان القطار يســرع، وواصلت الصياح: «إلى اللقاء!» استمر سليمان في المشي بسرعة بمحاذاة النافــذة، وظل يزيد من خطوته حتــى صار يجري، ثم انتهــى الرصيف فجأة ولم يعد هناك المزيد منه. انحنت هي إلى الخارج أكثر، وهي تنظر إلى خلف القطار، وتلوح لسليمان، حتى اختفى في الظلام والمطر. التمع لســان برتقالي من اللهب عند القضيب، ولسع الدخان فتحتي أنفها. سحبت النافذة إلى أعلى، ونظرت بســرعة إلى قصاصة الورق التي في يدها، ثم جلست. ظل القطار يهزّها يمنة ويسرة، وهي تواصل التحديق في الورقة، علــى الرغم من أنها أصبحت الآن فــي الظل والعتمة. وتذكرت اليــوم الأول، منذ فترة طويلة، عندما كان الطفل ســليمان يقف خارج الباب يراقبها، ويتراجع عن مجال رؤيتها في كل مرة كانت تحاول فيها أن تنظر إليــه. كانت الكلمات المكتوبة له على عجل بواســطة الحمال على قصاصة الورق هي عنوانه من دون شك،

غير أن العنوان كان في كولون - بشـــار. «قالوا إنه حاول الهرب. لكنه لم يذهب بعيدا جدا». كانت كل جزئية من تفصيلات سلوكه عندما اســـترجعتها بوضوح تبين طبيعته ونمط سلوكه لها. «إنه صغيـــر جدا لكي يكون جنديا»، قالت لنفســـها. «لن يأخذوه إلى الجندية»، لكنها كانت تعرف أنهم سوف يفعلون.

كان إبهامها ساخنا ومتورما، وبدا في بعض الأحيان أن خفقان إبهامها كان متزامنا تقريبا مع اهتزاز العربة من جانب إلى آخر. نظرت إلى البقع القليلة الباقية من الضوء في السماء، كانت هذه البقع بلا لون. «كان سيقدم على فعلته هذه إن آجلا أو عاجلا»، قالت محاولة أن تقنع نفسها.

«ربمـــا في عام آخر»، قال القائد. رأت ابتســـامتها اليائســـة الملتوية في زجـــاج النافذة المعتم المجاور لوجهها. ربما ســـيكون ســـليمان من بين المحظوظين، أول الجنود الذين يســـقطون في المعركة. «لو كان الموت هو الشـــيء الوحيد المؤكد تماما في زمن الحـــرب»، فكرت بامتعـــاض، «فلن يكون الحـــزن والنحيب مؤلما جدا». بدأ القطار، رحلة الصعود الطويلة إلى أعلى قمة الهضبة، وهو يتمايل ويصدر صوتا كالأنين.

بعد الظهيرة مع أنتيوس

أنــت أردت رؤيتي؟ ما قالــوه لك صحيح. اســمي. «نتيوز». وينادونني بالعملاق الأفريقي منذ بدأت القتال. ما الذي أستطيع أن أفعله لك؟ هل رأيت البلدة؟ إنها ليســت بالمكان الســيئ. أنت محظوظ فالرياح لا تهب هذه الأيام. لدينا رياح ســيئة، تعبر من هنا، لكن من دونها تكون الشــمس شديدة الحرارة. أرجوس؟ لم أسمع هذا الاسم من قبل. لم يسبق لي أبدا الذهاب إلى الجانب الآخر.

رجــل يدعى إيراكلي؟ نعم، نعــم، كان موجودا هنا. كان هذا منذ زمن بعيد. إنني أتذكره. حتى أننا قمنا بالتعارك معا.

قتلني! هل هــذا هو ما قاله لهم عني عند عودته إلى هناك؟ فهمت. وعندما جئت أنت إلى هناك سمعت أنني مازلت على قيد الحياة، ولذلك أردت مقابلتي؟ نعم.

لِمَ لا نجلس في هذا المكان؟ يوجد ينبوع في الســاحة به أبرد مياه في البلدة. أنت تســأل عن إيراكلي. لا، لم يواجه مشكلات هنا، ماعدا خســارته معركته. لماذا يرغبُ أحــد في مضايقته؟ رجل بمفرده. أنت لم تره من قبل. سوف تدعه يمضي في سبيله. لــن تضايقه. فقط الهمجيون هم الذين يهاجمون غريبا يمشــي بمفرده. يقتلونه ثم يتقاتلون على مئزره الذي يســتر عورته. نحن نــدع الناس يمضون في طريقهــم من دون كلمة من جانبنا. إنهم يجيئون من جانب ويعبرون إلى الآخر في حال سبيلهم. هذه هي الطريقة التي نفضلها. مســالمة وصداقة مع كل شــخص. لدينا

قول سائر: لا تؤذِ إنسانا إلا إذا عرفت أن بإمكانك قتله، وعندئذ اقتله بسرعة. في الجزء العلوي حيث موطني الأصلي نحن قساة وخشـــنون أكثر من هؤلاء الموجودين هنا في الجزء السفلي على الساحل. لدينا حياة أكثر مشقة وقسوة، لكننا أصحاء بدنيا أكثر. انظر إليّ، ستجدني تقريبا من سن والدك. لو أنني عشت حياتي كلها تحت هنا في الساحل لما كانت حالتي العامة مثلما هي عليه الآن. ومع ذلك فأنا لا شـــيء بالمقارنة بما كنت عليه منذ عشرين عامـــا. في تلك الأيام كنت أذهب إلى كل احتفال وأقدم العروض للناس. فأرفع ثورا بيد واحدة وأضربه بين قرنيه باليد الأخرى، ليسقط صريعا. الناس يحبون رؤية هذا. في بعض الأحيان كنت أكسر عوارض خشبية برأسي، وكان هذا أمرا مألوفا جدا وشائعا أيضا، لكن الثور كان من الطقوس الدينية، وبالطبع، كان الثور هو مـــا يود الناس رؤيته أكثر من غيره من العروض. لم يوجد هناك أحد لم يسمع عني.

هل تأخذ بعضا من حبات الجوز؟ أنا آكلها طوال اليوم. أحصل عليها من العمق من داخل الغابة. هناك أشجار فوق، أكبر من أي أشجار رأيتها أنت من قبل.

كان هذا على الأقل منذ عشرين عاما مضت حين جاء مارا من هنـــا، لكنني أتذكره، أتذكره جيدا. ليس لأنه كان جيدا إلى درجة مـــا كمقاتل، لكن لأنه كان مجنونـــا جدا. ليس بإمكانك الحيلولة دون تذكرك رجلا مجنونا مثل إيراكلي.

لـــديَّ المزيد من حبات الجوز. لديَّ مـــلء جوال، جوال مملوء عن آخره. هذا صحيح، النكهة المميزة ليست بالمرة مثل أي شيء

آخر. أنا أفترض أنكم ليس لديكم مثل هذه النكهة في الجانب الآخر.

لن أكون سعيدا إلاّ إذا اصطحبتك إلى فوق حيث الغابة، إذا رغبت في رؤيتها. إنها ليست بعيدة. ألا تمانع في القليل من التسلق إلى أعلى؟

بالطبع لم ينشئ أي صداقات هنا، غير أن رجلا مثله ليس في استطاعته تكوين صداقات؛ كان ممتلئا جدا بكثير من الأفكار العظيمة عن نفسه حتى أنه لم يكن يرانا على الإطلاق. كان يعتقد أننا جميعا همجيون، وعلى استعداد لازدراد قصصه بسذاجة. حتى قبل القتال كان كل فرد يضحك منه. قوي، نعم، لكنه ليس مقاتلا جيدا. مفرط بشناعة في تفاخره، وكذاب فظيع. وجاهل.

سوف نستدير هنا ونصعد هذا الطريق. إنه يتحدث طوال الوقت. إذا صدقته، فلن تجد هناك شيئا لا يمكنه القيام به، ويقوم به أفضل من أي شخص آخر.

سوف ترى مشاهد ممتعة في الطريق. حافة العالم. أي أحاسيس ستخلقها فيك، هنا في نهاية المطاف أنت الذي تعودت على أن تكون في الوسط نهاية المطاف؟ لا بد من أنها إحساسات مختلفة.

جاء إيراكلي إلى المدينة من دون أن يلحظه أحد. لا بد من أنه كان معه القليل من النقود، لأنه كان قد بدأ في مصاحبة رجلين أو ثلاثة، كنت على معرفة بهم، وكان يقابلهم كل يوم ويدفع لهم ثمن مشروباتهم. لقد حدثوني عنه، وذهبت برفقتهم ذات يوم

فقــط لأرى كيف يبدو، وليس لمقابلتــه. أدركت على الفور أنه لم يكن جيدا. ليس جيدا كمقاتل، وكرجل. حتى أنني لم آخذه بجدية كافية كغريم للتحدي. كيف لك أن تأخذ رجلا على محمل الجد عندما تكون له لحية تبدو مثل الصوف الذي يغطي الخراف؟

ظــل بالقرب مــن البلدة لفتــرة ورآني وأنا أقتــل القليل من الثيران. وقد قاتلت لمباراة أو مباراتين أيضا في أثناء وجوده هنا، وبدا أنه قد جاء كل مرة لمراقبتي. الشيء الثاني الذي عرفته هو أنه دعاني إلى مصارعته. كان هو من رغب في المباراة. كان هذا صعب التصديق. وماذا أيضــا، قالوا لي إنه كان يريد أن تأجيل هذه المباراة لأنني لم أكن بعد في مستوى الشخص الذي يعرض عليــه التحدي للنــزال. وكان من المســتحيل أن يقبل عقلي ذلك البتة.

كل هــذه الأرض التي تراها فوق هنا في الأعلى هي ملك لي. هــذه الأرض وأيضا الغابــة الموجودة إلى أعلــى. أنا أتجنب أي شــخص. أحب الســير والتجوال، ولا أرغب في رؤية الناس في أثناء سيري، رؤيتي لهم تجعلني عصبيا. كنت قد اعتدت قتال أي شخص أقابله. على الأقل كان ذلك في البداية.

عندمــا كنــت صبيا صغيرا فــي قريتي كنت أحــب الذهاب متأخرا بعــد الظهيرة إلى صخرة كبيــرة، وأجلس عليها وأنظر إلى أســفل الوادي وأتظاهر بأن الأعداء قادمون. أدعهم يصلون إلى نقطة محددة، وعندئذ أبدأ في دحرجة الصخور إلى أســفل الجبل لأتمكن من إصابتهم. كنت أقتلهم في كل مرة. وقد أمسك بــي والدي ذات مرة ونلت عقابي. مــن المحتمل أنني قد أصبت

بعض الخراف أو الماعز، أو حتى بعض الرجال هناك في أسفل. لكنني لم أمت على يد إيراكلي، كما يمكنك أن ترى، لا يهم ما يقوله إيراكلي. أريدك أن تنظر إلى أشجاري. انظر إلى حجم جذع هذه الشجرة. تتبعه إلى أعلى، أعلى، أعلى، إلى حيث تبدأ الأفرع الأولى. هل سبق لك أن رأيت أشجارا بهذه الضخامة في أي مكان؟

عندما تقدمت في العمر قليلا تعلمت كيف أصرع العجل الصغير، وفي ما بعد الثور. في ذلك الوقت كنت قد بدأت ممارسة القتال. لم أخسر حتى الآن بعد. لقد نسوا أن اسمي كان «نتيوز» وبدأوا ينادونني بـ «العملاق». ليس بسبب حجمي، بالطبع. أنا لست شديد الضخامة. لكن لأن أحدا لم يهزمني في أي مباراة. جاءوا من كل الأماكن المحيطة بنا، وبعد ذلك من أماكن بعيدة. أنت تعرف ما يفعلونه عندما يسمعون عن مقاتل لم يخسر أبدا. إنهم لا يصدقون بطريقة أو بأخرى أنهم سوف يفشلون في التمكن من هزيمته. وهو ما كان عليه الأمر مع إيراكلي. لم أقابله حتى موعد المصارعة، لكنني سمعت كل شيء عنه من أصدقائي. قال لهم إنه قد درسني، وإنه يعرف كيف يهزمني. لم يقل كيف كان سيفعل هذا. حتى أنني لم أفلح على الإطلاق في أن أعرف ما الذي اعتقد أن في مقدوره القيام به حتى بعد انتهاء المصارعة.

لا، أنا لست ميتا. أنا مازلت البطل. في إمكان أي شخص هنا أن يخبرك. إنه لمن السيئ جدا أنك لم تقابل إيراكلي بنفسك. لن تندهش كثيرا. ستدرك أن كل ما قاله عندما عاد إلى وطنه لا

يعدو أن يكون ما أراد هو أن يحكيه، ولا شـــيء أكثر من هذا. إنه لا يستطيع قول الحقيقة إن أراد أن يقولها.

هــل أنت متعب؟ إنه تسـلق مرهق، إن لم تكـن معتادا عليه. المصارعة نفســها؟ تلك المعركة لم تدم طويلا. كان مشغولا جدا محاولا تطبيــق النظام الذي تدرب عليه جيــدا. كان نظامه أن يرجــع القهقــرى أولا، ثم يقتــرب مني وفقط يضــع يديه عليَّ ويتوقف عن فعل أي شـــيء. لم أقو على فهم ما الذي كان يحاول فعله. كان الحشد من العامة يســخرون. فكرت لدقيقة: إنه من النوع الذي يجد متعته بهذه الطريقة، يمرر يده فوق صدر غريمه ويعتصر خصــره. إنه الآن لا يحبها لأنني ضحكت وصرخت في الحشـــد. كان غاية في الجدية طوال الوقــت. وأنا كنت مخطئا على كل حال. هل نسير بسرعة أكبر من اللازم؟ وأنت تحمل هذا الجراب الثقيل على خصرك. بإمكاننا المضي ببطء مثلما تريد. ليس هناك وجه للاستعجال.

هذه فكرة جيدة. لِمَ لا نجلس لدقيقة ونســتريح؟ هل تشــعر بأنك على ما يرام؟ لا. لا شيء. اعتقدت أنك تبدو شاحبا قليلا. ربما يكون الضوء. الشمس لا تصل إلى هنا في الأسفل أبدا.

كان هذا فقــط بعد المصارعة حيــث أخبرني أصدقائي بما أراد إيراكلــي أن يفعلــه. بدلا من محاولــة طرحي، كان الأحمق المخبول يحاول أن يرفعني عن الأرض ويحملني في الهواء! ليس إلى الحد الذي يُمكِّنه من إلقائي بطريقة جيدة، لكن فقط لمجرد رفعي إلى فوق. إنه من الصعب التصديق، أليس كذلك؟ لكن هذا هــو ما كان يدور في عقله. كان هذا هو نظامه العظيم. لماذا؟ لا

تســـألني «لماذا». أنا أفريقـــي. لا أعرف ما الذي يدور في عقول أهل بلدك.

خذ المزيد من الجوز. لا، لا. إنها لن تؤذيك. إنه الهواء. إقليمنا لا يناسب أناسا من الجانب الآخر. بينما كان يحاول التفكير كيف يرفعني أجهزت عليه، وسحبوه بعيدا.

هل ســـنمضي قدما أم أنك ترغب في الانتظار قليلا في هذا المـــكان؟ هل مازلت غير قـــادر على التنفس؟ هنـــا في الغابة لا يتوافر هواء.

ألا تعتقـــد أنه يجب علينا الانتظـــار قليلا؟ بالطبع، إذا أردت المضي، يمكننا الســـير ببطء. دعني أساعدك على النهوض. إنه مؤسف جدا عدم قدرتنا على بلوغ مسافة أبعد، الأشجار الكبيرة توجد في أعلى هذا الاتجاه.

نعم، سَـــحَبوه بعيدا، وظل ثلاثة أيام راقدا على حصيرة قبل أن يغـــادر المكان هنا. فـــي النهاية ترنح وهو يعـــرج بقدميه إلى خارج البلدة مثل الكلـــب، مصحوبا بضحكات الجميع عليه على امتـــداد الطريق. تســـتطيع أن تعلق بي. لن أدعك تســـقط. أنت تســـير بصورة جيـــدة. فقط حافظ على تقدمـــك. لم ينظر إلى اليمين أو اليســـار فـــي طريقه إلى خارج البلـــدة. لا بد من أنك سعيد لاعتلائك الجبال.

اهـــدأ. أولا القدم الأولى، ثم القدم الأخرى. أنا لا أدري إلى أين أذهب. أخشى ألاّ يكون هناك ماء في المكان. سوف نحصل على قليل منه بمجرد وصولنا إلى البلدة. سوف تكون على ما يرام. أعتقد أنه قفل عائدا من حيث جاء. لم نره هنا ثانية على أي حال.

هل يبدو أننا سـرنا مسـافة طويلة؟ إنها دقائق قليلة فقط. تستطيع أن تميز الطريق لكنك لا تعرف أين أنت؟ لِمَ يجب عليك أن تعـرف أين أنت؟ إنها ليسـت غابتك. اهـدأ. خذ خطوة، ثم خطوة، ثم خطوة.

أنت على صواب. إنها الصخرة حيث كنا جالسـين منذ دقائق قليلة مضت. كنت أتسـاءل إن كنت ستتمكن أنت من ملاحظتها. بالطبـع أنـا أعرف طريقـي! اعتقدت أنه مـن الأفضل لك أن تسـتريح مرة ثانية قبل أن نبدأ سيرنا إلى البلدة. هذا صحيح، فقط اسـتلق هناك، في ذلك المكان. ستكون بحالة جيدة بمجرد أن تنال قسطا قليلا من النوم. المكان هادئ تماما هنا.

لا، إنك لم تنم لفترة طويلة. بمَ تشعر الآن؟ جيد. كنت أعرف أن قليـلا من النوم سـوف يجعلك في حالة جيدة. أنت لسـت معتادا على الهواء هنا. أنا لا أعتقد أنك كنت تحمل شيئا.

ليـس هناك داع لتقطب بين عينيك هكذا. أنت لا تعتقد أنني أخذته، أتعتقد هذا؟

كنـت أظن أننا كنا أصدقاء. لقد عاملتك كصديق. والآن أنت ترد إلي صنيعي.

أنا لـن أصحبك إلى أي مكان. انزل إلـى البلدة وحدك. أنا ذاهب في الاتجاه المضاد.

عد إلى بلدتك واحكِ لهم عني. يمكنك السير بصورة جيدة.

فقط استمر في تقدمك.

واخرج من الغابة بسرعة!

مجذوب(*)

الرجـل الـذي كان يقضي لياليه نائما فـي المقاهي أو تحت الأشجار أو حيثما اتفق أن يشعر بالنوم، تجول ذات صباح خلال شوارع البلدة. وقد وصل في تجواله إلى ساحة السوق، حيث كان مجذوب عجوز يرتدي أسـمالا باليـة يتقافز مرحا أمام العامة، وهو يصرخ ويطلق النبوءات في الهواء. وقف الرجل يراقبه حتى انتهـى العجوز من جمـع المال الذي أعطاه لـه الناس. فأذهلته رؤيته لمقدار المال الذي جمعه المجنون، ولأنه لم يكن لديه شـيء آخر ليفعله، قرر أن يتبعه.

قبل أن يخرج من السـوق تقريبا تنبه إلى أن هناك مجموعة من الأولاد الصغار كانوا يسرعون من تحت الأقواس للسير بحذاء المجذوب، الذي واصل السير في طريقه إلى الأمام، ينشد ويرتل وهو يلـوح بصولجانه، وبين الفينة والأخـرى كان يهدد الأطفال الذين كانوا يقتربون منه بشـدة. كان يسـير خلف المجذوب على مبعـدة منه، ورأى العجوز وهو يدخـل إلى عدة محلات، ويخرج في كل مـرة بأوراق نقدية في يـده، كان يعطيها على الفور إلى أحد الأولاد الصغار.

عندئذ خطر له أنه كان هناك الكثير ليتعلمه من هذا المجذوب. كل ما كان عليه عمله هو دراسة سلوك العجوز والإنصات بعناية إلى الكلمات التي كان يتلفظ بها. ثم مع الممارسـة سـيصبح في إمكانه القيام بنفس الإشـارات والإيمـاءات والصياح بالكلمات

(*) وردت بالعربية [المترجم].

نفســـها . بدأ يبحث عـــن المجذوب كل يـــوم ويتعقبه حيثما ذهب فـــي البلدة. بعد شـــهر من تعقبه له قرر أنـــه قد أصبح على أتم الاستعداد لوضع معرفته موضع التطبيق.

ســـافر إلى الجنوب إلى مدينة أخرى لـــم يكن قد ذهب إليها من قبل. وهناك استأجر حجرة رخيصة جدا عند المجزر وبعيدة من وســـط المدينة. ومن سوق الأشياء المستعملة اشترى جلبابا(*) قديما باليا، ثم مضى إلى الحدادين ووقف يشاهدهم بينما كانوا يصنعون له صولجانا طويلا مثل الذي كان يحمله المجذوب.

فـــي اليوم التالي، بعد أن تمرن لفترة من الوقت، ذهب إلى البلدة وجلس في الطريق عند الساحة الخارجية لأكبر مسجد فيهـــا . لبرهة فقط كان ينظر إلـــى الناس الذي يمرون بعيدا . ببطء بدأ في رفع ذراعيه إلى الســـماء، ثم اصطنع إشـــارات بهما . لم يلتفت إليه أحد من المارة. طمأنه هذا، لأنه كان يعني أن تنكـــره كان ناجحا . عندما شـــرع في إطلاق الكلمات نظر المارة تجاهـــه، لكنهم بدوا كأنهم عاجزون عـــن رؤيته، وكانوا ينتظـــرون فقط للاســـتماع لما كان يقولـــه. كان يصيح لبعض الوقـــت بعبارات قصيرة من القرآن الكريم. وهو يحرك عينيه في حركة دائرية وقد ترك العمامة تسقط على وجهه. بعدما صرخ متوعدا بكلمتي النـــار والدم عدة مرات خفض ذراعيه ثم أحنى رأســـه، ولم ينبس بكلمة. كان الناس ينصرفون، لكن ليس قبل أن يقذف إليه الكثيـــر منهم بعملات معدنية أمامه على الأرض.

(*) وردت بالعربية [المترجم].

جرّب في الأيام التالية أجزاء أخرى من المدينة. لم يكن مكان جلوسه مهما. فقد كان الناس كرماء معه بنفس الدرجة في كل مكان آخر. لم يكن يريد المخاطرة بالدخول إلى المحلات والمقاهي حتى أصبح على يقين من أن المدينة اعتادت على وجوده. في يوم من الأيام اندفع بشكل هائج عبر الشوارع، وهو يرفع صولجانه إلى السماء ويصرخ: «سيدي رحال هنا! يقول لكم سيدي رحال تهيأوا لعذاب النار!» كان الهدف من هذا إطلاق اسم على نفسه ليتذكره أهل البلدة.

بدأ في الوقوف في مداخل المحلات. إذا سمع شخصا ما يشير إليه على أنه سيدي رحال، يخطو إلى الداخل، وينظر بحدة إلى صاحب المحل، ومن دون أن ينطق بكلمة، يمد يده، ليعطيه الرجل مالا، فيستدير وينصرف خارجا.

لسبب ما لم يكن الأطفال يتبعونه. كان سيغدو سعيدا لو أن مجموعة منهم كانوا برفقته، مثل المجذوب العجوز، لكنه بمجرد أن يتحدث معهم، كانوا يخافون ويفرون مبتعدين. إن الأمر هكذا أكثر هدوءا، قال لنفسه، لكنه في قرارة نفسه كان منزعجا جدا. ومع ذلك، فقد جنى نقودا أكثر مما اعتقد أن في مقدوره كسبه. بمرور الوقت هطلت الأمطار الأولى، وكان قد جمع مقدارا كبيرا من المال، فترك صولجانه وجلبابه البالي في حجرته عند المجزر، ودفع إلى المالك إيجار عدة أشهر مقدما. وانتظر حتى حلّ الليل، ثم أغلق الباب خلفه واستقل إحدى الحافلات عائدا إلى مدينته الأصلية.

في البداية اشترى تشكيلة متنوعة من الملابس. عندما أصبح حسن الهندام خرج وبحث عن منزل مناسب، وسرعان ما وجده.

كان صغيرا وكان ما تبقى لديه من مال كافيا لتسديد ثمن المنزل. أثث حجرتين واستعد لقضاء الشتاء وهو يأكل ويدخن مع جميع أصدقائه القدامى.

عندما سألوه أين كان طوال الصيف الماضي، تحدث عن حفاوة وكرم أخيه الثري الذي يسكن في «تازة»(*). كان صبره قد نفد بالفعل انتظارا لتوقف الأمطار. عندئذ تأكد بما لا يدع مجالا للشك من أنه قد استمتع بالفعل بمهنته الجديدة.

انتهى فصل الشتاء أخيرا. فحزم حقيبته وأخبر أصدقاءه بأنه ذاهب في رحلة عمل. ومضى إلى حجرته في تلك البلدة الأخرى. كان جلبابه وصولجانه هناك حيث تركهما.

تعرف عليه في تلك السنة عدد أكبر من الناس. وأصبح أكثر جرأة فصار يدخل المحلات من دون أن يتوقف عند المداخل. كان أصحاب المحلات متلهفين إلى إظهار تقواهم أمام الزبائن، فكانوا يعطونه دائما المزيد من المال أكثر مما كان يعطيه المارة.

وفي أحد الأيام قرر إجراء اختبار. أوقف سيارة أجرة، وعندما ركب جأر: «يجب عليّ الذهاب إلى ضريح سيدي العربي! بسرعة!» السائق الذي كان يعلم أنه لن يحصل على أجرته، وافق رغم ذلك، وانطلق صوب الطريق إلى بستان أشجار زيتون يقع فوق تل بعيد عن البلدة.

أخبر سائق السيارة الأجرة بأن ينتظر وقفز إلى الخارج. ثم بدأ في التسلق لمسافة طويلة إلى أعلى التل في اتجاه الضريح. نفد صبر السائق فانصرف. في طريق عودته إلى البلدة أخطأ

(*) مدينة في شمال المغرب [المترجم].

منعطفا واصطدم بإحدى الأشجار. وعندما سمحوا له بالخروج من المستشفى أذاع بين الناس أن سيدي رحال هو السبب في انحراف السيارة عن الطريق. تحدث بعض الرجال في هذا الأمر لفترة من الوقت، وتذكروا المجاذيب الآخرين الربانيين الذين كانوا يصبون لعناتهم أو يضعون سحرهم في محركات وفرامل السيارات. غدا اسم سيدي رحال على ألسنة كل الناس، وأنصت الناس باحترام لثرثرته ولغوه.

جمع في ذلك الصيف مالا أكثر من السنة الماضية. فعاد إلى مدينته واشترى منزلا أكبر ليقيم فيه، بينما أجَّر منزله القديم. وفي كل سنة كان يشتري المزيد من المنازل والأراضي، حتى غدا واضحا في النهاية أنه قد أصبح بالفعل غنيا جدا.

عندما بدأت الأمطار الأولى في الهطول كان يخبر أصدقاءه بعزمه على السفر إلى الخارج. ثم يرحل سرا، ولا يدع أحدا يودعه. كان مسرورا بنمط حياته، وبالحظ السعيد الذي حالفه في أن يكون قادرا على الاستمرار في هذا النمط. كان يفترض أن الله لا يمانع إذا هو تظاهر بكونه واحدا من مجاذيبه المتدينين. كان المال فقط هو المكافأة التي يحصل عليها من جراء منح الناس فرصة ممارسة إحسانهم.

في أحد فصول الشتاء وصلت حكومة جديدة إلى السلطة وأعلنت أنه سيتم إخلاء الشوارع من جميع الشحاذين. تحدث عن هذا الموضوع مع أصدقائه، واعتبر الجميع أن هذا شيء ممتاز. ووافقهم على رأيهم، لكن الأخبار حرمته من النوم في الليل. أن يخاطر بفقدان كل شيء عند عودته، وهذا بالضبط

هو ما كان يريد أن يفعله، كان أمرا مستحيلا. فاستسلم بحزن لقضاء الصيف في بلدته.

لم تكد الأسابيع الأولى من فصل الربيع تمضي حتى أدرك كم كان قريبا إلى قلبه، الخروج في الليل واستقلال الحافلة في ليلة رائعة مرصعة بالنجوم والمضي إلى المدينة الأخرى، وراح يتأمل مدى الارتياح الذي كان يغمره في كل مرة لكونه قادرا على نسيان كل شيء والعيش كما لو كان سيدي رحال. لقد بدأ يفهم الآن أن حياته كانت ممتعة فقط لأنه كان على دراية بأنه في لحظة معينة سيتركها ليحيا حياته الأخرى.

عندما أصبح الطقس حارا بدأ يشعر بالتوتر بشكل متزايد. وراح يشعر بالملل وفقد شهيته للطعام. وعندما لاحظ أصدقاؤه التغيير الذي طرأ عليه، نصحوه بالسفر، مثلما كان يفعل دائما. قالوا له إن الناس يعرفون أنهم سوف يموتون لو توقفوا عن ممارسة ما اعتادوا عليه. كان يستلقي في أثناء الليل وهو يشعر بالقلق، وحينئذ عقد العزم بينه وبين نفسه على العودة سرا. وبمجرد اتخاذه القرار أحس بأنه عاد أفضل حالا بكثير. كان كما لو أنه حتى ذلك الحين في سبات عميق، واستيقظ منه فجأة: فأعلن لأصدقائه أنه سيسافر إلى خارج البلدة.

في تلك الليلة أغلق منزله واستقل الحافلة. وفي اليوم التالي مضى يهرول في فرح خلال الشوارع ليجلس في مكانه الأثير بالقرب من المسجد. نظر إليه بعض المارة وعلقوا في ما بينهم قائلين: «لقد عاد مرة ثانية، برغم كل شيء، ألا ترى؟».

قضى النهار كله جالسا هناك في هدوء، يجمع المال. عند نهاية عصر ذلك اليوم، ونظرا إلى أن الطقس كان شديد الحرارة، انحدر إلى نهر خارج بوابات البلدة، للاستحمام. لمح بينما كان يخلع ملابسه، خلف بعض شجيرات الدفلى، ثلاثة من رجال الشرطة ورآهم يهبطون نحوه باتجاه ضفة النهر. ومن دون انتظار أمسك بخفيه، وطرح جلبابه على كتفه، وبدأ يعدو.

كان بين الحين والآخر يتخبط في المياه، وفي أحيان أخرى ينزلق في الطين فيسقط. كان باستطاعته سماع الرجال وهم يصيحون في أثره. لم يطاردوه لمسافة بعيدة جدا، لأنهم كانوا قد انفجروا في فاصل من الضحك. ولأنه لم يكن على دراية بهذا، فقد واصل عدوه، على امتداد النهر، حتى تقطعت أنفاسه فكان عليه أن يتوقف. ارتدى جلبابه وانتعل خفيه، وراح يفكر: لا يمكنني أن أرجع إلى البلدة، أو إلى أي بلدة أخرى، بهذه الملابس.

واصل سيره بخطوات أبطأ. عندما حلّ المساء شعر بالجوع، لكن لم يكن هناك أناس أو بيوت على مرمى البصر. فنام تحت شجرة، يغطيه فقط جلبابه البالي.

كان جوعه قد ازداد في صباح اليوم التالي. نهض، واستحم في النهر، ومضى في طريقه ثانية. سار طوال ذلك اليوم تحت الشمس الحارقة. في وقت متأخر من بعد الظهر جلس ليستريح. شرب القليل من ماء النهر ونظر من حوله إلى الخلاء. فرأى فوق التل من خلفه ضريحا محطّما على نحو جزئي.

عندما استراح، تسلق نحو المبنى. كان هناك قبر بالداخل، في وسط حجرة ذات قبة كبيرة. جلس وراح ينصت. كانت

الديكة تتصايح، وسمع النباح العارض للكلاب. تخيل نفسه يجري إلى القرية، ويصرخ في أول رجل يقابله قائلا: «أعطني كسرة خبز، إكراما لمولاي عبدالقادر!» أغلق عينيه.

عندما استيقظ كان في وقت الشفق تقريبا. خارج باب الحجرة وقفت مجموعة من الأولاد الصغار، يراقبونه. عندما رأوه يستيقظ، ضحكوا ووكز بعضهم بعضا. قذف إليه أحد الأولاد بقطعة خبز جافة، فسقطت بجواره. وسرعان ما صاحوا قائلين: «إنه يأكل الخبز! إنه يأكل الخبز!».

راحوا يلهون بهذه الطريقة لفترة من الوقت، يقذفون إليه بحفنات من التراب وحتى نباتات مجتثة من الأرض وقطع من الخبز. كان بوسعه أن يقرأ في عيونهم الدهشة، والخبث، والاحتقار، ووميضا ثابتا من لذة التملك عبر هذه العواطف المتباينة والمتبدلة. فكر في المجذوب العجوز، فسرت رعشة خلال جسده. فجأة انصرف الأولاد. سمع صرخات صاخبة على بعد مسافة بينما كانوا يتسابقون عائدين إلى القرية.

منحه الخبز بعض العافية. فنام حيث كان، وقبل أن ينبلج ضوء الصباح رحل ثانية على امتداد النهر، وهو يشكر الله على أن سمح له باجتياز القرية من دون أن يُمكّن أحدا من رؤيته. فهم أن الأطفال قد انصرفوا عنه فقط لأنهم تبينوا أنه لم يكن مستعدا لهم، حتى يمكن أن يجعلوا منه لعبة في أيديهم. فكر في هذا بشكل متزايد، وتمنى بشكل أكثر حرارة ألاّ يعرف ما الذي يكون عليه المجذوب الحقيقي.

بينمـــا كان ينعطف بعـــد الظهر مع مجـــرى النهر، أصبح فجأة إزاء بلدة. قادته حاجته اليائسة إلى الطعام إلى السوق مباشـــرة. ولم يلتفت إلى تحديق النـــاس إليه، دخل إلى دكان صغير وطلب سلطانية حساء. وعندما انتهى منها دفع الثمن، ودخـــل إلى دكان آخر لتناول طبق يخنة. في المكان الثالث أكل لحما مشويا على الفحم. ثم قصد سوق الخبز لشراء رغيفين ليحملهمـــا معه. وبينما كان يدفع ثمنهما، ربت شـــرطي على كتفه وســـأله عن أوراق إثبات شخصيته. لم تكن معه أوراق. ولم يكن هناك ما يقال. ســـجنوه في قسم الشرطة في حجرة صغيـــرة كريهة الرائحة في ســـرداب المبنـــى. قضى في ذلك المكان عدة أيام وليال من العذاب. عندما أخرجوه بعد انقضاء تلك المدة واســـتجوبوه، لم يقو على إخبارهم بالحقيقة وبدلا من ذلك تجهم قائلا: «أنا سيدي رحال».

أوثقوا يديه ودفعوه في مؤخرة شاحنة. بعد ذلك في المستشفى اقتادوه إلى زنزانة رطبة حيث يوجد بها رجال يحدقون ويرتعدون ويصرخـــون. تحمل ذلك الوضع لمدة أســـبوع، ثم قـــرر أن يطلع المسؤولين على اسمه الحقيقي. لكن عندما كان يطلب أن يأخذوه إليهـــم، كان الحراس يضحكون فقط، وكانـــوا يقولون في بعض الأحيان: «في الأســـبوع القادم»، لكنهم في العادة، لم يردوا على الإطلاق.

مرت الشـــهور. كان يعيش خلالها مـــع المجانين، إلى أن جاء وقت لم يعد يخطر في باله على الإطلاق، الذهاب إلى المسؤولين لإخبارهم بحقيقته. وفي النهاية توقف عن التفكير في الأمر.

علال(*)

كان قد ولِدَ في الفندق الذي كانت أمه تعمل به. كان الفندق يضم ثلاث غرف مظلمة تطل على فناء خلف البار. في الوراء كانت هناك باحة أخرى أصغر فيها العديد من الأبواب. وهناك حيث كان الخدم يعيشون، أمضى علال طفولته.

كان اليوناني الذي يمتلك الفندق قد طرد أم علال. حيث كان مستاء منها لأنها، كانت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وجرؤت على إنجاب طفل بينما كانت تعمل عنده. لم تقل من كان الأب، وأغضبه تفكيره في أنه لم يجن أي فائدة من الوضع بينما كانت الفرصة متاحة لديه. أعطى الفتاة أجر ثلاثة أشهر وطلب منها أن تذهب إلى بيت أسرتها في مراكش. ونظرا إلى أن الطباخ وزوجته قد أحبا الفتاة وعرضا عليها أن تبقى معهما لفترة من الوقت، فقد وافق اليوناني حتى يكبر الطفل بدرجة كافية تسمح بتحمل مشاق السفر. بقيت الفتاة في الباحة الخلفية بضعة أشهر مع الطباخ وزوجته، ثم اختفت في أحد الأيام تاركة الطفل وراءها. ولم يسمع أحد عنها بعد ذلك.

بمجرد أن صار علال كبيرا بدرجة تمكنه من حمل الأشياء دفع به الزوجان إلى العمل. ولم تمض فترة طويلة قبل أن يتمكن من إحضار دلو من مياه البئر التي تقع خلف الفندق. لم يكن لدى الطباخ وزوجته أولاد، لذلك فقد كان علال يلعب بمفرده.

عندما أصبح أكبر بعض الشيء بدأ في التجول فوق الهضبة

(*) وردت بالعربية [المترجم].

العارية في الخارج. ولم يكن هناك شيء في الأعالي سوى الثكنات، وكانت محاطة بسـور عال مصمت مـن الطوب الأحمر. وكل ما عدا ذلك كان موجودا تحت في الوادي: البلدة، والحدائق، والنهر الذي يخترق في اتجاه الجنوب الآلاف من أشـجار النخيل. كان بمقدوره أن يجلس في بقعة أو على صخرة عالية بعيدة فتتسنى له رؤية الناس في الأسفل وهم يسيرون في أزقة البلدة. لم تسبق له زيارة المكان إلاّ في ما بعد فرأى ما كان عليه أهلها. ولأن أمه كانت قد تركته ورحلت فقد أطلق عليه الناس ابن الحرام، وكانوا يسـخرون عندما ينظرون إليه. وبدا له بهذه الطريقة أنهم كانوا يأملـون في تحويله إلى خيال، كـي لا يضطروا إلى التفكير فيه ككائـن موجود وواقعي ينبض بالحيـاة. هكذا كان ينتظر بخوف وترقـب الوقت الذي سـيضطر فيه إلى الذهـاب في كل صباح إلى البلدة لكي يعمل. فقد كان حتى الوقت الراهن يسـاعد في أعمال المطبخ ويقوم بتقديم الخدمات للضباط في الثكنات، كما كان يخدم بعض السائقين العابرين الذين كانوا يمرون بالمنطقة، وفي المقابل كان يحصل على بعض البقشيش في المطعم، وطعام وسكن مجاني في حجرة صغيرة بمسكن الخدم، لكن اليوناني لم يكن يعطيه راتبا. في النهاية عندما بلغ سنا أصبح فيها مثل هذا الوضع مخزيا، ذهب من تلقاء نفسـه إلى البلدة في الأسفل وبدأ يعمل، بصحبة أولاد آخرين من مثل سنه، في مساعدة الناس في صنع قوالب الطوب اللبن لاستخدامها في بناء منازلهم.

كان العيش في البلدة يشـبه إلى حد كبيـر ما كان قد تخيل أنه سـيكون عليه. أقام لمدة سنتين في حجرة خلف محل حدادة،

يعيش حياة خالية من الشجار ويدّخر أي مال لم يكن مضطرا إلى إنفاقه على نفسه ليبقى على قيد الحياة. وظل حتى ذلك الوقت بعيدا عن عقد أي صداقات، فضلا عن أنه وطّد داخله كراهية كاملة لأهل البلدة، الذين لم يسمحوا له أبدا أن ينسى أنه كان ابن خطيئة، وبالتالي فهو ليس كالآخرين، بل مجرد «مسخوط»(*) - ملعون. ثم وجد بيتا صغيرا، ليس أكثر من كوخ، في بساتين النخيل خارج البلدة. كان الإيجار زهيدا ولم يكن هناك من يقطن في الجوار. فذهب للعيش هناك، حيث كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الريح خلال الأشجار، وكان يتجنب أهل البلدة بقدر المستطاع.

ذات مساء في فصل الصيف الحار، وبعد الغروب بوقت قصير، كان علال يمشي تحت الأقواس التي كانت تواجه الميدان الرئيسي للبلدة. وعلى بعد خطوات قليلة أمامه كان هناك رجل عجوز يرتدي عمامة بيضاء يحاول أن ينقل جوالا ثقيلا من إحدى كتفيه إلى كتفه الآخر. وفجأة سقط الجوال على الأرض، وراح علال يحدق بينما كان شكلان داكنان ينسلان من خارج الجوال واختفيا في الظلال. انقض الرجل العجوز على الجوال وأغلق طرفه الأعلى، وفي الوقت نفسه بدأ يصيح قائلا: «فتشوا عن الثعابين! ساعدوني في العثور على الثعابين!»

التفت أناس كثيرون بسرعة إلى المكان ثم قفلوا عائدين من حيث أتوا. ووقف آخرون عن بعد، وهم يراقبون. وصرخت قلة منهم في الرجل العجوز: «اعثر بسرعة على ثعابينك وأبعدها

(*) وردت بالعربية [المترجم].

عــن هذا المكان! لماذا جئت بها إلـــى هنا؟ إننا لا نريد ثعابين في هذه البلدة!»

كان الرجل العجــوز يقفز هنا وهناك جيئة وذهابا، ثم التفت إلى علال قائلا: «راقب هذا من أجلي لدقيقة، يا بني». وأشــار إلى الجوال الملقى على الأرض عند قدمه، والتقط الرجل العجوز سلة كان يحملها، وذهب بسرعة إلى ركن قريب في الزقاق. وقف علال في مكانه حيث كان. ولم يمر أحد.

لــم تمض فترة طويلــة حتى عاد الرجل العجــوز، وهو يلهث ظافرا. وعندما رآه المــارة الواقفون في الميدان مرة ثانية، بدأوا يصيحــون، لكن هــذه المرة كانوا يصيحون فـــي علال: «دل ذلك «البرّانـــي» على الطريق إلى خارج البلدة! فليس لديه أي حق في حمل تلك الأشياء هنا. إلى الخارج! إلى الخارج!»

التقط علال الجوال الكبير وقال للرجل العجوز، «اتبعني».

غادرا الميدان ومضيا عبر الأزقة حتى أصبحا على مشــارف البلدة. عندئذ رفع الرجل العجوز بصره إلى أعلى، فرأى أشجار النخيل الداكنة في مقابل منظر الســماء الشــاحبة في الأمام، فالتفت إلى الولد بجانبه.

فقال لــه علال مرة ثانيــة، «اتبعني»، وانعطف إلى اليســار علـــى امتداد طريق وعر أفضى إلـــى بيته. فوقف الرجل العجوز متحيرا.

«بإمكانك أن تبقى معي الليلة»، قال له علال.

«وهذان؟» قال الرجل العجوز وهو يشير إلى الجوال في بادئ الأمر ثم إلى السلة بعد ذلك. «يجب ألاّ يفارقاني».

ابتسم علال ابتسامة عريضة وقال: «بإمكانك أخذهما معك».

وبينما كانا يجلسان في البيت نظر علال إلى الجوال والسلة، وقال: «أنا لست مثل بقية الناس هنا».

عندما سمع الرجل العجوز الكلمات التي نطق بها شعر بأنه على ما يرام. وصدرت عنه إيماءة ساخطة، وقال: «إنهم يخشون السير عبر الميدان بسبب الثعابين. لقد رأيتهم».

حكّ الشيخ العجوز ذقنه، ثم قال: «إن الثعابين مثل البشر».

«عليك أن تحاول التعرف عليها وعندئذ يمكنك أن تكون صديقا لها».

تردد علال قبل أن يسأل: «هل سبق لك أن أخرجتها؟»

«بشكل دائم»، قال الرجل العجوز بحماس. «فليس من المستحسن أن تظل في الداخل بهذه الطريقة. يتعين أن تكون في صحة جيدة عندما أصل بها إلى تارودانت(*)، وإلاّ فإن الرجل هناك لن يشتريها مني».

وبدأ يحكي قصة طويلة عن حياته كصياد للثعابين، ويشرح أنه في كل عام يسافر إلى تارودانت لرؤية ذلك الرجل الذي يشتريها منه لصالح «العيساويين» حواة الثعابين في مراكش. أعدّ علال الشاي بينما كان يستمع إلى قصته، ثم أحضر سلطانية بها معجون الكيف لتناولها مع الشاي. في ما بعد، عندما كانا يجلسان من دون تكلف وسط دخان الغليون، ضحك الرجل العجوز ضحكة خافتة، فالتفت علال ونظر إليه.

«هل من الممكن أن أخرج الثعابين؟»

(*) مدينة في جنوب غرب المغرب [المترجم].

«حسنا».

«لكن يجب عليك أن تجلس وتبقى هادئا في مكانك. قرّب المصباح».

فك الرجل العجوز الجوال، وهزه قليلا، ثم عاد إلى حيث كان جالسا. عندئذ أخذ علال يراقب في صمت تلك الأجسام الطويلة وهي تتحرك إلى الخارج بحذر في اتجاه الضوء. كانت هناك ثعابين أخرى بين ثعابين الكوبرا منقوشة بزخارف شديدة الدقة والبراعة بحيث بدت كأن فنانا رسمها ولونها. كانت هناك حية حمراء ذهبية، تتلوى بكسل في منتصف الأرضية، وجدها علال جميلة بشكل استثنائي. وبينما كان يحدق فيها، شعر برغبة قوية في امتلاكها لنفسه وأن يحتفظ بها بشكل دائم.

بدأ الرجل العجوز يواصل حديثه قائلا، «لقد قضيت حياتي كلها مع الثعابين. بإمكاني أن أخبرك ببعض الأشياء عنها. هل تعرف أنك إذا أعطيتها المعجون فإن بإمكانك أن تجعلها تفعل كل ما تريد أنت، ومن دون أن تنطق لها بكلمة؟ أقسم بالله!»

ارتسمت ملامح الشك على وجه علال. إنه لم يشكك في مدى صحة عبارة الرجل، بل في مدى قدرته على الاستفادة منها، ولأن فكرة الاحتفاظ بالثعبان في ذلك الوقت هي بالفعل التي كانت تجول في رأسه، فقد رأى أن كل ما عليه أن يفعله أن ينفذها على وجه السرعة، نظرا إلى أن الرجل العجوز سوف يرحل في الصباح. وشعر فجأة بضجر عظيم يستبد به.

«أبعدها حتى أتمكن من طهو العشاء»، قال هامسا. ثم جلس متعجبا من السهولة التي التقط بها الرجل العجوز كل ثعبان

منها من رأســه لإعادته إلى الجوال. وللمرة الثانية أسقط اثنين من الثعابين في الســلة، وكان أحد هذيــن الثعبانين، كما لاحظ عــلال، الثعبان ذو اللون الأحمر. وتخيل أن بإمكانه أن يرى لمعان حراشفه من خلال غطاء السلة.

بينما كان جالســا يعكف على إعــداد الوجبة حاول علال أن يفكر في أمور أخرى. لكن، نظرا إلى أن مشهد الثعبان ظل عالقا في ذهنه على الرغم من كل شيء، بدأ في تدبر طريقة للحصول عليــه. وبينمــا كان مقرفصا عند النار في أحــد الأركان، خلط بعض معجون الكيف في سلطانية اللبن ووضعها جانبا.

واصــل الرجل العجــوز حديثه، «كان من حســن الحظ أنني تمكنــت مــن العثور على الثعبانــين بهذه الطريقة، وفي وســط البلدة. لا يمكن أن تكون على يقين أبدا من الكيفية التي يتصرف بها الناس عندما يكتشفون أنك تحمل ثعابين. في أحد الأيام في القلعة أخذوها مني كلها وقتلوها، الواحد تلو الآخر، أمام عيني. حصيلة سنة من العمل. كنت مضطرا إلى العودة إلى بلدتي وبدء كل شيء مرة أخرى».

عندما كانا يتنــاولان طعامهما، لاحظ علال أن ضيفه ينتابه النوم. «كيف ستسير الأمور؟» تساءل علال. لم تكن هناك طريقة مســبقة لأن يعرف على وجــه التحديد، ما الذي يجب أن يفعله، كما أن مشــهد قيامه بالإمساك بالثعبان كان يفزعه. «بوسعه أن يقتلني»، فكّر.

بمجرد انتهائهما من الطعام، واحتســائهما الشــاي وتدخين بضع سباســي من الكيف، اســتلقى الرجل العجوز فوق الأرض

وقــال لعلال إنه كان يرغب في أن ينــام. فنهض علال وقال له، «مــن هنا!»، وقاده إلى حصيرته الخاصة في حجرة النوم. تمدد الرجل العجوز وراح في النوم بسرعة.

خلال نصف الساعة التي أعقبت نومه ذهب علال عدة مرات إلى حجرة النوم وتفرس في ما بداخلها، لكن لا الجسد في برنسه ولا الرأس المغطى بالعمامة صدرت عنهما أي حركة تذكر.

أخــرج أولا بطانيتــه، وبعدما عقد ثلاثة مــن أطرافها معا، بســطها علــى الأرض وجعل الطــرف الرابع منهــا في مواجهة الســلة. ثم وضع ســلطانية اللبن ومعجون الكيف فوق البطانية. بينما كان يفك الرباط عن غطاء الســلة ســعل الرجل العجوز. وقف علال ثابتا، منتظرا ســماع الصوت الأجش مرة ثانية. هبّ نسيم خفيف، فجعل أفرع أشــجار النخيل يحتك بعضها ببعض محدثا صوتا خشــنا، لكن لم يكن هنــاك صوت آخر من حجرة النوم. تسلل إلى الجانب البعيد من الحجرة وجلس مقرفصا عند الحائط، ونظره مثبت على السلة من دون أن يحيد عنها.

خُيّــل إليه أكثر من مــرة أن الغطاء قد تحرك قليلا، لكن في كل مرة كان يعترف بأنه كان مخطئا. ثم أمسك أنفاسه. فقد كان هناك ظل يتحرك عند قاعدة الســلة. لقد تســلل أحد الثعابين إلى الخارج من الطرف الآخر. وظل منتظرا فترة قبل أن يواصل تقدمه نحو مصدر الضوء، لكن حينما كان يفعل هذا، نطق علال بالشكر والحمد؛ فقد كان هو الثعبان الأحمر الذهبي.

عندما قــرر الثعبان في النهاية التوجه إلى الســلطانية، لف دورة كاملة حول حافتها، وهو ينظر إليها من جميع الجهات، قبل

أن يخفض رأسه نحو اللبن. كان علال يراقب، وهو يخشى من أن تزعج الرائحة الغريبة لمعجون الكيف الثعبان فينفر منها. ظل الثعبان هناك من دون أن يتحرك.

انتظر نصف ساعة أو أكثر. ظل الثعبان في المكان نفسه ولم يتزحزح عنه، ورأسه مندس في السلطانية. من وقت إلى آخر كان علال يلقي بنظرة سريعة على السلة ليتأكد من أن الثعبان الآخر لا يزال راقدا في داخلها. واصل النسيم إحداث الاحتكاك بأفرع أشجار النخيل معا. وعندما رأى علال أن الوقت قد حان، نهض ببطء، وهو يراقب السلة، حيث كان من الواضح أن الثعبان لا يزال راقدا فيها، فانحنى ولملم أطراف البطانية الثلاثة معا. ثم رفع الطرف الرابع منها، حيث انزلق كل من الثعبان والسلطانية إلى داخل قاع الكيس المرتجل. تحرك الثعبان قليلا، لكن علال لم يعتقد أن هذا كان بدافع الغضب. كان يعرف على وجه التحديد أين سيخفيه: بين الصخور عند قاع النهر الذي جفت مياهه.

فتح الباب وهو ممسك بالبطانية أمامه وخرج تحت ضوء النجوم. لم يكن المكان بعيدا عن الطريق الممتد عبر مجموعة من أشجار النخيل العالية، ثم انعطف إلى اليسار إلى داخل الوادي. وهناك في مكان ما بين الجلاميد، حيث يمكن أن تكون الحزمة غير مرئية، دسها بعناية، ثم عاد مسرعا إلى البيت. كان الرجل العجوز مستغرقا في النوم.

لم يكن هناك سبيل للتأكد من أن الثعبان الآخر لا يزال هناك في السلة، لذلك التقط علال برنسه ومضى إلى الخارج. ثم أغلق الباب خلفه واستلقى على الأرض لينام.

قبل أن تشــرق الشمس كان الرجل العجوز قد استيقظ، وظل ممدا في الحجرة وهو يســعل. نهض علال منتفضا، ومضى إلى الداخل، ثم شــرع في إشــعال النار في الموقد. بعد دقيقة سمع الرجل العجــوز يصرخ: «لقد هربا مرة ثانية! تســللا إلى خارج السلة! ابق في مكانك وسأعثر عليهما!»

لــم تمض فترة طويلة قبل أن يهمهم الرجل العجوز في رضى صارخا: «عثرت على الثعبان الأســود!» لم يرفع علال بصره عن الركــن حيــث كان جاثيا، فاقترب منه الرجــل العجوز وهو يلوح بالكوبرا. «يجب عليّ أن أعثر الآن على الثعبان الآخر».

وضع الثعبان في مكانه المعتاد وواصل البحث. عندما اتقدت النار في المجمرة، التفــت علال ناحيته وقال: «هل تريد مني أن أساعدك في البحث عنه؟»

«كلا، كلا! ابق حيث أنت».

قــام علال بغلي الماء وأعد الشـــاي، والرجــل العجوز لايزال يزحـــف على ركبتيه، وهو يرفع الصناديــق ويدفع الأجولة بعيدا عن أماكنها. انحلت عمامته وجرى العرق على وجهه.

«تعال لتشرب الشاي»، قال علال.

لم يبد أن الرجل العجوز قد سمعه في المرة الأولى. بعد ذلك نهــض ودخل إلى الحجرة، حيث أعاد لف عمامته. وعندما خرج جلس بجوار علال، وتناولا إفطارهما.

«إن الثعابــين ذكية جدا»، قال الرجل العجــوز. «بإمكانها أن تنســل وتدخل في أماكن لا وجود لها على الإطلاق. لقد حركت كل شيء في هذا البيت».

بعدما فرغا من تناول الطعام، ذهبا إلى الخارج وراحا يبحثان عن الثعبان في ما بين جذوع أشــجار النخيل النامية بالقرب من البيــت. عندما اقتنع الرجل العجوز بــأن الثعبان قد ضاع، عاد بحزن إلى البيت.

وفي النهاية قال: «كان هذا الثعبان جيدا. والآن عليّ أن أذهب إلى تارودانت».

ودع أحدهما الآخر وأخذ الرجل العجوز جواله وسـلته وسار في الممر نحو الطريق السريع.

طوال اليوم، بينما كان علال في عمله، كان منشــغلا بالتفكير في الثعبان، لكنه لم يكن قادرا على الوصول إليه حتى حان موعد الغروب فذهب إلى الصخور في الوادي وأخرج البطانية. وحملها عائدا إلى البيت في حال عالية من الانفعال.

وقبــل أن يفك البطانية، ملأ طبقــا عريضا بمزيج من اللبن ومعجون الكيف، ثم وضعه على الأرض. وأكل هو نفسه ملء ثلاث ملاعق من المعجون ثم جلس يشاهد ويراقب، وهو ينقر بأصابعه على طاولة الشــاي الخشــبية الواطئة. حدث كل شيء بالضبط كمــا كان يأمل. خرج الثعبان ببطء من عمق البطانية، وبســرعة شديدة وجد طريقه إلى الطبق حيث أخذ يشرب الخليط. واصل علال النقر بأصابعه طوال الفترة التي كان الثعبان يشرب فيها، وعندما انتهى الثعبان ورفع رأســه لينظر إليه، توقف الفتى عن النقر، فزحف الثعبان عائدا إلى البطانية.

في وقت لاحق من ذلك المساء وضع علال المزيد من اللبن في الطبق، وراح ينقر ثانية على الطاولة. بعد فترة قصيرة من الوقت

برز رأس الثعبان، وفي النهاية ظهر الثعبان بالكامل، وتكرر نمط الأداء نفسه مرة ثانية.

في خلال تلك الليلة وكل ليلة تلتها، كان علال يجلس مع الثعبان، وهو يحاول بصبر لا حدود له أن يجعل الثعبان صديقا له. لم يحاول أن يلمسه قط، لكنه بعد فترة قصيرة أصبح قادرا على استدعائه، وإبقائه أمامه بقدر ما يحب، فقط بمجرد النقر على الطاولة، ثم يصرفه وقتما يشاء. وقد استخدم معجون الكيف طوال الأسبوع الأول أو نحو ذلك، ثم جرب هذا الروتين من دونه. وفي النهاية كانت النتيجة واحدة. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يطعمه سوى اللبن والبيض فقط.

وذات مرة بينما كان صديقه ممددا وهو يتلوى برشاقة أمامه، بدأ يفكر في الرجل العجوز، فتمكنت منه فكرة طردت كل الأشياء الأخرى من ذهنه. لم يكن هناك أي معجون كيف في البيت لعدة أسابيع، فقرر أن يعد بعضا منه. اشترى المكونات في اليوم التالي، وبعدما انتهى من عمله في البلدة، أعد المعجون. وعندما فرغ من إعداده، خلط كمية كبيرة منه مع اللبن في سلطانية ووضعها على الأرض ليأكل الثعبان. ثم أكل هو نفسه أربع ملاعق، وتناول بعدها بضع رشفات من الشاي.

خلع ملابسه بسرعة، وحرّك الطاولة حتى يتسنى له الوصول إليها من دون عناء، وتمدد عاريا فوق الحصيرة بجوار الباب. في هذه المرة واصل الطرق على المائدة، حتى بعدما انتهى الثعبان

من شـــرب اللبن. ظل الثعبان ثابتا، وهو ينظر إليه، كما لو أنه لم يعد هناك شك في أن النقر المألوف كان يصدر عن ذلك الجسم البني الممدد أمامه.

وعندمـــا لاحظ علال أنه حتى بعـــد انقضاء فترة طويلة بقي الثعبان في مكانه، وهو يحدق فيه بعينيه الحجريتين الصفراوين، بدأ علال يقول له مرارا وتكرارا: «تعال هنا». كان يعرف أنه ليس بإمكانه أن يســمع صوته، لكنـــه كان يعتقد أن بمقدوره أن يحس بما في ذهنه عندما كان يستحثه على هذا. «بإمكانك أن تجعلها تقـــوم بما تريد، ومن دون أن تقول كلمة»، كان الرجل العجوز قد أخبره بهذا من قبل.

على الرغم من أن الثعبان لم يتحرك، فقد اســـتمر علال في تكرار أمره، لأنه كان يعرف أنه سوف يأتي إليه. وبعد انتظار آخر طويل، خفض الثعبان رأســـه فجأة وبدأ في التحرك نحوه. وصل الثعبـــان إلى وركه وانزلق بمحاذاة ســـاقه بطولها. ثم صعد فوق ســـاقه وظل ممددا لبعض الوقت فوق صدره. كان جسده ثقيلا وفاترا، وكانت حراشـــفه ناعمة ملساء على نحو رائع. بعد فترة من الوقت توقف، وتكوّر في ذلك المكان بين رأسه وكتفه.

بمرور الوقت اســـتحوذ معجون الكيف علـــى عقل علال كلية. اســـتلقى في حالة من البهجة الخالصة، وهو يشعر برأس الثعبان قبالة رأسه، ولم يعد يفكر في شيء إلاّ أنه والثعبان كانا معا. كانت الأشـــكال التي تتشـــكل وتذوب خلف جفنيه قد بدت مماثلة لتلك الأشـــكال التي كانت تغطي ظهر الثعبان. بين الحين والآخر كانت تلك الأشكال تدور معا في حركة كبيرة محمومة إلى أعلى ثم تتبعثر

منحلّة إلى شظايا سرعان ما كانت تتحول إلى عين كبيرة صفراء، منقســمة عند المنتصف بوساطة بؤبؤ العين الرأسي الضيق الذي كان ينبض على إيقاع نبضاته. بعد ذلك كانت العين تتراجع، خلال تحول وتبدل الظلال وضوء الشــمس، حتى بقيت فقط الأشــكال المزينة لحراشــف الثعبان، وهي تندفع محتشــدة بإصرار متجدد بينما كانت تندمج ثم تنفصل. وفي النهاية عادت العين من جديد، بشــكل كبير جدا هذه المرة بحيث بدت من دون أي حواف حولها، وكان البؤبؤ قد اتســع ليشكل ثقبا واســعا تقريبا بحيث يسمح له بالدخول فيه. وبينما كان يحدق داخل هذا السواد، أدرك أنه كان ينجذب ببطء نحو الفتحة. وضع يديه بحيث تلامســان الســطح اللامــع المصقول للعين على كلا الجانبــين، وبينما كان يفعل هذا شعر بأنه ينجذب إلى داخلها. انزلق في الفتحة وابتلعه الظلام.

عندما اســتيقظ علال أحس بأنــه قد عاد من مكان ما بعيد جدا. فتح عينيه فرأى، على مقربة شــديدة منه، ما يشبه خصر وحش ضخم، مغطى بشعر خشن صلب. كان هناك اهتزاز متكرر في الهواء، مثل رعــد بعيد يتحرك بطريقة التفافية عند حواف الســماء. تنهد، أو تخيل أنه تنهد؛ لأن تنفســه لــم يند عنه أي صوت. ثم حرّك رأسه قليلا، محاولا أن يرى ما وراء كتلة الشعر المحاذية له. بعد ذلك رأى الأذن، وأدرك أنه كان ينظر إلى رأسه هو من الخارج. لم يكن يتوقع هذا، كان يأمل فقط في أن يقترب صديقه ويشاركه عقله. لكن الأمر لم يبد له غريبا على الإطلاق، فقط قال لنفســه إنه كان يرى في هــذه اللحظة بعيني الثعبان، بدلا من عينيه هو.

فهم الآن لماذا كان الثعبان حذرا منه: فقد كان الفتى من هذا المكان يبدو مخلوقا بشعا، بكتل الشعر المجعد على رأسه وتنفسه الذي كان يتردد داخله مثل عاصفة مفرطة البُعد.

بسـط نفسـه وانسـاب عبر الأرضية إلى الحجرة. كانت هناك ثغـرة في الجدار الطيني بدرجة تسـمح له بالخروج. وعندما دفع نفسـه خلالها، تمدد بالكامـل على الأرض في ضوء القمر الشـفاف، وهو يحدق في غرابة المشهد، حيث لم تكن الظلال ظلالا.

زحـف بمحاذاة جانب البيت ومضى في الطريق صاعدا نحو البلدة، مبتهجا بإحسـاس الحرية المختلف عن أي إحساس آخر أحـس به من قبل. لم يكن هناك إحسـاس بأن له جسـدا، لأنه كان مضمنـا تماما في الجلد الـذي كان يغطيه. كان من الرائع أن يداعب الأرض بمعدته الطويلة الممتدة بينما كان يتحرك على امتداد الطريق الصامت، وهو يشـم رائحة العروق الحادة لنبات الشـيح في الريـح. عندما ارتفع صوت المؤذن من المسـجد في سـماء القرية، لم يكن بإمكانه أن يسـمعه، أو يعـرف أن الليل سينتهي في غضون هذه الساعة.

عندما لمح رجلا أمامه، ترك الطريق واختبأ وراء صخرة حتى زال الخطر. لكن هناك بينما كان يقترب من البلدة بدأ الكثيرون من الناس يتواجدون، حتى أنه ترك نفسه يهبط نحو «الساقية»، ذلك المصـرف العميق الذي يوجد بمحـاذاة الطريق. وفي ذلك المكان كانت الأشـجار وكتل النباتـات الميتة تعوق تقدمه. كان ما زال يجاهد على امتداد أرض السـاقية، وهو يدفع نفسـه حول

الصخـــور وبين كتل الأغصان الجافة الملبـــدة التي خلفتها المياه، عندما بدأ الفجر يبزغ.

قدوم النهار جعله يشـــعر بالقلق والتعاســـة. تسلق إلى أعلى ضفة الساقية ورفع رأســـه ليتفحص الطريق. رآه رجل كان يمر به، فوقف برهة ســـاكنا تماما، ثم استدار وجرى إلى الخلف من حيث أتى. لم ينتظر علال فقد كان يريد الوصول إلى البيت الآن بأسرع وقت ممكن.

بمجـــرد أن أحس بصوت ارتطـــام حجر بالأرض في مكان ما خلفـــه، ألقى بنفســـه على الفور من فوق حافة الســـاقية وزحف إلى أســـفل الضفة. كان على درايـــة بالتضاريس في هذا المكان، فحيث كان الطريق يقطع الوادي، كانت هناك ماسورتان للصرف الصحي ليســـتا بعيدتين إحداهما عن الأخرى. كان هناك رجل يقف أمامه على مســـافة ممسكا بجاروف، وهو يحدق إلى أسفل في الساقية. فواصل علال التحرك، وهو يدرك أن عليه أن يصل إلى ماســـورة الصرف الصحي الأولـــى قبل أن يتمكن الرجل من الوصول إليه والتمكن منه.

كانت أرضية النفق الممتد أســـفل الطريـــق مضلعة بتموجات رملية صغيرة. وكان هواء الماسورة التي يتحرك خلالها له رائحة جبليـــة. ثمة أماكن فـــي هذا المكان كان بإمكانـــه الاختباء فيها، لكنه واصل التحرك، وســـرعان مـــا وصل إلى الطرف الآخر من ماســـورة الصرف الصحي. ثم واصل تحركه إلى الماسورة الثانية فمضى تحت الطريق في اتجاه آخر، إلى أن برز مرة ثانية وسط الســـاقية. كان كثيرون من الرجال خلفه وقد تجمعوا عند مدخل

الماســـورة الأولى، وكان أحدهم جاثيا على ركبتيه ورأسه وكتفيه في داخل الفتحة.

انطلق الآن إلى البيت في خط مستقيم عبر الأرض المنبسطة، وقد أبقى عينيه مثبتتين في حذر على كتل أشجار النخيل المجاورة لهذه الأرض المنبسطة. كانت الشمس قد أشرقت، وبدأت الأحجار تعكس ظلالا طويلة مائلة إلى الزرقة. فجأة ظهر ولد صغير من خلف جذوع أشــجار النخيل في الجــوار، رآه الولد، ففتح عينيه على اتســـاعهما وفغر فمه من شدة الرعب. فقد كان الولد على مقربة شديدة من علال إلى درجة أنه اندفع إليه مباشرة ولدغه في قدمه. جرى الولد بخطوات واسعة في انفعال نحو مجموعة الرجال عند الساقية.

أســـرع علال نحو البيت، ولم ينظر إلـــى الخلف إلاّ عندما وصـــل إلى الفتحة الموجودة في الطـــوب اللبن. كان عدة رجال يركضون نحوه من بين الأشـــجار. فاندس بســـرعة إلى داخل حجرة النوم. كان الجســـد الأســـمر لا يزال ممددا بالقرب من الباب. ولم يكن هناك متســـع من الوقت، وكان علال في حاجة إلى بعض الوقت ليعود إلى الجســـد، ليتمـــدد على مقربة من رأسه ويقول له: تعال هنا.

بينما كان يحدق في الحجرة حيث يرقد الجســـد، كان هناك طرق عنيـــف على الباب. كان الفتى قد وقـــف على قدميه عند أول الطـــرق، كما لـــو كان زنبركا قد تحرر فجأة، ورأى علال في يـــأس تعبير الرعب الكامل على وجهـــه، وكيف أن عينيه لا عقل خلفهمـــا. وقف الولد يلهث، وقبضتـــاه مضمومتان. انفتح الباب

وحدّق بعــض الرجال إلى داخل البيت. ثم خفض الفتى رأســه وهــو يصرخ ثم اندفع إلى الخارج عبــر فتحة الباب. تمكن أحد الرجال من الخروج بهدف الإمساك به، لكن توازنه اختل وسقط على الأرض. اســتداروا بعد لحظة وبدأوا يركضون خلف الشكل العاري خلال بستان أشجار النخيل.

حتــى عندمــا كانوا، يفقــدون أثره، من وقت إلــى آخر، كان بوســعهم ســماع صراخه، وعندئذ كانوا يتمكنون من رؤيته، بين جــذوع أشــجار النخيل، وهو لا يــزال يعدو. وفــي النهاية تعثر وســقط على وجهــه، عندئذ تمكنوا من الإمســاك به، وتقييده، وســتر عريه، ثم اصطحابه بعيدا، لإرســاله في أحد الأيام بعد ذلك مباشرة إلى المستشفى في برشيد.

بعد ظهر ذلك اليوم عادت المجموعة نفســها من الرجال إلى البيــت لاســتئناف البحث الذي كانوا قد عزمــوا عليه في وقت سابق. كان علال ممددا في حجرة النوم، ناعسا. عندما استيقظ، كانوا قد أصبحوا بالفعل في الداخل. فالتفت وانسل إلى الفتحة، فرأى رجلا كان ينتظر هناك خارج البيت، وفي يده هراوة.

انطلق الغضب الذي كان يعتمل في قلبه دائما، وانفجر في تلك اللحظة، وكما لو أن جســده كان سوطا، قفز إلى خارج الحجرة. كان الرجال الذين على مقربة منه يزحفون على أيديهم وركبهم، فشعر علال بالغبطة والســرور وهو يغرس نابيه في اثنين منهم قبل أن يتمكن الثالث من فصل رأسه بضربة فأس.

العين

منذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة جاء إلى هنا رجل للعيش في طنجة، كان من الأفضل له أن يبقى بعيدا عنها. فما حدث له لم تكن له يد فيه من دون شك، على الرغم من التلميحات الهامسة للمقيمين هنا من السكان المتحدثين بالإنجليزية. عادة ما تصدر عن هؤلاء الناس ردود أفعال مشابهة لتلك التي تصدر عن جماعات بدائية بعينها، عندما تحل البلية بفرد من أفرادها، فإن الآخرين يتفقون على عدم مد يد العون إليه، فلا يفعلون شيئا سوى النأي والجلوس للفرجة، وهم على يقين من أنه هو من أنزل المعاناة والشقاء على نفسه، وبالتالي يصبح هذا الشخص في المنطقة المحرمة، وغير صالح لتلقي المساعدة. في حالة هذا الرجل على وجه التحديد، أظن، أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يساعده، ومع ذلك، كان استنكار ما أوقعه فيه حظه السيئ، لا محالة قد جعل الأشهر الأخيرة من حياته أكثر مشقة من حيث التحمل.

كان اسمه دنكان مارش، قيل إنه جاء من فانكوفر. لم تسبق لي رؤيته، ولم تسبق لي معرفة أحد ادعى أنه قد رآه. ومنذ الوقت الذي تناهت إلى أسماعنا فيه قصة موته في دائرة حفلة الكوكتيل، شعر بعض السكان الأجانب الأقل تقديرا للمسؤولية بأنه قد أصبح لهم مطلق الحرية في أن يطلقوا العنان لميولهم في نسج الأساطير.

كان قــد جاء إلى طنجة بمفرده، واســتأجر بيتا مؤثثا على ســفح «جامع المقرى»(*) كان في غاية السهولة عليه العثور في تلك الأيام على بيت كهذا، وفي الوقت نفســه كان رخيصا في تكلفتــه، وفي تلك الفترة عين مغربيا في ســن المراهقة للعمل كحــارس ليلي للبيــت وملحقاته. كان البيــت مجهزا بطاهية وبســتاني مقيــم، لكن كليهما أعفي مــن خدمته، وحلت محل الطاهية امرأة أخرى بناء على اقتراح الحارس. ولم تمض على ذلك فتــرة طويلة حتى بدأ مارش في الإحســاس بالأعراض الأولــى لمرض في الجهاز الهضمي، أخذ يزداد معه على مدار الشــهور حتى أصبح أكثر تدهورا باستمرار. فنصحه الأطباء في طنجــة بالذهاب إلى لندن. ســاعده قضاء شــهرين في المستشــفى على التعافي نوعا ما. لم يحدث تشــخيص دقيق للحالــة، ومع ذلك، عاد إلى هنا، ليلبــث طريح الفراش. وفي النهايــة أرســل بالطائرة إلى كندا محمولا علــى نقالة، ولقي حتفه هناك بعد وصوله بوقت قصير.

في خلال كل هذا لم يكن هناك شيء غير عادي، فقد افترض أن مارش كان أحد ضحايا التســمم البطيء من جانب الموظفين المحليين. كانت هناك عدة حالات مماثلة طيلة العقود الخمســة التي مكثتها في طنجة. وفي كل حالة منها كان يقال إن الضحية الأوروبية نفســه، أو نفســها، وحدها الملامة، لتشجيعها الخادم على التآلف والحميميــة الزائدة. ما يبدو غريبا هو أن أحدا لم يأخذ المســألة أبدا على محمل الجد من حيث التقصي والبحث

(*) وردت بالعربية [المترجم].

عن المتهـم، لكن نظرا إلى انعدام الدليل لم تكن هناك أهمية أو غاية لمحاولة التحقيق.

ثمة مسـألتان في التفاصيل تكملان القصة. في فترة ما في أثناء مرضه، أخبـر مارش صديقا مقربا منـه بالترتيبات التي اتخذها لتوفير إعانة مالية لحارسـه الليلي في حال إذا ما تعين عليه هو نفسـه مغادرة المغرب مجبرا، وقد أعطى للولد خطابا موثقـا متعلقا بهذا الموضوع، لكن من الواضح أن الولد لم يحاول الضغط أبدا للمطالبة بحقه. جاء تقرير آخر من الطبيب هالسي، وهـو الذي رتّب لنقل مـارش من البيت إلى المطـار. كانت هذه المعلومة الصغيرة هي التي جعلت القصة، على الأقل بالنسبة إلي، تعود وتدب فيها الحياة مجددا؛ فوفقا لما ورد في تقرير الطبيب، كان باطنا قدمي مارش محفورين بطريقة مرتبة ومنظمة بشقوق عميقة على هيئة أشكال غير متقنة، وكانت الشقوق حديثة، لكن كان هناك بعض التلوث الميكروبي. اسـتدعى الطبيب هالسـي الطاهية والحـارس الليلي، فبدت عليهما الدهشـة والهلع عند رؤيتهمـا لقدمي صاحـب البيت، وكانا غيـر قادرين على تبرير هذه التشـوهات. في غضون أيام قليلة من رحيل مارش، عادت الطاهية والبستاني الأصليان، اللذان كان قد استغنى عنهما، إلى الإقامة في البيت، إثر مغادرة الاثنين الآخرين اللذين تركا البيت بالفعل عقب الحادث.

كان التسميم البطيء واضحا تماما، خصوصا في ضوء ملاحظة مارش عن تقديم المعونة للولد، لكن الأشكال المحفورة بالسكين في القدمين كانت عائقا في طريق أي مجموعة من الدوافع التي يمكن

أن يستنتجها المرء. فكرت في هذا الأمر. من الممكن أن يكون هناك بعض الشك في أن الولد كان مذنبا. فقد تمكن من إقناع مارش بطرد الطاهية التي كانت موجودة في البيت منذ البداية، على الرغم من أنه كان عليه الاستمرار في دفع أجرتها، واستئجار امرأة أخرى (في الأغلب من عائلته) لتقوم بطهي الطعام. تستمر عملية التسمم شهورا ولو كانت غير ملحوظة، ولم يكن هناك من هو في مكان أفضل لتولي مسؤولية هذه العملية من الطاهية نفسها. كان من الواضح أنها قد عرفت بالترتيب المالي الذي قد اتخذ لمصلحة الولد، وتوقعت المشاركة فيه. في الوقت نفسه، كانت الشقوق المتصالبة والدائرية في القدمين غير قابلة للتفسير. إن من دس السم البطيء صبور، وحذر، ومنظم، همه الرئيسي هو إبقاء الجرعة مؤثرة وأيضا تجنب ترك أي علامات مرئية. كان التهور والمخاطرة غير واردين عنده.

جاء وقت لم يعد الناس تأتي فيه على ذكر قصة دنكان مارش. أنا نفسي قليلا ما كنت أفكر فيها، فلم يعد يوجد لديّ المزيد من الافتراضات العملية الملائمة والمحتملة لأقدمها. ذات مساء ربما منذ خمس سنوات، جاء إليّ أحد الأمريكان المقيمين هنا بخبر مفاده أنه قد عثر على مغربي زعم أنه كان حارس مارش الليلي. كان اسم الرجل هو «العربي»، ويعمل نادلا في مطعم صغير في شارع جانبي يدعى «لا فان بيك». يبدو واضحا أنه كان يتحدث الإنجليزية بشكل سيئ، لكنه كان يفهمها من دون صعوبة. قال الأمريكي إن هذه المعلومة ستكون بمنزلة عون لي، في حال إذا ما شعرت بالرغبة في الاستفادة منها.

قلّبت الأمر في رأسي، وذات ليلة بعد ذلك بعدة أسابيع ذهبت إلى المطعم لرؤية العربي بنفسي. كان المكان مضاء بشكل خافت ومملوءا بالأوروبيين. تفحصت عمال المطعم الثلاثة. كان يشبه بعضهم البعض، فلكل منهم شارب أسود عريض، ويرتدون الجينز الأزرق، وقمصان خفيفة مفتوحة العنق. أعطاني أحدهم قائمة الطعام، تمكنت من قراءتها بصعوبة شديدة، حتى عندما وضعتها مباشرة تحت وهج مصباح المائدة الصغير. وعندما عاد الجرسون الذي أحضرها لي، سألت عن «العربي».

انتزع القائمة من يدي وترك المائدة. بعد لحظة ظهر نادل آخر من الثلاثي واقترب مني وناولني القائمة التي كان يحملها تحت ذراعه. طلبت ما أردته بالإسبانية. عندما أحضر الحساء تمتمت قائلا له إنني لم أكن أتوقع أن أجده يعمل في هذا المكان. أدهشه هذا، كان بوسعي أن أرى أنه كان يحاول أن يتذكرني.

«ولِمَ لا أعمل هنا؟» كان صوته ثابتا، من دون أن يتغير مستواه.

«بالطبع! لِمَ لا؟ كل ما في الأمر أنني تخيلت أنك تمتلك بازارا أو دكانا على الأقل».

كانت لضحكته شهقة معبرة عن الاستياء والسخط «بازار!»

عندما جاء بالطلب الثاني اعتذرت له عن تدخلي في شؤونه. لكنني قلت له إنني كنت مهتما، لأنني كان قد ترسخ لديّ اعتقاد منذ عدة سنوات بأنه قد تسلم ميراثا من سيد إنجليزي.

«هل تقصد السنيور مارش؟» كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما.

«نعم. هذا اسمه. ألم يعطك الرسالة؟ لقد أخبرني أصدقاؤه أنه قد فعل ذلك».

تطلع من فوق رأسي بينما قال: «لقد أعطاني خطابا».

«هل سبق لك أن أطلعت أحدا عليه؟» كان هذا تهورا وافتقارا للياقـة من جانبي، لكن في بعـض الأحيان يكون من الأفضل أن تمضي إلى الهدف مباشرة.

«لماذا؟ وما الفائدة من هذا؟ فالسـنيور مارش قد مات؟» وهزّ رأسه بشكل قاطع، وانتقل إلى مائدة أخرى. بمرور الوقت انتهيت مـن الكريم كراميل، وعندما انصرف معظم الزبائن، وبدا المكان أكثر عتمة، جاء إلى مائدتي ليرى إن كنت أرغب في تناول القهوة. طلبت فاتورة الحسـاب. وعندما أحضرهـا لي قلت له إنني أود كثيرا أن أرى الخطاب إن كان لا يزال في حوزته.

«بإمكانك أن تأتي ليلة غد أو أي ليلة، وسـوف أطلعك عليه. إنه في البيت».

شـكرته ووعدته بالعودة في غضون يومـين أو ثلاثة. كنت متحيـرا بينما كنت أغـادر المطعم. فقد بدا مـن الواضح أن النادل لم يعتبر نفسـه مسؤولا عن المتاعب التي لحقت بدنكان مارش. عندمـا اطلعت على الوثيقة، بعـد بضع ليال، لم أعد أفهم أي شيء.

لـم يكن خطابا، بل عريضة من النوع الذي يباع في أكشـاك السـجائر. تقول في بساطة ووضوح: لمن يهمه الأمر «أوافق أنا، دنكان وايت لو مارش، بموجب هذه الوثيقة على إيداع مبلغ مائة جنيه في حسـاب العربـي الريني، في مطلع كل شـهر، مادمت

أنـــا على قيد الحيـــاة». كانت موقعة وموثقة بحضور شـــاهدين مغربيين، وتحمل تاريخ الحادي عشر من يونيو ١٩٦٦. قلت بينما كنت أعيدها إليه: «ولم تعد عليك بأي فائدة».

هـــزّ كتفيه ودسّ الورقـــة في محفظته. «وكيف ســـتعود عليّ بالفائدة؟ فالرجل قد مات».

«إن هذا سيئ جدا»، قلت.

«ســـيرت»، في الاســـتخدام المغربـــي الدارج، تعنـــي المكتوب أو القضـــاء والقـــدر أكثر مما تعني المصادفـــة أو الحظ المحض البسيط.

كان بإمكاني في تلك اللحظة أن ألح فأسأله إن كانت لديه أي فكرة عن ســـبب مرض دنكان مارش، لكننـــي كنت في حاجة إلى مزيد من الوقت للتفكيـــر في ما كنت قد عرفته لتوي. قلت بينما كنت أنهض لأغادر، «أنا آسف لأن الأمور قد سارت بهذه الطريقة. ســـأعود خلال بضعة أيام». مدّ يده لـــي فصافحته. لم تكن لديّ آنذاك نية في العودة. ربما أعود قريبا أو ربما لا أرجع أبدا.

«مادمت على قيد الحياة». ظلت هذه العبارة تتردد في ذهني لعـــدة أســـابيع. من المحتمل أن مـــارش أورد هـــذه العبارة بهذه الطريقة ليســـهل فهمها على الشـــاهدين العدلين(*) من طنجة، اللذيـــن وضعـــا توقيعهما المنمق على الوثيقـــة، ومع ذلك لم يكن بمقدوري تفســـير الكلمات إلاّ بطريقة أكثـــر ميلودرامية. كانت الوثيقة بالنسبة إلي تمثل إقرارا قانونيا لوثيقة جرى إبرامها بين خادم وســـيده في حضورهما. أراد بها مارش مساعدة الحارس

(*) وردت بالعربية [المترجم].

الليلـــي، ووافق الحارس الليلي على طلب ســيده. لم يكن هناك شيء لأؤســس عليه مثل هذا الاستنتاج أو الفرض، وعلى الرغم مــن ذلك كنت أعتقــد أنني في الطريق الصحيــح. بدأت أؤمن بالتدريج أنه لو كان بوســعي التحدث مع الحارس الليلي، باللغة العربيــة وفي داخل البيت نفســه، فربما أكون في وضع يتيح لي رؤية الأمور بوضوح أكثر.

ذهبت ذات مســاء إلى مطعم «لا فان بك» ومن دون أن أجلس أشــرت إلى العربي أن يحضر إلى الخارج للحظة. وهناك سألته إن كان بإمكانه أن يعرف لي ما إذا كان البيت الذي كان السنيور مارش يسكنه لايزال خاليا حتى تلك اللحظة أم لا.

«لا أحد يســكن هناك في الوقت الراهن». توقف، ثم أضاف: «إنه خال من السكان. أنا أعرف الحارس الوصي».

كنت قد قررت، على الرغم من إلمامي الضعيف باللغة العربية، أن أتحــدث إليه بلغته، لذا قلت: «انظر. أريد أن أذهب معك إلى البيت حيث أرى أين حدث كل شيء. سأعطيك خمسة عشر ألف فرنك مقابل أتعابك».

كان قد فزع لســماعه للغة العربية، ثم تبدّل تعبير وجهه إلى الرضــا، وقــال: «من المفتــرض أن هذا الحارس لا يســمح لأي شخص بالدخول».

ناولته ثلاثة آلاف فرنك. «رتب هذا معه. وخمســة عشر لك عندما نغادر البيت. هل بإمكانك القيام بهذا يوم الخميس؟».

يجب عليّ أن أقول إن البيت قد بني في الخمسينيات عندما كان البناء الجيد ممكنا في ذلك الوقت. كان البيت منغرسا بشكل

متين وراسخ في سفح التل، والغابة مرتفعة من ورائه. اضطررنا إلى صعود ثلاث مجموعات من درجات السلم عبر الحديقة للوصول إلى المدخل. الحارس الوصي، وهو رجل جبلي(*) مقطب الجبين ويرتدي جلبابا بنيا، تبع خطواتنا عن كثب، وهو ينظر إليّ بارتياب.

كانت هناك شرفة عريضة فوق الطابق العلوي، تطل من جهة الجنوب الشرقي على المدينة والجبال. خلف الشرفة مرج ظليل ينتهي حيث تبدأ الغابة. كانت حجرة المعيشة واسعة ومضيئة ومزودة بأبواب على الطراز الفرنسي تطل على المرج. كانت روائح الجدران الرطبة والعفن الفطري تزكم الأنوف. القناعة الحمقاء بأنني كنت على وشك أن أفهم كل شيء تملكتني واستحوذت عليّ، ولاحظت أنني كنت أتنفس بسرعة أكبر. تجولنا داخل حجرة الطعام. كان هناك ممر في الخلفية، وكانت الحجرة التي نام فيها مارش مغلقة ومظلمة. كان هناك سلم عريض حلزوني يؤدي إلى طابق في الأسفل حيث كانت هناك حجرتا نوم إضافيتين ويستمر السلم في حلزونيته مؤديا إلى الأسفل حيث المطبخ وحجرات الخدم. كان باب المطبخ مفتوحا على فناء صغير أرضيته مفروشة بالحجارة وجدرانه العالية غطتها نباتات الفيلوديندرون(* *).

تطلع العربي إلى الخارج حيث الفناء ثم هزّ رأسه وقال في تجهم: «هذا هو المكان الذي بدأت فيه المشكلة كلها».

(*) وردت بالعربية [المترجم].

(* *) نبات أمريكي استوائي متسلق من عائلة الأرسيا، لأوراقه لون أخضر لامع وملمس ناعم، وغالبا ما يستخدم في تزيين المنازل [المترجم].

اندفعــت عبر المدخل وجلســت في الشــمس علــى دكة من الحديد المطاوع. «إن المكان رطب في الداخل. لماذا لا نجلس هنا في الخارج؟» قلت للعربي.

تركنا الحــارس الوصي وأغلق البيت. جلس العربي مقرفصا بشكل مريح على عقبيه قرب الدكة.

لم تكن لتحدث أي مشــكلة على الإطــلاق، لو كان مارش قد رضــي بياســمينة، الطاهية التي كان راتبها جــزءا من الإيجار، لكنها كانت طاهية مهملة وكان الطعام الذي تطهوه ســيئا. وقد طلب مارش من العربي أن يعثر له على طاهية أخرى.

«قلــت له من البداية إن لدى هذه المرأة التي تدعى مريم فتاة صغيــرة، وأن بمقدورها أن تتركها لبضعة أيام مع صديقات لها. لكنها ســتضطر في الأيام الأخرى إلــى إحضارها معها عندما تأتــي إلى العمل. وقال إن الأمر ليــس ذا أهمية، لكنه كان يريد منها أن تبقى هادئة».

اســتأجر المرأة. كانت ليومين أو ثلاثة في الأســبوع تصطحب الفتــاة معها، حيث كانــت تلعب في الفناء ويكون باســتطاعتها أن تراقبها. اشتكى مارش منذ البداية من أنها كانت مزعجة وكان يرسل الرسائل مرارا وتكرارا إلى مريم في الطابق السفلي، يطلب منها أن تسكت الطفلة. وفي أحد الأيام تسلل بهدوء حول البيت من الخارج ثم هبط إلى الفناء. وحبا على يديه وقدميه، ووضع وجهه في وجه الفتاة الصغيرة، وتجهم في وجهها بصورة وحشــية جدا إلى درجة أنهــا أخذت في الصراخ. عندما اندفعت مريم مســرعة إلى خارج المطبخ نهض مارش مبتسما ومشى مبتعدا. واصلت الفتاة الصغيرة

الصراخ والنحيب في ركن من المطبخ حتى أخذتها مريم إلى البيت. في تلك الليلة، وكانت لاتزال تبكي، أصيبت بحمى شـديدة. وظلت عدة أسـابيع متأرجحة بين الحياة والموت، وعندما تجاوزت مرحلة الخطر أخيرا، كانت قد فقدت قدرتها على السير.

أخذت مريم، التي كانت تتقاضى أجرا عاليا نسبيا، تستشير فقيهـا(*) تلو الآخر. وأجمعوا جميعا على أن «العين» قد أصابت الطفلـة، وكان من الواضح أن من أصابها هـو «النصراني»(* *) الـذي كانت تعمل عنده. كان يجب عليهـا أن تفعل ما قالوه لها، قـال العربي شـارحا، وكان أن تقوم بإعطاء مـارش مواد معينة سـيكون بإمكانها فـي النهاية أن تبطل السـحر. وقال لي وهو يحدق في وجهي بشـكل مريك، إن هذا كان ضروريا جدا. حتى لو كان السـنيور قد وافق علـى إبطال مفعول العين (وبالطبع لم تكـن مريم لتقدر على ذكر هذا إليه) فإنه لم يكن بإمكانه القيام بهـذا. ولم تكن العقاقير التي أعطتهـا له ضارة، بل مجرد دواء لجعله أكثر اسـترخاء بحيث عندما يأتي الوقت المناسب لفك أو إبطال السحر لا يبدي أي نوع من أنواع المعارضة.

في وقت ما أسرّ مارش للعربي أنه يشك في مريم ويعتقد أنها تضع مادة مخدرة في طعامه، وشـدّد عليه أن يكون حذرا ويقظا لها. وكانت الوثيقة الموقعة التي تضمن للعربي عيشة كريمة بمنزلة حافز لضمان مسـاعدته الفعالة هذه. ونظرا إلى أن العربي كان يعتقد أن المخاليط التي كانت تدسها مريم في طعام سيدها غير ضارة نسبيا، فقد طمأنه وتركها تواصل تسميمه بعقاقيرها.

(*) وردت بالعربية [المترجم].

(* *) وردت بالعربية [المترجم].

بعدمـــا تملكه التعـــب من الجلوس القرفصــاء، نهض العربي فجأة وبدأ يسير جيئة وذهابا، وهو يخطو بحرص فوق منتصف كل بلاطة حجرية. «عندما تعين عليه الذهاب إلى المستشفى في لندن، قلت لها: لقد أصبته الآن بالمرض. افترضي أنه لن يتمكن من العودة؟ فإنك لن تســتطيعي إزالة مفعــول العين أبدا. كانت قلقة بهذا الشــأن. «لقد فعلت ما كان باســتطاعتي»، قالت، «إن الأمر الآن بين يدي الله».

عندما عاد مــارش بالفعل إلى طنجـــة، حثها العربي على ســـرعة إنجاز الأمـــر، خصوصا أنها كانــت محظوظة بالقدر الكافـــي لأنه قد عـــاد. كان العربي يعتقد، حســـبما قال، أنه كان من الأفضل لصحة الســـنيور مارش لو أنها لم تستمر في معالجته لفترة طويلة.

لم أســـأل أي أســئلة بينما كان يتحدث، وقصدت أن أبقي وجهي خاليـــا من التعبير كلية، لاعتقـــادي أنه لو لاحظ أدنى علامة على الاســـتهجان فقد يتوقف. كانت الشمس قد غابت خلـــف الأشـــجار وكان الفناء يبعث القشـــعريرة في جســـدي فانتابتني رغبـــة قوية في النهوض والســـير جيئة وذهابا كما كان يفعل هـــو، لكنني اعتقدت أنه حتى هذا قد يتســـبب في مقاطعـــة كلامه. فبمجرد أن يتوقـــف التدفق فإنه قد لا يعود إلى الجريان ثانية.

وســـرعان ما صار مارش أســـوأ مما كان عليـــه في أي وقت مضى، آلام مبرحة في معدته وكليتيه. وظل وقتها في الســـرير، وكان العربي يحضر له الطعام.

عندما رأت مريم أنه لم يعد قادرا على مغادرة السـرير، حتى للذهاب إلى الحمّام، قررت أن الوقت قد حان للتخلص من سحر العين. في الليلة نفسها التي عقد فيها الفقيه مراسمه في منزلها في حضور الطفلة المشلولة، حضر أربعة رجال من عائلة مريم إلى المكان هنا في «جامع المقري».

«عندما رأيتهم قادمين، ركبت دراجتي البخارية وذهبت إلى المدينة. لم تكن بي رغبة في أن أكون هنا عندما يقومون بما انتووه. فالأمر لا يعنيني في شيء».

وقف ساكنا وهو يفرك يديه معا. بدأت في سماع صوت الريح الجنوبية الغربية عبر الأشجار، كان الوقت بعد الظهر.

«تعال، سأطلعك على شيء ما»، قال.

تسلقنا درجات جانبية من خلف البيت ووصلنا إلى شرفة تعلوها تعريشة. وكان خلف الشرفة مرج ممتد وسور من الأشجار.

«كان مريضا جدا ليومين متتاليين عقب الواقعة. وظل يطلب مني أن أتصل هاتفيا بالطبيب الإنجليزي».

«ألم تفعل ذلك؟».

توقف العربي عن السير ونظر إليّ. «كان عليّ أولا أن أقوم بتنظيف كل شيء. فمريم لم تكن تلمسه. كان ذلك في أثناء موسم تساقط الأمطار. وكان الطين والدم يغطيانه عندما رجعت إلى هنا ووجدته. في اليوم التالي أعطيته حماما وغيرت الملاءات والبطاطين. ونظفت البيت، لأنهم كانوا قد لوثوا كل شيء عندما أعادوه إلى هنا. تعال معي، وسترى إلى أين كان لهم أن يأخذوه».

عبرنا المرج وكنا نسير في حزام العشب الطويل الذي كان يطوق حدود أطراف الغابة. كان هناك ممر يؤدي إلى اليمين خلال شبكة من الشجيرات المنخفضة، فتابعنا سيرنا فيه، ونحن نخطو فوق الصخور وجذوع الأشجار المتساقطة حتى وصلنا إلى بئر حجرية كبيرة. انحنيت فوق الجدار الصخري المحيط بها فرأيت دائرة صغيرة من السماء منعكسة على صفحة الماء بعيدا إلى أسفل.

«كان يجب عليهم أن يجروه على طول الطريق كله إلى هنا، كما ترى، وأمسكوه بثبات فوق البئر مباشرة بينما كانوا يحفرون العلامات في قدميه، بحيث يسقط الدم في الماء. كان من الفأل السيئ أن يسقط الدم على جانب البئر. وكان عليهم أن ينقشوا العلامات نفسها التي كانت مرسومة في ورقة الفقيه لإنقاذ الفتاة الصغيرة. كان من الصعب جدا القيام بهذا خاصة في الظلام والمطر. لكنهم قاموا به. لقد رأيت الشقوق عندما كنت أحممه».

سألته بحذر إن كان قد رأى أي علاقة بين كل هذا وموت مارش. توقف عن التحديق إلى السور والتفت إلى الخلف. وبدأنا نمشي عائدين نحو البيت.

«لقد مات لأن ساعته قد حانت».

سألته «هل انفكّ السحر؟ هل استطاعت الطفلة المشلولة السير بعد ذلك؟» لكنه لم يسمع بشيء من هذا أبدا، لأن مريم ذهبت بعد فترة قصيرة جدا لتعيش مع أختها في قنيطرة.

عندما كنا في السيارة، في طريق عودتنا إلى المدينة، ناولته المال. فحدّق فيه لعدة ثوان قبل أن يدسه في جيبه.

تركتــه ينزل فـــي البلدة وقـــد تملكني إحســـاس غامض من الإحبـــاط وخيبة الأمل، ورأيت أنني لـــم أتوقع فقط، بل وتمنيت حقـــا، أن أجد شـــخصا ما قد يصلح لأن يكـــون مذنبا، ولكن ما الجريمـــة؟ لم تكـــن هناك أي نية في ارتـــكاب جريمة، مجرد أم تتخبـــط في ظلمة الجهل العتيـــق. فكرت في هذا الأمر وأنا في طريق عودتي إلى البيت مستقلا سيارة الأجرة.

في الغرفة الحمراء

عندما كنت أمتلك بيتا في سريلانكا، جاء أبي وأمي في أحد فصول الشتاء لرؤيتي. مبدئيا شعرت بقدر من تأنيب الضمير بسبب تشجيعي لزيارتهما. فربما كان لأي سبب من هذه الأسباب - الحرارة المستمرة، والطعام ومياه الشرب غير المعتادين، وحتى وجود عيادة للجذام على مسافة ربع ميل من البيت - تأثيره السلبي فيهما بطريقة أو بأخرى. لكنني كنت أبالغ في التقليل من قدرتهما على التكيف، فقد أبديا قدرة عالية أكبر مما كنت أظن، وكانا قانعين وراضيين كلية بكل شيء. على الرغم من عدم مبالاتهما بالافتقار إلى المياه الجارية في الحمامات، ومدحا بشكل مستمر الكاري الذي كان يقوم «أبوهامي» الطباخ المقيم، بإعداده. كان كلاهما في السبعينات من العمر، لم تغرهما مسافة أو أماكن اهتمام أكثر بعدا من جزيرتي الصغيرة. كان كافيا بالنسبة إليهما البقاء في البيت يقرآن، أو ينامان، أو يأخذان بضع غطسات وقت الشفق في المحيط، أو يذهبان في رحلات قصيرة على امتداد الساحل في سيارة أجرة. إذا توقف السائق، فجأة عند مزار أو ضريح لتقديم جوزة هند كقربان، كانا يغتبطان، وإذا التقيا مصادفة بمجموعة من الأفيال تتحرك بتثاقل على طول الطريق، كان يجب على السيارة أن تركن على مسافة بعيدة إلى الأمام، حتى يتمكنا من مشاهدتها تقترب ويمر الطابور من أمامهما. لم يكونا مهتمين بالتقاط الصور الفوتوغرافية، وقد جنبني هذا

ربما أشـــق عبء يقع على كاهل المرشـــد: الانتظار المتكرر حتى تنتهي الطقوس بين الإنسان والآلة. كانا حقا ضيفين مثاليين.

كانـــت كولومبو، حيث عاش النـــاس الذين أعرفهم، تبعد أقل من مائة ميل عن بيتـــي. صعدنا إلى كولومبو عدة مرات لقضاء عطلات نهاية الأسبوع، التي كنت أرتبها مسبقا مع أصدقائي عن طريق الهاتف. وهناك كنا نتناول الشـــاي في الشرفات العريضة لبيوت بعينها في «حدائق أشجار القرفة» الشهيرة، ونجلس لتناول العشاء مع أساتذة من الجامعة، وقساوسة بروتستانت، وتشكيلة من أعضاء الحكومة. (اســـتغرب كثيرون من الســـيرلانكيين من أننـــي ينبغـــي عليّ أن أخاطـــب والديّ باســـميهما الأولين، دود، وحنة، واســـتعلم العديد منهم عما إن كنـــت في الواقع ابنا فعليا لهمـــا أم بالتبني). كانت عطلات نهاية الأســـبوع هذه في المدينة حارة ومرهقة، وكنا ســـعداء دائمـــا بالعودة إلى البيت، حيث كان بإمكانهما استبدال ملابسهما بأخرى مريحة.

وفي أحد أيام الآحاد وقبل فترة قصيرة من عودتهما المنتظرة إلى أمريكا، قررنا مشاهدة سباقات الخيل في «جينتوتا»، حيث توجد هناك أيضا بعض حدائق النباتات التي أرادت حنة مشـــاهدتها. حجزت غرفتين في فندق «الشرق الجديد» في «جالي»(*) وتناولنا الغداء هناك قبل أن نغادر لمشاهدة السباقات.

كالعادة، بدأت أحداث الســـباقات متأخرة. كان المشـــاهدون، على أي حال، هم محور الاهتمام. مجموعة من النساء في أردية السواري الحريرية المتوهجة الألوان دفعن حنة للصياح من فرط

(*) ميناء في جنوب غرب سريلانكا [المترجم].

البهجة. كانت السباقات نفسها شيئا يبعث على الإحباط وخيبة الأمل. وبينما كنا نغادر أرض السباق، قال دود برضى: سيكون من الأفضل العودة إلى الفندق والاسترخاء.

«لكننا سنذهب إلى الحدائق النباتية»، ذكّرته حنة، ثم أضافت «أريد فقط أن ألقي نظرة سريعة عليها».

لم يكن دود متلهفا. «تلك الأماكن تغطي الكثير من المنطقة، أنتِ تعرفين»، قال.

«فقط سنلقي نظرة سريعة على الداخل ثم نخرج»، قالت بلهجة وعد.

أخذتنا سيارة الأجرة إلى الداخل، كان دود متعبا، ونتيجة لذلك كان يلاقي قدرا من الصعوبة في المشي. «السنة الماضية أو نحو ذلك وجدت قدميّ غير قادرتين دائما على تنفيذ ما أريده بالضبط»، شرح مفسّرا.

«أنتما تتقدمان في سيركما ببطء وعلى مهل»، قالت لنا حنة. «سأسرع أنا إلى الأمام إلى أعلى وأكتشف إن كان هناك أي شيء يمكن رؤيته».

وقفنا ننظر إلى شجرة قرنفل، كانت رائحتها النفاذة تملأ الهواء بما يشبه الغاز المتسرب. عندما استأنفنا سيرنا، كانت حنة غير موجودة على مرمى البصر. تقدمنا تحت النباتات العالية، بالقرب من منعطف في الممر، نظرنا إلى الأمام، ومع ذلك لم يكن هناك من أثر لها.

«إلى أين تظن أن أمك قد ذهبت؟ أول شيء نعرفه أنها ستكون تائهة».

«إنها في الأمام إلى الأعلى في مكان ما».

بعد فترة وجيـــزة، في نهاية حارة قصيرة تدلت من ســـقفها نباتات متســـلقة، رأيناها، وقد أخفاها جزئيا، إصبع سريلانكي يقف بجوارها ويشير أثناء تحدثه.

«ما الذي يحدث؟» استحثّ دود خطواته. «أسرع إلى هناك»، قـــال لي، وبدأت على الفور، في الإســـراع في ســـيري. ثم رأيت حنة تبتســـم في حيوية، فأبطأت من ســـرعتي. كانت واقفة هي والشـــاب أمام صف هائل من أشـــجار الأوركيد العنكبوتية ذات اللون البني.

«آه! ظننت أننا قد فقدناك»، قلت.

«انظر إلى هذه الأوركيدات. أليست رائعة؟»

اقترب دود، وأومأ إلى الشاب، وراح يتفحص الأزهار المعروضة.

«إنها تبدو لي مثل الكرنب ذي الرائحة الكريهة»، أعلن.

انفجر الشاب في ضحك مفرط. فحدّق فيه دود.

«هذا الشـــاب كان يخبرني بتاريـــخ الحديقة»، بدأت حنة في ســـرعة. «وعن الموطن الأصلي للنباتات، وكيف جاءت في النهاية لتغرس هنا. إنه موضوع شيق».

ابتسم الشاب السريلانكي بفخر. كان يرتدي «فانيلة» بيضاء من نسيج صوفي ناعم وسترة قرمزية، وكان شعره الأسود الناعم يصدر في ضوء الشمس لونا أزرق لامعا كالمعدن.

مـــن عادتـــي أن أتّبع منهجا محـــددا أصر عليـــه بالبعد عن الشـــخص الـــذي لا أعرفه والذي يحاول إشـــراكي في محادثة. فـــي هذه المـــرة كان الأوان قد تأخر كثيرا، وبتشـــجيع من حنة،

كان الغريب يمشي بجوارها، ونحن عائدون إلى المسار الرئيس. تبادلنا أنا ودود النظرات السريعة، وهز الأكتاف، ثم بدأنا نواصل التقدم وراءهما.

في مكان ما إلى أعلى في نهاية الحدائق بنيت مقصورة أسفل أشجار المطر العالية. وكان يستلقي في شرفتها قليل من الرجال في أردية السارونغ(*) فوق الكراسي الطويلة. توقف الشاب عن السير. «أدعوكم الآن إلى بيرة الزنجبيل الباردة».

«آه»، قالت حنة، في حيرة. «حسنا، نعم. سيكون هذا لطيفا. سأرحب بالفرصة لكي أجلس».

نظر دود إلى ساعة يده. «أعتذر عن عدم تناول البيرة، لكنني سأجلس وأشاهدكم».

جلسنا نتطلع إلى الخضرة الوارفة. وكان الشاب في حديثه يقفز من موضوع إلى آخر؛ وقد بدا غير قادر على متابعة أي خيط أفكار إلى أبعد من البداية. اعتبرت هذا عيبا فيه، وحاولت أن أدرك من نبرات صوت حنة إن كانت قد وجدته مريبا كما وجدته أنا.

لم يكن دود منصتا، فقد وجد حرارة الجو في سيلان شنيعة في هذه الأرض المنخفضة. وكان من السهل رؤية أنه كان متعبا. اعتقدت أنني ربما أفلح في التغطية على ثرثرة الشاب، فاستدرت إلى دود وبدأت التحدث معه تقريبا في أي شيء كان يخطر ببالي: إحياء صنع الأقنعة في أمبالانجودا، ورقصة الشيطان، والتكرار المتزايد للجريمة بين الصيادين المتحولين إلى الكاثوليكية. كان

(*) اللباس الرئيس لكلا الجنسين في أرخبيل الملايو، ويتألف من قطعة قماش تغطي الجزء الأدنى من الجسم على شكل تنورة [المترجم].

دود منصتا، لكن لم يصدر عنه ما هو أكثر من تحريك رأسه من وقت إلى آخر ليجيب.

فجأة سمعت الشاب يقول لحنة: «عندي البيت المناسب لك بالضبط. المصادفة السعيدة أرسلتني لألبي لك مطالبك. إنه بيت هادئ تماما وآمن».

ضحكت ثم قالت: «شكرا، كلا! نحن لا نبحث عن منزل، سنكون هنا لأسابيع قليلة أخرى فقط».

نظرت إليها بشدة، على أمل أن تلتقط نظرتي السريعة كتحذير ضد التمادي فيما هو أكثر من هذا، وكي لا تذكر اسم المكان الذي كانت تقيم فيه. لم يكن الشاب منتبها، على أي حال. «مضبوط تماما. أنتِ لن تشتري أي منازل. لكن يجدر بك أن تريه وتخبري أصدقاءك عنه. إنه استثمار ممتاز إلى حد بعيد، ليس ثمة شك في ذلك. هل لي أن أعرِّفك بنفسي، من فضلك؟ اسمي «جستس جونزاج»، أصدقائي ينادونني سوني».

ابتسامته، التي لم تكن ابتسامة على الإطلاق، أعطتني إحساسا عصبيا غير مريح.

«هيا بنا على كل حال. خمس دقائق مشيا، أنا أضمن لك هذا». نظر إلى حنة بصورة متفحصة. «أعتزم إعطاءك ديوان شعر لي، سأوقعه لك باسمك. سيجعلني ذلك سعيد جدا».

«آه»، قالت حنة، بملاحظة هلع في صوتها. ثم استجمعت قواها وابتسمت. «سيكون هذا جميلا. لكنك تفهم، لا يمكننا البقاء هناك أكثر من دقيقة».

كان هناك صمت، ثم سأل دود بحزن: «ألا يمكننا الذهاب بالسيارة، على الأقل؟»

«مستحيل، يا سيدي إن شارعنا ضيق جدا، لا يمكن للسيارة أن تسير فيه. سأسوي الأمر في لمح البصر»، ثم صاح الشاب مناديا، فحضر النادل، وظل يتحدث معه بالسيرلانكية بعض الوقت، ثم أومأ الرجل وذهب إلى الداخل. «سيارتك سيحضرها سائقك الآن إلى هذه البوابة، على مسافة قريبة جدا من هنا».

كان هذا مجاوزا للحد قليلا. سألته كيف يعتقد أن أي شخص قادر على معرفة أي سيارة كانت لنا.

«ليست في ذلك مشكلة. كنت موجودا عندما كنتم تغادرون السيارة البونتياك. سائقك يدعى ويكراماسينج، ويقطن في آخر البلدة. إنه موضع ثقة. الناس هنا لا يعوّل عليهم كثيرا».

في كل مرة تحدث فيها كنت أكرهه أكثر. «أنت لست من أهل المكان هنا؟» سألته.

«لا، لا! أنا شاب من كولومبو(*)، هؤلاء الناس أوغاد بشكل لا يصدق. كل واحد من الأشقياء الملاعين لديه سكين في حزامه، ذلك من المؤكد».

عندما أحضر الجرسون الحساب، وقّعه سريعا في زهو وتباه ثم نهض. «هل لنا أن نمضي إلى المنزل، إذن؟».

لم يجب أحد، لكننا نهضنا نحن الثلاثة ومضينا معه على مضض في اتجاه بوابة الخروج. كانت السيارة الأجرة هناك؛ حيّانا السيد ويكراماسينج من خلف عجلة القيادة.

(*) ميناء وعاصمة سريلانكا وتقع في الغرب منها على الساحل [المترجم].

كانـــت حرارة العصر قد تلاشـــت، تاركة فقـــط زقاقا هنا أو هناك تحت الأشـــجار حيـــث كان الهواء ســـاكنا. مبدئيا، كانت الحارة التي اخترقناها واسعة بقدر كاف لاستيعاب العربات التي تجرها الثيـــران، لكن النبات الناتئ من كلا الجانبين جعلها أكثر ضيقا من ممر للسير على الأقدام.

في نهايـــة الحارة كان هناك قائمان من الخرســـانة من دون بوابة. مررنا خلالهما، ودخلنا في مســـاحة واســـعة من الأرض تكتنفها من الجانبين إسطبلات مهدمة. باستثناء جناح عبارة عن امتداد جانبي اتخذ شـــكل زاوية قائمة، كان البيت بأكمله مخفيا بأحراش عالية وآجام مزهرة. عندما بلغنا المدخل توقف الشاب واستدار إلينا، رافعا أحد أصابعه. «لا توجد ضوضاء هنا، أليس كذلك؟ طيور فقط».

بعد ساعة ستبدأ الطيور في الاستيقاظ من سبات فترة النهار. صـــدر صوت تغريد غيـــر معروف من الأشـــجار. خفض إصبعه واستدار إلى الباب. «إنها تغني في الصباح. أما الآن، فلا».

«آه، هذا جميل»، قالت له حنة.

قادنـــا عبر مجموعة حجرات فارغة مظلمة. «هنا كان الرجل المختص بغسل الملابس (الدوبي) يغسل الملابس المتسخة بالأتربة والطين. هذا هو المطبخ، هل ترين؟ على الطراز السريلانكي، يعمل بالفحـــم النباتي فقط، فقد كان أبي يرفض كلا من الكيروســـين والغاز، حتى عندما كنا في كولومبو».

تكومنا فـــي ممر قصير بينما كان يفتح الباب. مد الشـــاب يده، فغمر المكان في الداخل ضوء ساطع. كانت غرفة صغيرة،

صنعــت لتبدو أصغــر بطلاء الحوائط والســقف بلون قرمزي لامع. المكان كله تقريبا كان يحتله ســرير كبير بمفرش ســتاني أحمر قان نوعا ما، مع صف من الكراســي المســتقيمة الظهر، المرصوصة بطول أحد الحوائط. «اجلسوا وكونوا على راحتكم»، نصحنا مضيفنا.

جلســنا نحدق في السرير والصور الثلاث التي وضعت داخل إطارات على الحائط فوق رأس الســرير، الذي كان من القضبان النحاسية: على اليسار صورة فتاة، وفي الوسط صورة مضيفنا، وعلى اليمين صورة شاب آخر. كانت اللوحات باهتة وعلى درجة مــن عدم الدقة كصور جوازات الســفر التي جرى تكبيرها عدة مرات ضعف حجمها الأصلي.

ســعلت حنة. لم يكن لديها شــيء لتقوله. كانت الغرفة تبعث برائحــة زاعقة ثقيلــة لبخور قديم، كما هي الحال في كنيســة صغيرة مهجورة. إحســاس العبث الذي انتابني لرؤيتنا جالسين هناك جنبا إلى جنب، محشورين في الوسط بين السرير والحائط، كان قويا جدا إلى درجة أنه باختصار أوقف كل عملياتي العقلية. كان الشاب هذه المرة هادئا، جلس متصلبا، وراح ينظر إلى الأمام مباشرة، مثل متفرج في مسرح.

فــي النهاية كان عليّ أن أقول شــيئا. تحولــت إلى مضيفنا وســألته إن كان ينام فــي هذه الغرفة. بدا الســؤال صادما له. «هنــا؟» صرخ، كما لو كان الأمر مســتحيلا. «لا. لا! هذا البيت شــاغر. لا أحد ينام في المنــزل أو ملحقاته. فقــط رجل بدين يحرس في الليل. أستأذنك للحظة واحدة».

قفز عن كرسيه وأسرع إلى خارج الحجرة. سمعنا صدى خطواته في الممر ثم تزايد الصمت. وهناك من مكان ما في البيت جاء صوت رنين دقات ساعة من الساعات الكبيرة التي توضع في إطار خشبي فوق الأرض، وكان صوتها الهادئ قد جعل الغرفة الصغيرة ذات اللون الأحمر القاني اللامع أكثر عزلة وغير محببة.

تقلقل دود في غير راحة فوق كرسيه، كان السرير قريبا جدا منه مما أعاقه عن تمديد ساقيه. «بمجرد عودته، نذهب»، قالها وهو يبرطم. «إنه يبحث عن الديوان، على ما أظن»، قالت حنة.

انتظرنا فترة. ثم قلت: «انظرا، إذا لم يعد في غضون دقيقتين، أقترح أن ننهض وننصرف مباشرة. بإمكاننا الاهتداء إلى طريقنا إلى الخارج من دون عناء».

اعترضت حنة، قائلة إن هذا سيكون من غير اللائق ولا يمكن اغتفاره.

جلسنا في صمت مرة ثانية، كان دود يقي عينيه من الضوء الساطع. عندما عاد سوني جونزاج، كان يحمل كوبا من الماء بينما وقف يشرب في المدخل. تبدّلت تعبيرات وجهه، بدا مشغول البال، وكان يتنفس بصعوبة.

نهضنا ببطء، وكانت حنة لاتزال تنظر في ترقب.

«سنذهب نحن، إذن؟ تعالوا». أطفأ الأنوار والكوب الفارغ لا يزال في يده، وأغلق الباب خلفنا، ثم فتح بابا آخر، وقادنا بسرعة خلال غرفة فخمة مؤثثة بآرائك كبيرة، وبارافانات من الكرومانـدل(*) وتماثيل برونزية لبوذا. لم يكن عندنا وقت لإلقاء

(*) الأعمال التي تطلى بالورنيش اللامع وكانت شائعة في بريطانيا ١٧٠٠م، وكانت مزينة بنقوش وتصميمات مطلية بالذهب والألوان [المترجم].

أكثــر من لمحة من جانب إلى آخر بينما كنا نتبعه. عندما خرجنا عبر الباب الرئيس، نادى على شــخص فــي مؤخرة المنزل بلكنة متعجرفة، على الأرجح كانت موجهة إلى الحارس.

في هذا الجانب كانت هناك مســاحة واســعة من شجيرات ونجيــل مهمــل غير مشــذب، حيــث مجموعة قليلة مــن آجام نخيل الأريقة تتجــه ببطء نحو الاختناق بأغلفــة جذور وأوراق الفيلوديندرون التي غطت جذوعها. بســطت النباتات المتســلقة نفسها على نحو بغيض فوق قمم الشجيرات مثل خيوط شبكات عنكبــوت ضخمة. كنت أعرف أن حنــة تفكر في الثعابين. أبقت عينيها في الأرض، وهي تخطــو بحذر من لوح حجري إلى آخر بينما كنا نعبر مدخل البيت الذي ينحني على نحو متواصل حول الإسطبلات، ومن ثم إلى الخارج في الحارة.

نزل الشــفق اللطيف سريعا. لم يكن أحد راغبا في التحدث. عندمــا وصلنا إلى الســيارة كان الســيد ويكراماســينج واقفا بجوارها.

«وداعا، إذن، وأخبروا أصدقاءكم أن يبحثوا عن سوني جونزاج عندمــا يأتون إلى جينتوتا»، ومد يــده إلى دود أولا، ثم أنا، وفي النهاية إلى حنة، ثم انصرف.

كان الاثنان هادئين جدا في طريــق العودة إلى جالي(*). كان الطريق ضيقا وأزعجتهما الأضواء الشــديدة للسيارات القادمة من أمامنا. وفي أثناء العشاء لم نأت على ذكر ما حدث في فترة بعد الظهر.

(*) ميناء في جنوب غرب سريلانكا [المترجم].

عندما كنا نتناول إفطارنا في اليوم التالي، في الشرفة التي كان يجتاحها نسيم الصباح، شعرنا بأننا بعيدون بشكل كاف عن التجربة بما يسمح بمناقشتها. قالت حنة: «ظللت مستيقظة طوال الليل وأنا أرى ذلك السرير الفظيع».

تأوه دود.

قلت إن الأمر كان مثل مشاهدة التلفزيون لكن من دون صوت. حيث بإمكانك أن تشاهد كل شيء، لكنك لا تستطيع أن تفهم ما الذي يحدث.

«كان الطفل معتوها تماما. يمكنك أن تكتشف ذلك على بعد ميل»، صرح دود.

لم تكن حنة منصتة. «لا بد أنه كانت هناك حجرة للخدم. لكن لماذا لم يأخذنا إلى هناك؟ أنا لا أعرف؛ شيء ما محبط للغاية في ما يتعلق بالأمر برمته. إنه يجعلني أشعر ببعض السأم بمجرد التفكير فيه، وذلك السرير!»

«حسنا، كفى تفكيرا في ما حدث، إذن!» قال لها دود. «أنا عن نفسي سأخرجه من رأسي تماما». ثم ظل صامتا برهة. وقال «إنني أشعر بتحسن بالفعل. أليست هذه هي الطريقة التي يسلكها البوذيون؟»

استمرت الإجازة المشمسة أسابيع قليلة أكثر، في رحلات أطول إلى الشرق، حيث «تيساماهارانا» والأفيال البرية في «محمية يالا». لم نذهب إلى كولومبو مرة ثانية إلى أن حان الوقت المناسب لي لوضعهما على متن الطائرة.

الطقس شبه المظلم للرياح الموسمية كان يعصف من جهة الجنوب الغربي بينما كنا نسير بطول الساحل. كان هناك المطر ينهمر بشدة عندما وصلنا في منتصف فترة العصر إلى «جبل لافينيا» الساحلي، وحجزنا غرفا لنا. كان صوت تكسر الأمواج خارج غرفتي عاليا جدا إلى درجة أن دود أغلق النوافذ لنسمع ما كنا نقوله.

انتهزت فرصة الرحلة إلى كولومبو لترتيب محادثة مع المحامي الخاص بي، إنه هندي يتحدث التيلجو(*). كان علينا الالتقاء في بار في «جاليفيس»، على مسافة بضعة أميال أعلى الساحل. قلت لحنة «سأعود في السادسة». كان المطر قد خفّ بعض الشيء عندما مضيت إلى الخارج.

تحركت الرياح المحملة بالرطوبة خلال بهو جاليفيس، لكن الهواء المعبق بالدخان الكثيف داخل البار كان يتحرك فقط تحركا خفيفا عن طريق المراوح. عندما دخلت، كان أول شخص ألاحظه هو ويستون الذي يعمل في «بنك تشارترد». لم يكن المحامي قد وصل بعد، لذا وقفت عند البار مع ويستون وطلبت شرابا.

«هل أنت الذي رأيته في جينتوتا في حلبة السباق الشهر الماضي. مع زوجين من العجائز؟».

«كنت بصحبة أبي وأمي. لم ألاحظك».

«لم يكن باستطاعتي التحدث إليك. كانت المسافة بعيدة جدا جدا. لكنني رأيت الثلاثة أنفسهم في ما بعد مع شخص من أهل البلد. ما الذي تعرفه عن سوني جونزاج؟».

(*) لغة في جنوب شرق الهند وجزيرة سيلان [المترجم].

ضحكت أنا. «لقد استدرجنا إلى بيته».

«هل تعرف القصة؟ إنني ملم بها».

هززت رأسي نافيا.

القصة التي وجد لذة في روايتها، بدأت في اليوم التالي لعرس جونزاج، عندما مضى إلى حجرة الخدم ووجد عروسه في السرير مع الصديق الذي كان إشبينا له في حفل الزفاف. كيف حدث أن حصل على مسدس معه؟ كان ذلك أمرا غير واضح، لكنه أطلق النار على كل منهما في الوجه، وبعد ذلك قطع جسديهما إلى قطع صغيرة. ثم علّق ويستون قائلا: «ذلك النوع من الأمور ليس شديد الغرابة، بل هو شائع، بالطبع. لكنها المحاكمة هي التي تسببت في هذه الفضيحة. قضى جونزاج أسابيع قليلة في مستشفى الأمراض العقلية ثم أطلق سراحه».

«بإمكانك أن تتخيل»، قال ويستون. «الإثارة السياسية. يذهب الفقير إلى السجن بسبب حفنة أرز، لكن الغني يمكن أن يقتل الآخرين من دون عقاب، إلى غير ذلك النوع من الأمور. لانزال نطالع إشارات إلى الحادثة في الصحافة من وقت إلى آخر».

كنت أفكر في اللون القرمزي الزاهي وحدائق النباتات. «لا. لم أسمع عنها أبدا»، قلت.

«لقد أصابته لوثة عقلية، لكن هاهو، حر في أن يفعل أي شيء يعن له. وكل ما يرغب فيه في ذلك الوقت هو إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بالدخول إلى ذلك البيت وإطلاعهم على الحجرة حيث وقع هناك الحدث العظيم. وهو الشيء الأكثر مرحا في اعتقاده».

رأيــت الهندي يدخل إلى البــار. «إنها قصة لا تصدق، لكنني أصدقها»، قلت لويستون.

ثم استدرت لتحية المحامي، الذي اشتكى على الفور من الهواء الراكد داخل البار. جلسنا وتحدثنا في الردهة.

تمكنــت من الرجوع إلــى «جبل لافينيا» في الوقت المناســب للاســتحمام قبل العشــاء. بينما كنت مســتلقيا في الماء الفاتر، حاولت تخيل ردود أفعال حنة ودود عندما أخبرهما بما سمعته. عن نفســي شــعرت برضى حقيقي لمعرفتي بقيــة القصة. لكن لكونهمــا عجوزين، قد يطيلان التفكير فيها، ويقومان بتطويرها بعد ذلك إلى حد كريه جــدا في محادثة تلطخ ذكرى إجازتهما. لم أكن قد قررت بعد إن كنت سأخبرهما أم لا عندما ذهبت إلى حجرتهما لاصطحابهما إلى العشاء في الطابق الأسفل.

جلسنا بعيدا عن الموسيقى قدر استطاعتنا. كانت حنة مرتدية ملابســها بشــكل أقل أناقة عن المعتاد، وكان الاثنــان يتحدثان بحيوية ونشاط أكثر من المعتاد. أدركت أنهما كانا سعيدين بقرب عودتهما إلى نيويورك. في منتصف الوجبة بدآ في استعراض ما اعتبراه أهم ما شــاهداه في زيارتهما. ذكرا معبد «توث»، وشبلي نمر البنغال في «ديهيوالا» اللذين كانا أليفين مستأنســين لكنهما تحسرا على امتناعهما عن شرائهما، وكذلك العشاء الإندونيسي في حديقة «الســيد بلتجينز»، حيث وثب طائر المينة(*) فوق حنة، وقال: «كليه كله من دون إبطاء»، وأيضا الكوبرا التي كانت أسفل الأريكة في حفلة شاي «السيدة دي سيلفا».

(*) أي طائر من الطيور الآسيوية من فصيلة الزرزور وبصفة خاصة تلك التي لديها القدرة على محاكاة الكلام [المترجم].

«وذلك الشـــاب الغريـــب الأطوار في المنزل الغريب الشـــاذ»، أضافت حنة بتأمل.

«أي واحد كان ذلك؟» ســـأل دود، في تجهم بينما كان يحاول التذكر. ثم استطاع تذكره. «آه، يا الله»، برطم. «صديقك المميز». ثم التفت إليّ قائلا، «بإمكان أمك انتقاؤهم بكل تأكيد».

كان المَحيـــط يهدر في الخارج. بدت حنة غارقة في التفكير. «أنـــا أعرف ما الذي كان عليه الأمر!» صاحت حنة فجأة. «كانت زيارتنـــا إلى بيته مثل مشـــاهدتنا عن قرب لأحد المعابد بصحبة أحد الرهبان البوذيين(*). أليس هذا هو ما يطلقونه عليهم؟».

استنشق دود مزيدا من الهواء. «معبد ما والسلام!» ضحك.

«لا، أنـــا جادة. كان لتلك الحجرة معنى خاص بالنســـبة إليه. كانت بمنزلة المزار المقدس عنده».

نظـــرت إليها. لقد تمكنت من الوصـــول إلى لب الموضوع من دون حاجة إلى الخوض في التفاصيل. «شعرت بهذا، أنا أيضا»، قلت. «لكن بالطبع، ليس هناك طريق لمعرفة هذا».

(*) ذكرت كلمة ذات أصل سنسكريتي [المترجم].

كلمات غير مستحبة

(١)

أنا سعيد لأنك رددت على خطابي من البحر، على الرغم من شعوري بالأسف لأنني أرى في كلماتك الظن أنني أفكر فيك فقط بوصفك شخصا حبيس حجرته. أو هل قيل ذلك لمجرد أن جعلتني أشعر بالذنب لبقائي بعيدا متنقلا؟

بدأت الأسعار بالطبع في الارتفاع هنا منذ فترة طويلة قبل الابتزاز الدولي في البترول في سنوات السبعينيات. رأيناها ترتفع قبل ذلك، وكنا نظن دائما أنه لن يمكنها الارتفاع أكثر من هذا. كل شيء ارتفع ثمنه خمسة أضعاف عما كان عليه منذ عشر سنوات. ولأنه قد مُنع الاستيراد في عام ١٩٦٥، أصبحت لدينا بدلا من السلع المستوردة بضائع مهربة، تلك التي كانت تجذب الناس من أي مكان لأن يدفعوا مقابلها. أظن أنه يجب على المرء أن يتذكر أن الأسعار هنا كانت منخفضة بشكل غير معقول في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات، على الرغم من إمكان استمرارها في الارتفاع بشكل غير محدد تقريبا قبل أن تكون مساوية لمثيلاتها في أوروبا وأمريكا. ثم جاء تضخم البترول، حتى أنها لاتزال تواصل ارتفاعها، ومع ذلك فهي لاتزال أقل انخفاضا عن دول أخرى.

بعد الاستقلال بخمس سنوات أو نحو ذلك كان كريستوفر يتحدث مع رجل عجوز من البربر في مكان ما في الجنوب، وفي وسط حديث عام مال الرجل العجوز عليه وقال له سرا: «قل لي إلى متى سيستمر هذا الاستقلال؟».

أتذكر أنني في سنة ١٩٤٧ أرسلت في طلب مبلغ ألف دولار من نيويورك. إذا كان يهمك أن تتذكر، كان ذلك المبلغ في تلك الأيام كافيا للعيش لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، على الأقل هنا. لم يتسلم البنك النقود التي كان من المفترض أنها قد أرسلت إليه، لكنهم نصحوني بمراجعة جميع البنوك الأخرى الموجودة في البلدة. وكان هناك ما يزيد على أربعين بنكا منها في ذاك الوقت. وقد راجعت بنكين أو ثلاثة يوميا؛ ولم يعرف أحد شيئا. مر شهر ومازلت لم أحصل على نقودي بعد. اقترحت عليّ المفوضية الأمريكية أن أذهب إلى البنك الأول وأطالب بها، وفي الوقت نفسه أن ألّح في كلامي معهم إلى أن الوزير المفوض الأمريكي سيتخذ الخطوات اللازمة إذا فشلوا في العثور عليها. كانت النتيجة كالسحر: ذهب الكاتب مباشرة إلى دولاب الملفات وأخرج منه الشيك. لكنني دائما ما كنت أتساءل عما كانوا يأملون في كسبه من جراء تأخيره طوال تلك المدة الطويلة. فقد بدت لي وقتها فترة طويلة جدا، وكنت مستاء لذلك. أصبحت الأمور الآن أكثر سوءا. فالنقد الأجنبي كله الذي يأتي إلى البلدة يودع في سلة عملات مشتركة في الدار البيضاء ويحتفظ به هناك حتى يربح نسبة الفوائد من هؤلاء الذين يقترضونه، وبوجه عام تزيد الفترة على ثلاثة أشهر. في النهاية يظهر المبلغ في كشف حساب رصيدك في البنك، وبأقل سعر تحويل ممكن له خلال كل هذه الفترة. من المفهوم تماما بشكل واضح أن الحرب كانت دائرة وأن نفقاتها كانت مرتفعة، لكن ذلك لا يقلل من شأن مشكلة هذا الإجحاف المزعج. ربما نحن محظوظون لعدم اضطرارنا إلى

دفـع ضريبة خاصة بالحرب، والله أعلم، ربما يحدث هذا الآن. يكفي ما في اليوم من شرور.

تسأل عن أخباري: حياتي اليومية، وما أفكر فيه، وآرائي في الأحداث الخارجية. كل شـيء سيكون في وقته المناسب، إذا كان في وسـعي تناول كل هذا. لكن ما يحدث هنـا في هذه المدينة أشـد وطأة بكثير مما نسـمع به من الخارج. هنـاك الكثير من الجرائم، لكن يبدو أنه في كل سـنة لدينا جريمة قتل بذاتها هي التي تشـغل اهتمام الجميع على حد سواء ولكن لأسباب مختلفة من دون شك.

على سـبيل المثـال، منذ عامـين، بينما كان العمـال مازالوا يعملـون في بناء مسـجد جديد في المنطقـة الواقعة بين المكان هنـا و«بلاس دي فرانـس»، اعتادت امرأة عجـوز على الظهور مـن مبنى على الجانب الآخر من الشـارع، وهي تحمل إبريقين من الشـاي والقهوة للرجال. كانت تأتي في الصباح الباكر، قبل شـروق الشـمس، عندما يكون الهواء لا يزال باردا، والعمال في انتظـار متلهف لوصولها. وفي أحد الأيـام لم تظهر المرأة، وفي وقت لاحق من اليوم نفسه قيل إنها قد قتلت في سريرها. تمكن شـخص ما من تسـلق نافذتها ودخل إلى شقتها، وقبل أن يغادر الشـقة قطع رقبتها بتدبر وحذر. كان قد توقع العثور على المال المخبأ - حيث افترض، لكـون المرأة يهودية، أنه من الطبيعي أن يعثر على الخبيئة في مكان ما - لكن لأنها كانت تعيش في حالة من الفقر الشـديد، لم يعثر على شيء سـوى راديو ترانزيستور بلاسـتيك أزرق، فأخـذه. بعد ذلك، على الرغـم من أن العمال

لم يعودوا يحصلون على المزيد من الشـــاي والقهوة، فإنهم كانوا يستمعون للموسيقى عبر الراديو الترانزيستور الأزرق، لكن ذلك كان لأيـــام قليلة فقط. فقد لاحظت جـــارة المرأة المقتولة الراديو هناك بين أكوام البلاط، وكانت متأكدة تماما من تعرفها عليه إلى درجة أنها أعطت أوصافه إلى شرطي في الشارع. لذلك تمكنوا بالطبع من الإمساك بالعامل، الذي قال إنه لم يكن من الممكن أن يقطع رقبة اليهودية العجوز لو كان يعرف كم هي فقيرة!

ثم كانت هناك قضية أخرى في العام الماضي، تخص عجوزين أمريكيين - لا أعتقد أنك قد سبقت لك معرفتهما - كانا يعيشان فـــي بيت صغيـــر في أعلى «الجبـــل القديم»، فـــي أقصى نهاية الطريق البحري، حيث ينعطف إلى بقايا الطريق الروماني. كانا منعزلين هنـــاك بمعنى الكلمة، من دون هاتـــف أو بيت آخر في الجـــوار على مرمى البصر. لذلك بعد عدة ســـنوات من العيش هناك في ســـلام وأمان، هوجما بغتة. كان الـــزوج في الحديقة عند حافة الغابات، يملأ إحدى القنوات بالمياه. فقتله المهاجمون ودفعوا برأسه في القناة. رأت الزوجة كل شيء عبر النافذة قبل أن يتمكنـــوا من الدخول إلى البيـــت وضربها، محاولين إجبارها على أن تخبرهـــم بالمكان الذي كان المال مخبـــأ فيه، كان هذان الاثنان مفلسين، ويعيشان على كوبونات الضمان الاجتماعي، لم يكـــن هناك مال، لذا بعدما أنزلـــوا المزيد من الضربات في وجه المرأة، مضوا فـــي طريقهم. مات الزوج ونجت الزوجة. كان هذا الحادث بمنزلة إنذار للأوروبيين الذين يعيشون في طريق الجبل القديم، فجميعهم لديهم ممتلكات هناك، وتحرس بالفعل من قبل

حــراس مقيمين. وقد اختار اللصــوص الزوجين العجوزين على وجه التحديد لأنهما لم تكن لديهما حراسة، وبالطبع لم يحصلوا على شــيء على الإطــلاق من هجومهم هذا. رددت الشــائعات أن المجرمين قد ألقي القبض عليهم بعد شــهرين تقريبا. وأنهم كانوا جزءا من عصابة كانت تعيش في كهف على الساحل ناحية الغرب. لكن من يدري ما الحقيقة؟ إن هذه الأشياء تؤخذ بجدية وعلى محمــل الخطر من جانب الأوروبيــين المقيمين في البلدة أكثر من وفرة الطعام والشــغب والمعارك والقتال مع من يسمون بالبوليســاريو في الصحراء الكبرى. عقلية مائدة البريديج، إذا كنت ستعذر سوء تعبيري هذا.

على أي حال، هذا هو كل ما عليه الأمر في الوقت الراهن.

(٢)

حسن أننا عدنا إلى الاتصال مجددا.

أنت مخطئ، فأنا أتذكــر المرة الأخيرة التي رأى فيها أحدنا الآخر. كنت تعيش في تلك الشــقة المجنونة فوق ســطح القلعة، وكانت هنــاك رياح فظيعة تهب من الميناء. كان لديك عدد قليل من الناس على العشاء، وأتذكر أن الباب المطل على السطح كان ينفتــح وأن الريح كانت تهب عبر الشــقة بأكملها، إلى درجة أن الجميع كانوا يصرخون: أغلق الباب! لا أعرف في أي ســنة كان هذا على وجه التحديد، لأن الحدث يبدو أنه ليســت له علاقة بالســياق الزمني. النقطــة التفصيلية الوحيــدة الأخرى التي أتذكرها هي أنك لم يكن في اســتطاعتك قراءة أي شــيء كتب

بعد القرن الثامن عشـــر. وأنني تقبلت ذلك على أنه خصوصية شـــخصية، ومنذ ذلك الوقت وأنا أفكر في الأمر، وأتســـاءل في تعجب إلى أي مدى هذا النقد القاسي والتضييق المفروض ذاتيا منك ســـليم بالنســـبة إلى مؤلف ينتمي إلى القرن العشرين. هل عدم قراءتك لأي كتابات معاصرة على الإطلاق محاولة للهروب من احتمال تأثيرها الضار، أم أن أي تواصل مع الأدب الحديث أو المعاصـــر منفر بالنســـبة إليـــك لأنه يوحي بالمنافســـة؟ تظل بالطبع أسبابك الخاصة المتعلقة باستبعاد كتابات القرن التاسع عشـــر غامضة علـــى أي حال. على الرغم مـــن أنني لا يمكنني في الموسيقى الإدلاء بسهولة بتصريح شامل مشابه لتصريحك، يحط من شـــأن جميع موســـيقى القرن التاســـع عشر. إن ذلك النوع من التعميم غيـــر مثمر على الإطلاق، إنه يبدو لي كذلك، وأتعجب كيف تتمســـك به بشكل محكم وصارم وكأنه قول مأثور أو مثل تتبناه.

لـــم أكن متأكـــدا حتى منتصف هذا اليوم مـــن مكان وجودك في أثناء الخمس عشرة ســـنة الماضية أو نحو ذلك. سمعت عن طريق آخرين أنك كنت تعيش في هونج كونج، وطوكيو وحتى في ماليزيـــا. كانت هناك بلدة في ماليزيا قالوا إنك كنت مغرما بها، لكنني لا يمكنني تذكر اسمها. تقع على الساحل الشرقي، بعيدة بعض الشيء في الشمال. بمجرد إقلاعك عن عادة الكتابة لي، لم يعد في مقدورك معرفة أين تكتب، الأمر الذي أفهمه وأستوعبه، فالعـــذر منطبق تمامـــا وبقوة أكثر على شـــخصي، لأنك لم يكن لديك مسكن ثابت، في حين كان لديّ مسكن ثابت دائما.

لست في حاجة إلى أن أسألك إن كنت تتذكر «بيتي وآليس هـــووي»، نظـــرا إلى أنهما كانـــا رفيقيك في لعبتـــي البرديج والكاناســـتا(*)، بالإضافة إلى جميع السكان الآخرين الأجانب الذين كنت أتجنب أنا معرفتهم. مات كلاهما منذ عشرة أيام أو نحـــو ذلك؛ من يعرف الســـبب؟ هـــو أولا، ثم هي بعد عدة أيام. «ســـمينا «مقتنعة» بأن «بيتي» قتلت نفسها لكيلا تضطر إلـــى الذهاب في أثناء جـنازة «آليـــس». من الممكن أن تكون هي على صواب؛ لم أعرف أبدا الســـيد والســـيدة هووي إلا في الحفلات والسوق. لا يخامرني شـك في أنـك ستتـحسر على رحيلهما.

وبالطبع هناك «فاليسكا» الرائعة. لقد عادت إلى هنا عدة مرات منذ أن سافرت أنت، على الرغم من أنها لم تعد خلال السنوات الخمس الماضية أو نحو ذلك. كان عبد الواحد يكن كراهية قوية لها، لأنها بشكل رئيسي رفضت بثبات وفي قوة أن تجلس في المقعد الأمامي في الســـيارة الموستانج، على الرغم من أنه كان المقعد الوحيد المريح في الســـيارة. إصرارها على الركوب في الخلف أغضبـــه وضايقه، نظرا إلى أنه افترض، وربما هو على حق تماما، أنها أرادت أن توضح للناس بشـــكل جلي أنه كان الســـائق. هذه الكراهيـــة أو البغضاء جعلت من السهل عليه في الأساس انتقاد النواحي الأخرى في سلوكها. وهو ما كان يقوله لي باستمرار، لكن ليس لها بالطبع. ثم في يوم ما واتته الفرصة فانطلق واســـتغلها. وكانت النتيجة على

(*) لعبة من ألعاب الورق [المترجم].

درجة مــن الجنون إلى درجة أنني لم يكن في إمكاني توبيخه بعد ذلك كما كان ينبغي عليّ أن أفعل.

في تلك الأيام عندما كنت أذهب لإحضار فاليسكا من الفندق كانت دائمــا ما تجلس إلى مائدة في البهــو، وهي تقرأ، أو تحل الكلمات المتقاطعة أو أي شــيء كان، المهم أن تكون مشغولة جدا. كان عبد الواحد يقود السيارة حتى مقدمة الدرج مباشرة لذلك لم يكن في وسعها أن ترانا، وكانت دائما ما تلقي بلمحة خاطفة بين الحين والآخر، حتى تتيقن تماما من رؤيتها لنا. لسبب ما لم يكن فــي مقدوري أن أفهم جيدا لماذا لم تكن تتزحزح أبدا من مكانها حتى أنزل أنا من الســيارة وأصل إلى البهو وأجتازه ثم أقف على مســافة قدم من طاولتها. كان هذا بمنزلة طقس شعائري. وفي أحد الأيام بقيت في البيت وأرســلت إليها عبد الواحد، وعندما رأته يصل إلى البهو قفزت إلى أعلى وتبعته إلى السيارة، وفق ما قال، وهي تسأله مرارا وتكرارا: «أين بول؟ أين بول؟».

فــي تلك اللحظة كان يجب أن يحضر الشــيطان ويدفع عبد الواحــد إلى النظر إلى الأرض وإلى أن يقول لها في حزن: «لقد مات بول». سيكون في إمكانك أن تتخيل الصرخات والصيحات التي نتجت من هذا التصريح. ســاعدها عبد الواحد على ركوب السيارة ثم انطلق بها إلى «الإيتيسا»(*). كما تعرف، إنه لا يتحدث الإنجليزيــة، لكنه كان يعرف ما يكفي مــن الكلمات لينقل إليها أننــي كنت ممددا على الأرض، وأن الناس كانوا يقفون متحلقين من حولي وهم ينظرون إليّ.

(*) اسم البناية التي كان بول بولز يسكن في الطابق الرابع منها هو وزوجته جين في طنجة [المترجم].

قال ذلك لها بينما كانا في طريقهما إلى «ساحة الكويت»، ثم صاحت فاليسكا فجأة: «آه يا للمسيح! إن كاميرتي في الفندق. لا تشغل بالك. استمر في طريقك».

كانت في حالة هستيرية بكل معنى الكلمة عندما رأتني سليما معافى، وفكرت أنا: هذا كثير جدا، ورأيتني أصطحبها إلى الطبيب النفسي في «بني ماكادا». وفي تلك الأثناء كانت تتلوى وتصرخ في عبد الواحد قائلة: «يا ابن العاهرة!».

لا أعتقد أنها ستسامحه أبدا على مزحته هذه، لكنه لا يزال مبتهجا حتى الآن كلما تذكرها. وكما قلت لك، لم يكن في إمكاني أن أقدم على انتقاده، نظرا إلى أنه من زاوية معينة قد فعل ذلك من أجلي، اعتقادا منه أن سلوكها قد يتغير نتيجة لذلك. لكن بالطبع لم يتغير شيء، واعتبرته هي مجرد تصرف عشوائي من عربي مجنون كان متشوقا لمعرفة رد فعلها.

إنهم يقومون ببناء فيلات رائعة فخمة في جميع الأنحاء من حولي. مبنية بطريقة جيدة لكنها بشعة، تبدو مثل صناديق النغم القديمة، واجهاتها مكسوة بالحديد والبلاط المشغول. يلزم القانون كل فيلا من الفيلات بوجود مدخنة، رغم عدم ارتباط المدخنة بأي شيء داخل البيت، أي أنها مجرد ديكور أو زينة. كان أصحاب هذه المباني ينتظرون المشترين الذين لم يأتوا. وهل سيأتون؟ فالأسعار تبدو عالية جدا: بين خمسمائة وعشرين ألفا ومائتي ألف دولار، وليست هناك تدفئة، وبالطبع لا يوجد فرن، أو مدفأة - وفي الأغلب لا توجد مساحة أو فراغ في الخارج لإقامة حديقة. مع أن تلك المساحة التي تحدد ما إذا كانت تلك

المباني بالفعل فيلات قانونية، أو مجرد مساكن فقط وهذه لن تكون في حاجة إلى مداخن.

أتمنى أن تكون جميع أمورك على ما يرام، وأنك سوف تجيب عن رسالتي.

(٣)

لقد اتخذت من كتابة الرسائل إليك هدفا منتظما إن لم يكن مستمرا، وذلك لإبقائك على اتصال بهذا الجزء من العالم الخارجي، فقد يساعدك هذا على رفع روحك المعنوية. من الواضح أن الطريقة الوحيدة لإعطائك فكرة عن حياتي هي بالنسبة إلي أن أكتب كل ما يخطر في رأسي. لأنه في الاختيار الواعي للمادة المضمنة ثمة احتمالية لفرض وجهة نظر، أو تحيز. أعتقد أن نهجي سوف يعطيك صورة أكثر دقة عن حياتي اليومية - على الأقل، ذلك الجزء منها الذي يعتمل في داخل رأسي، وهو أهم جزء إلى حد بعيد.

لقد تخيلت كثيرا وجودي في وضعك الذي لا تحسد عليه في حالة حدوث حريق أو زلزال وعجزك عن النهوض هربا من سريرك ومحاولة الركض إلى مكان آمن. أو إذا كنت في كرسيك المتحرك، وانتفاء القدرة لديك على الذهاب به إلى أي مكان إلاّ إلى أول أو آخر طرقات المبنى. أعتقد أن هذا سيكون هاجسي وانشغالي الرئيسي، لكن مرة ثانية، ربما لن يكون هذا، نظرا إلى أن المرء لا يعيش في توقع دائم للحرائق والزلازل. لكن في وسعي أن أتصور نفسي مستلقيا في أثناء الليل وأنا مستيقظ وأتخيل

بالتفصيل ما الذي سيكون عليه الأمر إذا أصبت باختناق من أثر الدخان أو سقطت فجأة فوق الأرضية ودعامة خشبية فوق ساقيّ وغبار الجص يصيبني بالاختناق. آمل ألا تعيش في مثل هذه التأملات، وأنا أشك - نوعا ما - في قيامك بهذا. يجب أن تصبح من الآن قدريا بدرجة كافية لتكون قادرا على أخذ جميع الظواهر الموضوعية كأمور مصاحبة لحالتك. إذا كانت هذه هي المسألة، فربما تكون ناجمة بشكل جزئي عن اضطرارك إلى العيش لمدة ثماني سنوات مع زوجة مستحيلة - نوع من التدريب على بلوغ حالة من القبول المطلق. خطر لي في الوقت نفسه أن الوجود المتواصل لامرأة مثل «باميلا» قد فاقم بسهولة من التوتر الذي أفضى بها في النهاية إلى إصابتها بالسكتة الدماغية. لقد عانيت أنت بلا مبرر طوال تلك السنوات الثماني. كانت باميلا عنصرية. كانت تشعر بأنها تتحرك على مستوى أرقى من مستواك، لأنها كانت على دراية بأن أجدادها كانوا يعيشون في ماساتشوسيتس منذ مائة سنة، بينما كان أجدادك يعيشون في منطقة مجهولة بعض الشيء في أوكرانيا. «لقد كنا هنا قبل الباقين، لذلك فإنها ملك لنا بالطبع، لكننا نحب وجودك معنا هنا، لأنه يجعل الحياة أكثر إمتاعا». هل أنا مخطئ، أم أن باميلا كانت كذلك بالفعل؟ ألم تكن أنت على دراية تامة بالتناقض بين ما كانت تقوله والطريقة التي كانت تتصرف بها؟ بسبب هذا التبدّل الكبير، لم أعد أتذكرها جيدا. أقصد أن وجهها يهرب مني؛ ولا أقدر على تخيل صورة لها. إنني على أي حال أتذكر صوتها بالفعل. كانت نبرته جميلة وسماعها ممتعا، باستثناء عندما كانت تغضب.

وكان هــذا متوقعا: يتغير صوت المرء عن عمــد ويتحرر منطلقا كوســيلة من وسائل تعبير المرء عما فيه من العاطفة. لكنني حتى الآن مضطر إلى الســؤال: هل كانت باميلا تغضب؟ عندما أعيد مســترجعا الشــريط الذهني الذي لدي عن الإفطار في «كويتو» في ذلك البهو الفسيفســائي لمحل الآيس كريم ذي الشــرفة التي كانوا يقدمون فيها الطعام أســمع تلك العبارات الصارخة المجزأة الصــادرة عنها، ليس بوصفها تعبيرا عن الضيق بل أوامر تصدر إلى شخص ذي مكانة ومنزلة. كان لتلك العبارات أثرها المرغوب: وهو أن تتكمش أنت في محارتك، ولا تعود تتبس ببنت شفة. كان كل شــيء يمضي بطريقة مبهجة مادامت ليســت هناك مقاومة؛ وإلاّ كان يجب على الأوامر أن تصدر.

الحقيقة هي أنني لم أفكر فيها على الإطلاق طوال عقدين أو ثلاثــة. فكرت فيهــا صباح اليوم فقط لأنتــي كنت أحاول، من خلال مــا عرفته عن حياتك، أن أتخيل الأســباب الممكنة للإصابــة الدماغية. أعتــرف بأنه بعد وقــوع الحادثة هناك المجال لاهتمام أكاديمي بحت. فالقيام بالتحاليل والفحوصات لا يعالج المريض.

تذكرت بعدما اســتيقظت صباح اليوم أغنية سخيفة سمعتها عندمــا كنت طفــلا، وقت أن كانت تغنيها لي امرأة كان اســمها «إيثل روب».

أنــا لا أعرف من كانت، لكــن يمكن أن أتذكر أنها كانت تعمل مدرســة. صدمتني الكلمات لغرابتها الشــديدة إلى درجة أنني حفظتها عن ظهر قلب.

In der vintertime ven der valley's green
And der vind blows along der vindowsill
Den der vomen in der vaudeville
Ride der velocipedes around der vestibule.

كان اللحن تنويعا على «أتش، دي ليبر أوغسطين». إنك لم تسمع الأغنية بالتأكيد، إنني أتساءل إن كان قد سمعها أحد في أي وقت، خارج دائرة معارف الآنسة روب. كانت أوائل العشرينيات من القرن الماضي هي فترة الأغنية العاطفية العبثية السخيفة وخير الشواهد على ذلك: «آه وايم الحق»، «الأوجوبوجو»، «لينا كانت ملكة فلسطين»، «نعم. ليس لدينا موز»، «بارني جوجل»، والله أعلم ماذا أيضا. كانت هناك أيضا أغنية لـ «فاني برايس» تدعى «الوردة المستعملة»، تلك الأغنية التي أوقعتني في مشكلة مع والدة مضيفتي عندما غنتها في حفلة هنا في الستينيات. لم تعر انتباها لـ «حتى البيانو في محل بابا يباع بدولار وعشرة سنتات»، لكن عندما وصلت «حتى آبي كوهن، ذلك الولد الذي أعشقه، كان من الجرأة والجسارة لكي يخبرني أنه كان متزوجا من قبل»، قفزت السيدة إلى أعلى وجرت إلى الطرف الآخر من القاعة حيث كنت أجلس. وأمسكت بوجهي بين إبهامها وأصابعها في إحكام وهصرته، وهي تصرخ قائلة: «حتى أنت يا بول بولز، حتى أنت؟» كان الأمر برمته مفاجئا جدا ودراميا إلى درجة أنني شعرت بارتكاب خطأ عظيم خارج عن العرف. لحسن الحظ أنه كان هناك ضيوف آخرون يعرفون الأغنية، وكان في استطاعتهم إقناعها بأنني لم أكن أرتجل الكلمات لأجل المناسبة، وعلى الرغم من ذلك لم تهدأ تماما.

أعتقد أن أهم ميزة مشتركة بيننا - على الرغم أنه من حقك أن تزعم أننا لا توجد لدينا نقاط مشتركة على الإطلاق - هي إيماننا الراسخ بأن العالم البشري قد دخل في فترة حاسمة ونهائية ولا رجعة عنها من التفكك والدمار، وأن هذا سوف ينتهي إلى حالة شديدة من العنف والفوضى بحيث تجعل من أي محاولات للحفاظ على السيطرة أو النظام عديمة الجدوى تماما. دائما ما كنت أجدك تدين بشدة وحدة انحلال وتفسخ الحضارة حتى أكثر مني. كان هذا بالطبع وقتما كان أسوأ ما أمكن لنا أن نتخيله هو الدمار بفعل حرب نووية. لكن الآن في إمكاننا تخيل الظروف التي قد يكون الموت المفاجئ كامنا خلفها عن طريق حريق محبب أو مرغوب للتحرر من جحيم الحياة، ربما ننتظر طويلا للإقدام على «قتل رحيم» عالمي عام. هل في استطاعتنا أن نأمل في حرب نووية - أقصد من الناحية الأخلاقية - أم أننا ممنوعون من الإخلاص فلا نتمنى استمرار الجنس البشري بغض النظر عما يتكبده من معاناة؟ استخدمت كلمة أخلاقية لأن الرغبات غير الأخلاقية تبدو لي مرتبطة بأحداث أو خلاصة نتائج خاطئة.

أهم ما يشغل بالي هو أنني بي رغبة شديدة في معرفة إن كان وجودك في حالة من الضعف والعجز قد غيّر من وجهة نظرك على أي حال من الأحوال. هل تركك هذا أكثر غضبا، أم أكثر استسلاما، أم غير مبال بشكل تام؟ على الرغم من أنك لم تكن كذلك أبدا، وتحت أي ظرف من الظروف، إلى درجة أنني أشك في احتمال حدوث مثل هذا التغيير الرئيسي في شخصيتك.

لديّ إحساس بأنك قد تعتبر هذه الأشياء مسألة شخصية تماما، ونتيجة لذلك فقد تستاء من فضولي المتلهف هذا.

(٤)

في استطاعتي أن أدرك أنك لا تتذكر فعلا عطلة نهاية الأسبوع التي أشرت إليها من قبل. ليس هناك شيء مخجل في ما يتعلق بعدم مقدرتك على التذكر الدقيق، فحتى الآن، يبدو بشكل مضاعف من سوء الحظ أنه كان يجب أن تحرم من التنقل الداخلي والخارجي، أقصد حرية التجول في الماضي، لسبر أغوار خزائن الذاكرة. أعرف أنه منذ أربعين سنة وأنت تقول إنك لا تتذكر، نظرا إلى أن ثلاثتنا كنا في حالة سكر بيّن شديدة ولا يمكن لأحد أن يتذكر تفاصيل تلك الرحلة الحمقاء. لكن لا أنا ولا أنت كنا في حالة سكر عندما وصلنا إلى القرية وقد اضطررنا إلى النزول من القطار لأن هذا كان آخر ما انتهوا من وضعه من خط السكة الحديد. كان الوقت لا يزال نهارا، فعبرنا النهر فوق ذلك الجسر غير المكتمل لنصل إلى ما يطلق عليه فندق. تتذكر بالتأكيد أنه لم يكن هناك شيء لاحتسائه سوى المسكل(*)؛ وظللت تقول إنه يبعث برائحة تشبه ورنيش الأثاث، وقد كان كذلك بالفعل وفقما أتذكر. هل سبق لك شرب أي شيء مماثل له منذ ذلك الحين؟ ويا لها من ليلة، بصحبة بارتولومي الجالس هناك يسكر ويسكر وهو يقهقه ورأسه في حالة اهتياج شديد. وفي إحدى اللحظات - فتش جديدا في ثنايا ذاكرتك، يجب أن تتذكر

(*) المسكل: شراب مكسيكي يستقطر من أوراق نبات المسكل [المترجم].

هذا - انهارت شبكة الناموسية المعلقة أعلى السرير فوق رأسي إلى درجة أنني أصبحت ملفوفا في طيات الناموسية، وجعلني الغبار أعطس، وأشار إليّ باتولومي من فوق كرسيه بينما كنت أنا أجاهد، وأصرخ: «باريسيس النينو دياس!»(*) وضحكت أنت وهو طويلا بينما كنت أعطس وذراعاي تتخبطان هنا وهناك بحثا عن مخرج، وأنا أحاول إيجاد فتحة في الشبكة. لم يكن هناك شيء يمكن عمله في ذلك الوقت سوى إرسال بارتولومي إلى الطابق السفلي لطلب زجاجة أخرى من «التهوكان» والاستمرار في احتساء شراب «المسكل». أعتقد أنه هو في النهاية من خلصني من الشبكة. أعترف بأنك كنت ثملا نوعا ما، لكن بالطبع ليس بدرجة تكفي لأن تخفق في القيام بأي شيء. كل ذلك كان عبارة عن مرح، وينتمي إلى الجانب الدائن في دفتر الحسابات. لكن كالعادة، كنت أنا أكثر إدراكا للتفاصيل غير السارة من دون النظر إلى جميع التفاصيل الممتعة. كان اليوم التالي أبديا لا نهاية له. كان من المؤلم أن نكون على متن تلك العربة العتيقة المقعقعة لقطار صغير، وأنا أتطلع باشمئزاز إلى أميال من الصبار على السفوح الجافة من التلال. كانت كل رجة من القطار تضاعف من الدق في رأسي. نام بارتولومي. وبدا أنك لم تكن تعاني دوار الخمر، الذي كنت أشعر بسببه ببعض الألم المبرح، لكن وقتها، كنت أنت معتادا على الكحول ولم أكن أنا معتادا عليه. ونظرا إلى أنك تقول إنك لا تتذكر، فإنني أشعر بالوجود وحدي مع الذكرى؛ وربما أيضا أكون قد حلمت بها كلها.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

أحيانا ما أشـك فيك لمبالغتك في تحدثـك عن عجزك عن تذكر الحاضر، ليس بالتأكيد لإثارة الشـفقة، نظرا إلى أن ذلك لـن يكون متفقـا معك، وبالإضافـة إلى ذلك، فـإن الرغبة في المبالغة ربما تكون لا شـعورية في أصلها. ومع ذلك، فأنت تؤكد وتشدد فعلا على وضعك البائس، إلى درجة لا تمكن الواحد من الحيلولة دون الشعور بالأسف عليك. لكن السؤال هو: لماذا تكتب بليتك أو محنتك بخط مائل؟ فإحساسـي أن هذا ببساطة ليس من القسـوة في شيء. أشعر بأنك تفكر وتقول لنفسك: أنا الآن في كرسي متحرك. هذا هو كل ما في الأمر، وهذا هو ما يرغب فيه العالم. بعبارة أخرى، لقد ألحقوا هذا بك.

وفقمـا أتذكـر، أنت لسـت مغرما على وجـه الخصوص بالحيوانات. لقد كنت أعتبر نفسي دائما من المولعين بالقطط على عكس محبي الكلاب. بدا لي أنه سيكون هناك وقت كاف فـي ما بعـد للتصادق مع الكلاب. لكن فـي هذا المكان ليس هنـاك احتمال كبير لذلك. إنها تخرج في الليل في جماعات، وأحيانا ما تهاجم المارة في الشارع. ذات مرة طاردت ستة منها صديقا أمريكيا لمسـافة ربع ميل علـى طول الطريق الجديد الـذي يمتد من نهاية الجبل القـديم إلى القطاع الجديد في دراديب. عندما يصبح كلب بعينه مقلقا للنوم بشـكل مستمر فإننـي ألجأ إلى تدابيـر حازمة اتبعتها مرتين. سـيكون من الأفضـل أن أصف هذه التدابير الحازمـة، إنني على دراية، فبدلا من أن أدعك تعتقد أنني سممت الحيوانات. طبعا كان هذا هو أول شـيء خطر لي، لكنني قررت التغلب عليه بسبب

المعاناة التي يسببها للحيوان. أيضا، الأعراض الناجمة عن الموت من سم الفئران - المنتج الوحيد الذي كان في إمكاني العثور عليه هنا - قديمة جدا ومحفوظة إلى درجة أن صاحب الحيوان سوف يشك على الفور في أن كلب الحراسة قد تسمم. طريقتي مع الكلب الأول، الذي اعتاد النباح طوال الليل في الحديقة المجاورة، استغرقت وقتا طويلا لكنها كانت فعالة. لقد تطلبت مني هذه الطريقة أن أظل مستيقظا حتى منتصف الليل لمدة أسبوع وأنا منتظر انقطاع الناس تماما عن السير في الشارع، ثم أمضي إلى المطبخ في نحو الواحدة والنصف وأعد نصف رطل من الهامبورجر النيئ. وفي إحدى الليالي بعد ذلك قمت بخلط الميليريل واللارجاكتيل باللحم، وفي الليلة التالية أقوم بطحن العديد من حبوب الأنافرانيل. وأظل أداوم على تبديل المخلوط حتى يقرر صاحب الكلب أنه قد أصبح كلبا مسعورا، ويطلق عليه النار. لم يكن هناك شيء من النباح بعد الليلة الأولى من العلاج. بدت هذه الطريقة أكثر الطرق إنسانية للتخلص من الحيوان.

في سنة أخرى وضعت كلبة مولودها في الجراج، الذي كان مفتوحا بشكل مستمر. هيأ لها الخفير كرتونة لتنام عليها مع جرائها. وعندما كبرت جراؤها، بقيت الكلبة في الجراج، بتشجيع من امرأة إثيوبية غريبة الأطوار كانت ترسل إليها خادمتها طوال الوقت بالطعام. وبمجرد إحساسها بأنها أصبحت في بيتها تماما في الجراج، بدأت تشترك في محادثات كثيرة مع أصدقاء لها في عين حياني ودراديب. شكوت هذا إلى عبد الواحد؛ فقد

اعتقدت أنـــه قد يكون عنده حل. كان عنده حل واحد بســيط. التقط الكلبة ووضعها في شــنطة الســيارة. ومضينا بالســيارة إلـــى «فوريه ديبلوماريك»، عند حافة الشـــاطئ، حيث كان هناك مطعـــم يديره مغربي ولديه طاقم من الـــكلاب. قبل أن نخرجها من الشـــنطة، أدار عبد الواحد الســـيارة الموســـتانج إلى الجهة المعاكسة، ليكون متأهبا للإقلاع بها بسرعة. وقفت الكلبة لبرهة على الشاطئ، وقد تملكتها الحيرة؛ رأتها الكلاب الأخرى وجاءت لتقصي أمرها. بينما كانت الكلاب متحلقة من حولها انطلق عبد الواحـــد، وهربنا، وعلى الرغم من ذلك فقـــد تمكنت من رؤيتها وهي تجري خلف الســـيارة لمســـافة كبيرة بينمـــا كنا ننطلق عبر الغابـــات. لم تكن غبية، فبمجرد ســـماعها صوت المحرك دفعت الكلاب الأخرى جانبا وأسرعت نحو السيارة.

لابد من أن شـــيئا ما قد حدث للمغاربة. منذ خمســـين سنة كانت الكلاب ممقوتة عندهم. فقط المغاربة الذين كانوا يعيشون في الريف هم من كانوا يمتلكونها. فقد كان من القذارة الشديدة أن تعيـــش في المدينـــة. لكنهم لاحظـــوا بطريقة مـــا أن معظم النســـاء الفرنســـيات تقريبا كن يمشين في الشـــارع وبصحبتهن كلاب مربوطـــة، وبالتدريج بدأوا فـــي تقليدهن. في البداية كان الأولاد يقـــودون كلابا مهجنـــة، يربطونها بحبـــال محكمة حول رقابها. أصبحت النساء الفرنسيات اللائي كن يمررن في الشارع مستاءات، وكن يصحن: «يا لهذا الكلب المسكين! سوف يختنق!»(*) الآن أصبح لدى كل طفل مغربي في المناطق المجاورة كلب يمتلكه

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

ويشـــفق عليه. معظمها كلاب رعي ألمانية، يعتقد الآباء أنها توفر نوعا أفضل من الحماية.

لا يمكن التنبؤ بســـلوك الفرنسيين. الشهر الماضي كان هناك مصور فوتوغرافي يلتقط الصور لمصلحة صحيفة «ليبراسيون». الشـــيء الوحيد الذي أثاره وحـــرّك انتباهه للتعجب من المفاجأة كان حجم جرة زبدة فول ســـوداني مملـــوءة بحبوب الطيور. هل هـــذا جدير بالتصديق؟ أراد أن يعرف، هل يبيعون فعلا مثل هذه الجرار من زبدة الفول الســـوداني؟ عندما قلت له «نعم»، لم أكن متأكدا من أنه لم يرتب في كلامه ظنا منه أنني أوقعه في شرك، لأنني رأيته يذهب إلى الطرف الآخر من الحجرة ليتفحص الجرة بعناية. أتمنى لك السعادة في عيد الميلاد المجيد.

(٥)

أرسل لي شـــخص ما علبة شـــوكولاته أمريكية بالكريمة في الأســـبوع الماضي. على غطائها كتبت الكلمـــات التالية «صناعة منزلية». وعلى الناحية الأخرى من الغطاء نفسه قائمة المكونات الداخلـــة فيها. كان مـــن بين هذه المكونات: ســـكر، زيوت نباتية مهدرجـــة جزئيا، ســـوربيتول، ليســـيثين، هيدروكســـي تولووين بالبوتيلـــين، هيدروكســـي أنيســـول بالبوتيلين، بروبيـــل جاليت، سوربيت البوتاســـيوم، ثاني أكسيد الكبريت وبنزوات الصوديوم. ليس مـــن المحتمل حتى لدى أكثر البيـــوت عصرية أن تكون في مطابخها كل هذه الأصنـــاف الترفيهية. على الرغم من أنني لم يتسن لي تناول طعام في مطبخ أمريكي منذ عدة سنوات، لكنني

أعرف أنهم ميالون أكثر وأكثر إلى أن تبدو مطابخهم مثل المعامل. ربما أصبحت لديهم الآن دواليب تخزين كيميائية تحتوي على كل شيء بدءا من ترثيلين جليكول الإيثيلين وانتهاء بميتوكلوبراميد.

كانت المطابخ في البيوت الريفية في زمن الحرب العالمية الأولى لا تبعث على الراحة والسرور هي الأخرى، وفقما أتذكر، على الرغم من كل الدعاية التي تتحدث عن هذه المطابخ بشكل رومانسي. كانت هناك دائما روائح مختلطة من اللبن الفاسد، والشبت والحديد تنبعث من مياه الآبار. واللوالب الورقية اللاصقة المخصصة كمصايد للذباب مدلاة من كل ركن وخطاف، والذباب لايزال يئز في جميع الجهات، وإذا كانت هناك كلاب، فإنها تبعث برائحة. وإذا كان هناك أطفال، فستنبعث منهم رائحة. كان من غير المعقول أن نتصور أن الناس الجادين يرغبون في العيش بهذه الطريقة. ما الذي أصابهم؟ لا شيء. إنهم فقط لا يعرفون شيئا أفضل، هذا كل ما في الأمر. لم ترضني هذه الإجابة أبدا. إنها تنطوي بداهة على معيار مزدوج إلى درجة جعلت من المستحيل على أبي وأمي أن يتغاضيا عن نقائص هؤلاء الناس. بل إنهما لم يسامحاني أبدا على جهلي بما كان يجب عليّ معرفته، وكانت القسوة تستعمل ضدي على وجه التحديد لأنني لم أكن صبيا مزارعا. منذ سبعين عاما كان يوجد هناك اختلاف طبقي بين هؤلاء الذين نشأوا في المدينة وهؤلاء الذين كبروا في المزرعة. الآن يبدو أن هناك اختلافا ضئيلا جدا. كان مفهوم الطبقة قد دُمر بحذر وعناية. إما أنك تمتلك، أو، لا تمتلك.

نتيجة الديموقراطية، على ما أظن، عندما أسيء فهم معنى الديموقراطية على أنها التشابه بدلا من المساواة.

لم يكن في إمكانك أن تعرف فندق باريس النموذجي الصغير والمتوسط في أسعاره في سنوات العشرينيات - بحلول الوقت الذي كنت قد وصلت أنت فيه إلى باريس، بعد الحرب العالمية الثانية، كانت الأمور قد تغيرت نوعا ما - كانت هناك ثلاث أو أربع حجرات فقط في كل طابق، وكانت السلالم والممرات مفروشة عن آخرها والنوافذ محجوبة بوساطة مجموعتين من الستائر. كان هناك في العادة مصدران للإضاءة في الحجرة، أحدهما مدلى من منتصف السقف والآخر فوق مقدمة السرير. كلاهما كان مثبتا بنظام البكرات المتحركة، حتى يتسنى تحريكهما إلى أعلى وإلى أسفل وفقا لمتطلبات اللحظة. وكان ورق الحائط غامقا دائما ذا خطوط ملونة عريضة ربما كانت في يوم من الأيام ذات ألوان صارخة، على الرغم من أنه ليس هناك طريق لمعرفة ذلك، نظرا إلى أن طبقات التقادم التي علتها منذ فترة طويلة جعلتها ذات لون داكن. كان من السهل أن تشعر بأنك محاط بغلاف محكم عليك ومحمي في تلك الحجرات، وكثيرا ما أحلم بها حتى الآن. ولكن مثل هذه الأحلام لا تبعث على السرور، نظرا إلى أنني دائما ما كنت أبدو على وشك الاضطرار إلى المغادرة للسماح لشخص آخر بالانتقال إليها. على الأقل، لم يكن هناك حلم يخلو من هذا القلق اللاشعوري.

بالمناسبة، لا يوجد لديك سبب لتوبيخي على عدم إبداء ردود أفعال معينة خاصة بي تجاه أحدث قصة مأساوية من قصصك.

فمثل هذه الردود يمكن أن تكون عاطفية فقط من حيث المحتوى، وليس هناك مغزى على الإطلاق في التعبير عن العواطف بكلمات، فذلك هو ما يبدو لي. ومع ذلك أؤكد لك، أنني قد عانيت من إحساس عميق بالإحباط عندما قرأت خطابك وأنني أدركت أنك كنت تعاني مزيدا من العذاب، وأعتقد أنني قد نقلت إليك هذا الانطباع في وقت سابق.

ربما تتذكر - على الرغم من أنك قد لا تتذكر، نظرا إلى أنك لم تفتح من قبل كتابا مكتوبا في قرننا لتطالعه - عبارة وردت على لسان كاستور في الغثيان: «أنا نجوت»(*)، وقد ترجمت بشكل سيئ ومن دون براعة في الطبعة الأمريكية بـ «أنا أعمّر»، أفهم إحساس كاستور لأنه وحيد هنا بنجاته؛ إنه إحساس ليس مخالفا لإحساسي، لكنني سأعبر عنه بقولي: «حياتي تشرق بعد الوفاة»(* *). هل تفهم شيئا من هذا؟

كنت قد تمنيت دائما أن يعيد شخص ما صياغة نهاية «هكلبيري فين»(* * *)، محولا إياها عن المشاهد الختامية الهزلية التي ربما أقحمها توين بتأثير من موجة الاندفاع العاطفي في فكرة الكتاب المكتمل تقريبا كضرورة إذا كان المطلوب أن يحظى العمل بالتقدير من جانب القراء الأمريكيين. إنها الرواية الأمريكية العظيمة، التي دمرت بلا أمل في إصلاح بسبب مؤلفها عديم الحساسية غير الحصيف. سأكون مهتما بمعرفة رأيك، أم أنك تشعر بأن الكتاب لا يستحق إبداء الرأي في ما يتعلق بمحتواه،

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

(* *) وردت بالفرنسية [المترجم].

(* * *) مغامرات هكلبيري فين (١٨٨٤) رواية للكاتب مارك توين [المترجم].

نظرا إلى أن ترقيع تحفة أدبية غير متقنة لا يعد تحفة أدبية على الإطلاق؟ بل وفوق ذلك سيكون تزويرا للأسلوب بشكل ناجح، إلى حد جعل الفراغات والفواصل تلفيقية، والنثر الذي سيعقبها سيكون بشكل إقناعي استمرارا لما سبقها، مهمة تبدو مستحيلة. لذلك فإنني لن أحاول تجربتها بنفسي.

أعتقد أن من علامات الشيخوخة التي تدب وتزحف تقلص مدى الاهتمام والانتباه، والذي يصيبني على هيئة نكوص أو ارتداد إلى مرحلة الطفولة. سوف نرى.

(٦)

لم آت على ذكر العداء الذي كنت قد أشرت إليه في خطاباتك لأنني افترضت أنه كان موجها إلى العالم بصفة عامة، وليس موجها إلى شخصي. الآن أرى، كم كنت مخطئا. في البداية أخبرتني أن خطاباتي مطلقة العنان وعلى سجيتها. وقد تجاوزت عن هذا، كان مجرد نقد لطريقتي. لكنني لن أغض الطرف عن كلمة «شماتة». ونظرا إلى ذلك، أدركت أنني كنت سأحسن صنعا لو اقتصرت خطاباتي على بطاقة واحدة عند الضرورة مكتوب عليها «تمنياتي لك بالشفاء العاجل»، وأن أدع الأمر ينحصر في ذلك.

يبدو لي أنه خلال هذه الفترة النهائية من حياتك سيكون من المربح والمجدي التوقف عن تغذية ميولك المستعذبة للألم. يمكنني أن أرى أنك لا تشعر بهذا على الإطلاق، وأنك على العكس تعتزم الاستمرار في إطلاق العنان لها تماما. هذا سيئ

جدا. من الواضح أنه لا يوجد هناك شــيء يمكنني القيام به من هنا لمســاعدتك، لذلك ربما أتجاهل الأمر أيضا. لكن بينما أنت غــارق في عدمك المفروض ذاتيــا، أتمنى أن تتذكر - ولن تتذكر - أننــي قمت بهذه المحاولة البســيطة التــي لا طائل من ورائها لمساعدتك لكي تبقى إنسانا.

«مــادام ليس هناك عالم آخر»(*)، كمــا اعتادت روزا لوبيز أن تقول.

(*) وردت بالإسبانية [المترجم].

المترجم في سطور

أ. محمد هاشم عبدالسلام

- روائي ومترجم.
- من مواليد العام ١٩٧٥.
- حاصل على بكالوريوس علوم الحاسب الآلي العام ١٩٩٦.
- له عدة كتب منشورة، مثل:

قشـرة زائلة (رواية - ٢٠٠٠)، بيت المرايا (رواية - ٢٠٠٢)، محاورات مع أعلام السينما الأوروبية - ٢٠٠٦. كما أن له كثيرا من الكتب قيد الطبع والنشر.

- له كثير من المقالات والترجمات والنصوص الإبداعية المنشـورة في الصحف والمجلات.

المراجع في سطور

د. سليمان خالد الرياح

- من مواليد الكويت العام ١٩٥٣.
- حاصل على شهادة البكالوريوس - في الآداب - قسم اللغة الإنجليزية وآدابها العام ١٩٧٥، وعلى شـهادة الماجسـتير في تخصص اللغـة الإنجليزية - كلغة أجنبية العام ١٩٩٠.
- حصل على شـهادة الدكتـوراه من جامعة ولاية أوهايو فـي كولومبوس، في تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية العام ٢٠٠٢.
- شغل عضوية كثير من اللجان العلمية وغيرها.
- يعمل حاليا أسـتاذا مسـاعدا في قسـم اللغة الإنجليزية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، ويشغل منصب رئيس وحدة اللغة الإنجليزية في كلية التربية الأساسية.
- راجع لسلسلة إبداعات عالمية، رواية «الشباب»، العدد ٣٥٦، أكتوبر ٢٠٠٥.

الفهرس

مقدمة المراجع 5

أنتِ لستَ أنا 8

اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز 23

حقول صقيعية 35

تابياما 68

الضبع 98

زمن الصداقة 104

بعد الظهيرة مع أنتيوس 158

مجذوب 166

علال 175

العين 193

في الغرفة الحمراء 208

كلمات غير محببة 224

hamza mizou

إبداعات عالمية

العقرب وقصص أخرى
(الجزء الثاني)

يعد بول بولز كاتبا متميزا، غزير الإنتاج، وما هذه المجموعة - والجزء الأول منها الصادر في العدد الماضي من هذه السلسلة - سوى النزر اليسير من إنتاجه القصصي. ومن الملاحظ أن الكاتب يميل في كتاباته إلى أسلوب الحوار بدلا من أسلوب السرد الممل. وإن كان يبدو أن بولز يلجأ إلى الرمز في أحيان قليلة، كما هي الحال في قصة «الضبع». كما تتسم كتابات بولز باستخدام كثير من الألفاظ والتعابير العربية والإسبانية والفرنسية في قصصه، وبعضها باللهجات الدارجة، حيث إن أحداثها تقع في بلاد ومناطق مختلفة - في المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية - (باستثناء قصة «في الغرفة الحمراء» التي تدور أحداثها في سريلانكا). وهذا يدل على كثرة أسفاره واحتكاكه بثقافات متعددة تنعكس في قصصه. ومن الأمثلة على هذا الحوار قصة «زمن الصداقة»، إذ تمثل الثقافة الغربية فيها «الآنسة ويندلينج»، بينما يمثل الثقافة العربية «سليمان» و«بوفيلجا».

أبطال قصص بولز شخصيات بسيطة ومن واقع الحياة، وبعضها يحمل أسماء عربية مثل «علال»، وهناك قصة تحمل اسما عربيا وهو «مجذوب»، وهي بالطبع تعبر عن ثقافة عربية، مثل القصتين السابقة الإشارة إليهما. أما الشخصيات الأخرى غير العربية، مثل «رامون» في قصة «اليوم الرابع بعد مغادرة سانتا كروز»، فهي تعبر عن قيم وأفكار وتقاليد غربية، وإذا التقت بشخصيات أجنبية بالنسبة إليها فمن الطبيعي أن يحدث احتكاك بين ثقافتين وحضارتين وقيم وتقاليد متباينة.

تتناول قصص بولز تفاصيل الحياة اليومية في المدينة أو المنطقة أو البيئة التي تقع فيها الأحداث، مع وصف دقيق وشامل لها وذكر أسماء الأماكن وما يميزها من معالم جغرافية.

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٠٠٣
ردمك: ٦-٢٦١-٠-٩٩٩٠٦